

عمر مكرم

بطل المقاومة الشعبية

تأليف

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي

يولية ١٩٦٧

عمر مكرم

بطل المقاومة الشعبية

تأليف

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

مقدمة

يحتل السيد عمر مكرم مكانا مرموقا بين أعلام العرب منذ ظهر فى الحياة السياسية فى أواخر القرن الثامن عشر . وهو زعيم سياسى ينتمى الى الدوحة النبوية الشريفة. هفت نفسه الى الايغال فى العلم فشد رحاله من أسيوط ، مسقط رأسه ومرتع صباه ، الى القاهرة ، والتحق بالأزهر حيث قضى فى رحابه سنين عددا يتلقى العلم عن أشياخ عصره . ولما أتم دراسته فى هذه الجامعة العتيدة على النحو المألوف فى زمنه ، انصرف الى الحياة العامة يسهم فيها بنصيب موفور . وتقلد نقابة الأشراف . ولمع اسمه حين هبطت أرض مصر الحملة الفرنسية ، ناهض الفرنسيين ورفض أن يكون من أعوان الاحتلال الفرنسى على الرغم من وسائل الاغراء التى استخدمها معه رجال الحملة .

والسيد عمر مكرم يمثل طرازا فريدا بين زعماء العرب فى التاريخ الحديث . كان مسلما فى عقيدته ، أزهريا فى ثقافته ، عربيا فى أصالته ، عثمانيا فى نزعته . ولا تثريب عليه فى نزعته العثمانية فالمجتمع الذى عاش فيه كان مجتمعا دينيا . وكان الشعب المصرى لا ينظر الى سلطان الدولة العثمانية على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر أو مستغل ، بل كان ينظر اليه على أنه سلطان الاسلام أو سلطان المسلمين ، وأن الدولة العثمانية هى دولة الاسلام الكبرى تظل المسلمين بظلها الظليل . وكان أن نجح العثمانيون فى فرض

استعمار مقنع على مصر وسائر أجزاء العالم العربى باسم الدين ، والدين منه براء .

والسيد عمر مكرم زعيم شعبى ، التصق بالشعب وبث فيه روح العزة والكرامة . واستمد من الشعب قوته ومكانته اللتين سما اليهما . وكان الشعب يفزع اليه كلما اشتدت عليه مظالم الحكام يطلب تدخله لديهم لرفع المظالم عن كاهله . لقد تعرض الشعب بعد اجلاء الفرنسيين لفترة من أحلك الفترات التى مر بها فى تاريخه الحافل . سادت البلاد فوضى سياسية عنيفة لم ير الشعب لها من قبل مثيلا . تصارع على الحكم فيها العثمانيون والمماليك ، وتصارع على النفوذ فيها الانجليز والفرنسيون . وكان الشعب الكادح هو ضحية هذا التصارع الرهيب : اضطرب الأمن ، وانقطعت وسائل الاتصال بين أجزاء البلاد ، وتدهورت الحياة الاقتصادية ، وعزت الأقوات ، وامتلأت مصر بأخلاط شتى من الجنود لم تربطهم بالشعب آصرة من ود أو تعاطف . كانوا ينهبون المتاجر ويهاجمون المنازل ويعتدون على الأعراض ويتخطفون العمائم من رءوس المارة . وعمد المصريون الى ربط عمائمهم فى رءوسهم . ومضى العسكريون العثمانيون يمعنون فى عمليات السلب والنهب والقتل وينشرون الرعب فى الريف والحضر على السواء . وتدخل السيد عمر مكرم لدى السلطات الحاكمة لوقف هذه الآثام . ولكن كان زمام الموقف قد خرج من يد الحكام الذين عجزوا عن تطويع الجنود . وعاش المصريون عهدا قاتما مظلما كثيف الاظلام . ولما اشتدت الكروب بالشعب وجاوز الظالمون المدى قاد السيد عمر مكرم ثورة شعبية هادرة فى وجه وال عثمانى هو أحمد خورشيد باشا أسرف اسرافا بعيدا فى ظلم الشعب . ونجحت الثورة وتم انقلاب مايو ١٨٠٥ وفيه استطاع الشعب بصدقه الثورى أن يفرض ارادته ويعزل الوالى الظليم

ويولى محمد على حكم مصر وفق مبادىء معينة وضعها السيد عمر مكرم وارتضاها محمد على دستورا لحكمه • وكان أهمها اقامة العدل والكف عن المظالم وعدم استغلال الشعب والرجوع الى الزعماء • ورضخ السلطان العثمانى فى الآستانة لسياسة الأمر الواقع ، فأصدر مرسوما أقر فيه الوضع الجديد « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » كما جاء فى منطوق المرسوم • وزادت مكانة عمر مكرم فى نظر الشعب وتبوأ مكانا عليا لم يبلغه زعيم آخر من قبل ، وغدا زعيم زعماء مصر فى مطلع القرن التاسع عشر •

وبرز السيد عمر مكرم بروزا واضحا قويا حين تعرضت مصر فى سنة ١٨٠٧ لحملة بريطانية كانت تجمع خليطا غريبا من الجنود الانجليز ومن الجنود المرتزقة الايطاليين ومن المهاجرين الفرنسيين الذين وقفوا موقفا عدائيا من الثورة الفرنسية • وقام عمر مكرم باستنفار الشعب وأمر بايقاف الدراسة فى الأزهر حتى ينصرف علماؤه ومجاوروه الى صد العدوان،وجمع المتطوعين وجهزهم للسفر الى رشيد وأسهم فى اقامة التحصينات العسكرية حول القاهرة • وقد أخفق العدوان البريطانى على مصر • وعادت فلول الحملة تجر أذيال الخيبة والفشل الى جزيرة صقلية التى اتخذتها انجلترا قاعدة عسكرية للعمليات الحربية فى حوض البحر المتوسط ضد نابليون •

وركن محمد على الى الزعيم فكان ذراعه الأيمن يرجع اليه فى شئون الحكم وكان الزعيم له نعم العضد الأمين • واستطاع محمد على بفضل تدخل عمر مكرم ووقوفه الى جانبه أن يجتاز بنجاح الأزمات والصعاب التى واجهته خلال السنوات الأولى من حكمه • ولم يطل أمد التعاون الوثيق بين الزعيم عمر مكرم وبين الوالى محمد على ، فان الأخير ـ بعد أن وطد أركان حكمه ـ بدأ يكشف عن نزعته الاستبدادية وعن رغبته فى اقصاء الزعامة الشعبية

صاحبة الفضل عليه فى الوصول الى منصبه ، فاذا به يتنكر لهـا ويشتط فى فرض الضرائب الجزافية ويهدد أفراد الشعب بقطع الرقاب اذا فكروا فى الثورة عليه • ويدرك الزعيم أن هذا الوالى يعمل على شاكلة الولاة العثمانيين ، فوقع ما لم يكن منه بد وهو المعارضة ثم الصدام •

وقف عمر مكرم فى معارضته لمحمد على موقفا بطوليا فريدا لم يقفه غيره من زعماء مصر فى ذلك الوقت ، اذ ضعفوا ووهنوا واستكانوا لمحمد على خوفا وطمعا ، خوفا من بطشه ، وطمعا فى مزيد من المناصب والأموال ، نجح محمد على فى التلويح لهم بها كى ينقلبوا على كبيرهم وزعيمهم عمر مكرم ، وأفلح محمد على فى خطته ووقف عمر مكرم بمفرده دون سائر الزعماء صامدا فى أحلك أوقات المحنة فى وجه محمد على • لم يرهبه جبروت هذا الحاكم ، ولم يبهره بريق المال ولا أبهة المناصب ، بل ظل وفيا لمبادئه مناضلا عن حقوق الشعب •

لقد لقى محمد على ـ فيما لقى فى مستهل حكمه ـ نوعين من المعارضة : معارضة سافرة صريحة جريئة حمل لواءها عمر مكرم ، نعى عليه أسلوبه الباغى فى حكم الشعب واسرافه فى فرض الضرائب وعدم الرجوع الى زعماء الشعب فى مشكلات الحكم ، واتهمه باختلاس الأموال العامة وبالتزوير فى كشوف ايرادات ومصروفات الحكومة المصرية التى كان يبعث بها محمد على الى الباب العالى فى الآستانة • ثم كان هناك النوع الثانى من المعارضة وهو المعارضة الخفية المستترة ، وقد تمثلت فى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، وما كان يسطره فى كراساته من تصرفات وما يسجله عليه من أنواع الظلم وما يهمس به فى مجالسه الخاصة من نقد لاذع ومعارضة لأساليبه التعسفية • وكان الشيخ الجبرتى شديد التحمس للنظرية السياسية الاسلامية وهى أن عدل الحاكم

شرط أساسى لطاعة المحكومين له • وقد ضاق محمد على ذرعا بهذه المعارضة بنوعيها : السافرة والمستترة وعزم على القضاء عليها • وبدأ بالمعارضة السافرة لأنهــــا كانت أشد خطرا عليه وهو فى مستهل حكمه ، فوقع الصدام بين عمر مكرم وبين محمد على • وانتهى هذا الصدام بعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف واقصائه عن الحياة العامة بنفيه من القاهرة ، وتشويه سمعته العطرة بالصاق تهم كاذبة به أبلغت الى الباب العالى فى الآستانة •

أما المعارضة الخفية فقد تكفل باسكاتها محمد بك الدفتردار صهر محمد على ، اذ ســــولت له نفسه ان ينتقم من الشـــــيخ عبد الرحمن الجبرتى فقتل ابنه خليل ، وكان الشيخ قد أصـــبح طاعنا فى الســــن أشرف على السبعين فروع بفجيعة الثكل فى فلذة كبده ، وابيضت عيناه من الحزن ، وتعذر عليه مراقبـــة الحوادث وتسجيلها ، وتوقف عن الكتابة الى أن جاز الى ربه •

لم تكن حياة عمر مكرم ناعمة هادئة ، فقـــد تعرض لشـــتى صنوف الايذاء : النفى الاختيارى تارة والنفى الاجبارى تارة أخرى ، وصودرت ممتلكاته ونهبت أمواله ، وحددت اقامته ، ونزعت منه نقابة الأشراف ثلاث مرات • ولو كان عمر مكرم من الزعماء الذين يداهنون الحكام لجرى عليه الرزق رغـــدا من كل مكان ، ولكنه توفر فى اخـــلاص على الدفاع عن حقوق الشــــعب الكادح وحمل جــذوة النضـــال ووقف فى وجــه الغــزاة الفرنسيين والبريطانيين وفى وجه الحـــاكم المســــتغل الظـــالم محمد على وقفة صـــارمة خالصــــة لله وللوطن ولم يكن كفاحــه الســـياسى جـــريا وراء مغانم يظفر بهـــا من جـــاه أو منصـــب أو مـــال ، فقــد كان طوال حيـــاته عزوفا عن المـــال زاهــدا فى الجـــاه منصرفا عن المناصب وقد عاصر عمر مكرم فترات من التـــاريخ المصرى حفلت بالأحداث الجسام والتغييرات الجذرية كان لها أثرها البعيد فى حياة

البلاد طيلة القرن التاسع عشر . شـــهد عمر مكرم نهاية النظام العثمـــانى المملوكى وقدوم الحملة الفرنســـية الى مصر ثم عهـــد الانقلابات الســـياسية عقب اجـلاء الفرنسيين الى أن تم تنصيب محمد على واليا على مصر ، وما أعقب ذلك من أزمات سياســـــية وأخطار خارجية .

ولم تكن حياة عمر مكرم خالية من المآخذ السياسية ، وقد سجلناها عليه وناقشناها ، كما حرصنا على ابراز بعض مســـائل هامة فى تاريخ مصر القومى تتصل اتصالا وثيقا بعمر مكرم ، منها : أسباب عدم مبادرة الشعب المصرى الى المنـــاداة بعمر مكرم أو بزعيم مصرى آخر واليا على مصر ، والأسباب التى جعلت عمر مكرم يتجه الى اختيار محمد على بالذات ليكون واليا على مصر ، ومنها أيضـــا تفنيد الأسطورة التى روج لها رجال السياسة والاقتصاد فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وهى اسكارة تجرد الزعيم من دوره القيادى فى انقلاب ١٨٠٥ وتضـــفى على نابليون الأول الفضل فى هذا الانقلاب .

لقد ذهب عمر مكرم فى تاريخ مصر كلها بطلا وزعيما شـــعبيا سجل فى تاريخ وطنه صفحات ستظل باهرة الضياء عبر القرون والأدهار .

دكتور

عبد العزيز محمد الشناوى

أستاذ كرسى التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر

مصر الجديدة فى { ١١ من ربيع أول ١٣٨٧ هـ
١٩ من يونيـــو ١٩٦٧ م }

البَابُ الأوّل

عمر مكرم إبان العصر العثمانى المملوكى

الفصل الاول

ملامح العصر العثمانى المملوكى

تم الغزو العسكرى العثمانى لمصر العربية فى مطلع سنة ١٥١٧ ، وسقطت دولة المماليك الشراكسة ، وفقدت مصر استقلالها ، وانفصمت عرى الوحدة التى كانت قائمة بين مصر والشام ، وزالت تبعية الحجاز لمصر بعد أن تحول شريف مكة بولائه نحو الدولة العثمانية ، وانتقل مركز الخلافة من القاهرة الى الآستانة ، وخسرت مصر زعامة العالم الاسلامى وهبطت الى ولاية عثمانية •

رأى العثمانيون أن فى وفرة خيرات مصر وتنوع مواردها وكثرة عدد سكانها وبعدها عن مقر الحكم فى الآستانة ما يغرى واليا ذا أطماع سياسية على الاستقلال بها ، فوضعوا لحكم مصر نظاما معقدا يستهدف ضمان بقائها ولاية عثمانية ، وتمثل هذا النظام فى ايجاد هيئات متعددة متباينة تشترك معا فى شئون الحكم ويوازن بعضها بعضا حتى لا تنفرد بالحكم هيئة دون الهيئات الأخرى • وتكونت هذه الهيئات من الباشا وهو نائب السلطان العثمانى فى حكم مصر ورئيس الحكومة المصرية • وكان مقره القلعة • واختصاصاته عديدة متنوعة ولكن كان يغلب على معظمها الطابع الرياسى فقط • فلم يكن مطلق التصرف فى المسائل الهامة، بل كان عليه أن يحيلها الى الديوان فى القاهرة ليتخذ فيها قرارا • وكان الوالى يتلقى أوامر السلطان فيخطر بها الأجهزة الحكومية

المختصة لتنفيذها • وكانت له رياسة الاحتفالات العامة وهو الذى يعلن الفرح فى المناسبات السعيدة مثل انتصار السلطان فى حروبه أو اذا رزق السلطان بمولود ذكر أو اذا تزوجت احدى كريمات السلطان • وتتراوح مدة بقاء الباشا فى منصبه بين سنة وثلاث سنوات ولا تزيد عن هذه الفترة الا نادرا جدا • وتمثلت الهيئة الثانية فى جيش الاحتلال العثمانى وكان يتكون من عدة فرق تمثل الاسلحة المختلفة فى الجيش العثمانى مثل المشاة والفرسان والمدفعية (الطوبجية) والبحرية وما الى ذلك • وخضعت هذه الفرق فى تنظيمها العسكرى لنفس النظام المعمول به فى الجيش العثمانى • ولم تكن ذات صبغة عثمانية خالصة فكانت تضم عناصر من الأتراك والشوام والمغاربة والعرب والمماليك • وكان عدد الجيش اثنى عشر الف جندى ، **ويلاحظ أنه كان للجيش فى الدولة العثمانية وظيفتان : الحرب والاشتراك فى الحكم • وقد طبق العثمانيون هذا المبدأ بشقيه فى مصر** ولذلك امتدت اختصاصات جيش الاحتلال الى القطاعين العسكرى والمدنى على السواء ، فكان للعسكريين بجانب الحرب اختصاصات سياسية وادارية ومالية وتموينية وما الى ذلك • أما الهيئة الثالثة فكانت المماليك وقد أبقاهم العثمانيون عنصرا هاما فى الشئون الحربية والادارية فى مصر تحت السيادة العثمانية لأنهم لمسوا فيهم قوة حربية ممتازة رأوا توجيهها لخدمة الدولة العمثانية والدفاع عن البلاد) فضلا عن أنهم يعرفون مصر جيدا لطول اقامتهم بها • وكون العثمانيون أيضا الديوان الكبير ويتكون من قادة فرق جيش الاحتلال والأمراء المماليك وكبير القضاة ورجال الافتاء على المذاهب الأربعة وكبار رجال الدين والدفتردار وهو رئيس ديوان المالية • وكان الديوان الكبير يجتمع أحيانا عدة مرات فى الأسبوع كلما دعت الحاجة الى عقده ، ويترك الباشا رياسة الديوان لنائبه ويتابع

هو جلساته من وراء ستار على غرار ما كان يفعل السلطان فى ديوان الآستانة (١) •

بقى هذا النظام معمولا به ما بقيت الدولة العثمانية مهيبة الجانب قوية النفوذ والسلطان ، ولكن حدث فى القرن الثامن عشر أن تدهور النفوذ العثمانى نتيجة ضعف الدولة العثمانية • وأصبح الباشا فى مصر مسلوب السلطة ، واستشرى نفوذ جيش الاحتلال العثمانى خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر وتطلع العسكريون الى مزيد من الوظائف المدنية والاختصاصات والمرتبات والامتيازات، وزحفوا مدنيا الى مرافق البلاد يبتغون التسلط عليها لتحقيق مغانم شخصية لهم على حساب مصالح الشعب الكادح ، ثم انقلبت الأوضاع فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر اذ أصبح الأمراء المماليك هم الهيئة الحاكمة وتسللوا الى المناصب القيادية فى الحكومة والجيش وتوارى نفوذ العسكريين العثمانيين ، وبذلك تصدع نظام الحكم العثمانى الذى أرسى قواعده السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ • ويعنينا فى هذا البحث ما طرأ فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لأنه فى هذه الفترة ظهر عمر مكرم وأطل على الحياة السياسية فى مصر •

عمل الأمراء المماليك على تدعيم مركزهم بالاستكثار من شراء المماليك وتدريبهم تدريبا عسكريا ممتازا وتزويدهم بالأسلحة والخيول الأصيلة ، واستولوا على معظم الأراضى الزراعية عن طريق نظام الالتزام ، وبلغوا من القوة شأوا بعيدا بحيث أنهم كانوا يمتنعون عن ارسال الجزية الى السلطان بانتظام ويعزلون الباشا

---

(١) انظر بخصوص نظام الحكم الثمانى فى مصر
Combe Etienne, L'Egypte Ottomane de la Conquete par Seiim (I517) à l'arrivée de Bonaparte Precis de l'Histoire d'Egypte (4 vols.) t III Le Caire, 1933), pp 51-67

اذا غضبوا عليه ، ويرضخ الباشا لقرار العزل ويغادر القلعة مجردا من كل سلطان ويقيم فى أحد المنازل حتى تتم اجراءات ترحيله ، وكان السلطان يصدر مرسوما بتعيين باشا آخر . اما رجال جيش الاحتلال فقد ضعفت صلاتهم بالآستانة ، وكانت الادارة المالية فى الحكومة المصرية فى أيدى المماليك ، فكان العسكريون تابعين لهم من الناحية المالية فى وقت عظم فيه نفوذ المماليك فتملقهم ضباط جيش الاحتلال وجنوده وأصهروا اليهم وأصبحوا من عشيرتهم وأتباعهم ، ومن ناحية أخرى تغلغل المماليك فى مناصب جيش الاحتلال حتى أصبح رؤساء الفرق وأغلب ضباطها من المماليك .

وعلى الرغم من أن المماليك قد بلغوا هذا الحد من القوة واستأثروا بالحكم الا أنهم فشلوا فى الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية . ويرجع هذا الفشل الى انقسام الأمراء المماليك بعضهم على بعض وتنافسهم وتناحرهم فقد عجزوا عن توحيد كلمتهم والخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم وبمصر الى الاستقلال التام . وكان اذا ظهر أمير منهم وتجمعت له أسباب القوة كان الأمراء الآخرون المنافسون له هم أول من يثور عليه ويناصبونه العداء السافر ، وتقع المشاحنات والحروب . وفى معظم الحالات كان يلقى مثل هذا الأمير مصرعه . أما اذا نجا من القتل فكان يلجأ الى الصيد ويعيد تنظيم قواته ويعود الى محاربة خصومه . وتستمر الحرب سجالا . وكانت مهمة الدولة العثمانية هى الايقاع بين الأمراء المماليك وزيادة أسباب الانقسام بينهم . وكانت المشاحنات والحروب هى الظاهرة الشائعة فى تاريخ مصر وقتذاك . وكتابة الجبرتى حافلة بهذه الصور الدامية للحروب الداخلية التى كانت تدور فى شوارع القاهرة وفى قرى مصر .

تتمثل هذه الظاهرة فى حركة على بك الكبير (١٧٦٨ ـ ١٧٧٣) الذى كان فى مهده طفلا مسيحيا اسمه يوسف اختطفته عصابة

من قطاع الطرق فأسروه بضاعة وباعوه فى ســـوق الرقيق فى الآستانة الى كرد أحمد من كبار تجار الرقيق ، وجىء به ســنة ١٧٤٣ الى الاســكندرية حيث بيع بثمن بخس دراهم معدودة الى مديرى جمركها الأخوين اليهوديين اســحق ويوسف • وهــذان اليهوديان تقربا به هدية الى أحد أصحاب النفوذ فى مصر فدفعـه فى نفس الطريق الذى سار فيه من سبقه من المماليك : اعتنــق الاسلام وسمى عليا وتلقى تعليما دينيا وعسكريا وأظهر براعــة فائقة فى ركوب الخيل واستخدام السيف • ثم دارت الأيام وغدا شيخا للبلد ثم أميرا للحج يقود جموع الحجيج الى بيت الله الحرام بعد أن كان والده القسيس داود يرجو أن يشغل ابنه منصبا فى الكنيسة اليونانية • ثم انتهى به الأمر فعزل الباشا العثمانى وامتنع عن ارسال الجزية الى السلطان وانفرد بحكم مصر وأرســل حملة عسكرية الى الحجاز وأتبعها بحملة أخرى الى بلاد الشـــام لتأمين حركته وزود الحملة بنداء الى أهل الشام أوضح فيه أهداف الحملة بأنها « لتخفيف آلام أهل الشام والقضاء على طغيان الأتراك » وقد تحالف على بك مع زعيم ثائر على السلطان فى فلسطين هو الشيخ ظاهر العمر واستعان بالروس فأمدوه بأسلحة وأرسلوا له ضباطا ، وانهارت المقاومة العثمانية فى بلاد الشام وانتقلت الحملة من نصر الى نصر حتى دخلت دمشق ولم يبق أمامها سوى منطقة حلب • وتمتع على بك بالاستقلال الفعلى وان لم يعلن رسميا هذا الاستقلال• ولكن الدولة العثمانية ، وقد فشلت فى وأد حركة على بك فى مصر وعجزت حربيا عن القضاء على الجيش المملوكى فى الشام ، أفلحت فى اســتمالة محمد بك أبى الذهب قائد هــذا الجيش ولوحت له بمنصب شيخ البلد اذا هو خرج على سيده • وخضع أبو الذهب لهذا الاغراء فأصدر أوامره بالجلاء عن الشام بعد أن روج شائعــة بوفاة على بك حتى يغرى الجيش المملوكى على سرعة العودة الى مصر

واستبان على بك خيانة أبى الذهب له وقامت الحرب بينهما . واستطاع أبو الذهب أن يجمع قوات كبيرة عهد بقيادتها الى مراد بك أحد مماليك على بك . ولكنه انضم الى أبى الذهب بعد أن اشترط ثمنا لهذه الخيانة : أن يفوز بسيدة شركسية فى حريم على بك كانت على حظ موفور من الجمال وشغف بها مراد شغفا عظيما . ومنى على بك بهزيمة فى الصالحية . ومات بعد أسبوع وتناثرت الشائعات حول سبب وفاته ، فقيل انه مات مسموما ويثير الجبرتى ظلالا من الشك اذ يقول « والله أعلم بكيفية موته » (١) وعلى هذا النحو طويت حركة على بك .

استعادت الدولة العثمانية نفوذها من الناحية المظهرية بعد فشل حركة على بك ، فأرسلت واليا هو خليل باشا صعد الى القلعة فى موكب عظيم فى ١٠ يونيو ١٧٧٣ ولكن الأمراء المماليك تجاهلوا الباشا وازدادوا اعتزازا بقوتهم ، وعلى الرغم من أن محمدا بك أبا الذهب الذى عين شيخا للبلد اعترف بولائه للسلطان وأرسل اليه الجزية الا أنه سار على نهج الأمراء السابقين وشل نفوذ الوالى وسرعان ماعزل أبو الذهب فى مدة حكمه القصير خليل باشا الوالى العثمانى ووضع مكانه مصطفى النابلسى باشا ، واضطر السلطان أن يرسل فرمانا يقر فيه هذا التغيير .

وعرض أبو الذهب على الدولة العثمانية أن يحارب الشيخ ظاهر العمر حليف على بك الكبير فى فلسطين فأذنت له ، وخرج الى الشام بقوات زاحفة جرارة واستولى على غزه ويافا وعكا وأرسل البشائر الى مصر وأمر باقامة الزينات ابتهاجا بانتصاراته فأخذت القاهرة زخرفها وأزينت ثلاثة أيام . وأصدر السلطان فرمانا

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار مطبعة بولاق ١٢٩٧ هـ أربعة أجزاء ج ١ ص ٣٨٢ .

بتأمير أبى الذهب على مصر والشام وبلغه أمر هـــذا الفرمان يوم دخوله عكا فامتلأ فرحا ، وحم بدنه فى الحال ، وظل مصابا بالحمى ثلاثة أيام حتى جاز الى ربه فى الشام فى ٨ من يونيو ١٧٧٥ . ولما تحقق المصريون من موته غلبهم احساس غامر بالدهشة وأخذوا يرددون الآية الكريمة « حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتــة فاذا هم مبلسون » (١) وخشى الأمراء المماليك أن ينبش أهل الشام قبره بعد رحيلهم ويعبثوا بجثته انتقاما للمذبحة التى قام بها فى يافا فعادوا مع الجنود يحملون « رمة سيدهم » فبلغوا القاهرة بعد مسيرة ستة عشر يوما وشيعت جنازته فى موكب مهيب وكان « أمام نعشه مجامر العنبر والعود سترا على رائحته ونتنه » (٢)

بوفاة أبى الذهب تنازع الحكم فى مصر حزبان من المماليك أطلق الجبرتى على أحدهمـــا الامراء المحمدية نسبة الى محمد بــك أبى الذهب وكان يتزعم الحزب ابراهيم بك ومراد بك . أما الحزب الآخر فقد أطلق عليه الامراء العلوية نسبة الى على بك الكبير وكان على رأس هذا الحزب اسماعيل بك وحسن بك الجـــداوى . ولكن كان الحزب الأخير أقل عددا وأضعف جندا وأسوأ خلقا ، اذ وقعت الخيانة فى صفوف الحزب وخرج معظم أمرائه على زعيمهم اسماعيل بك فغادر البلاد الى الشام فى طريقه الى تركيا . وخلا الجو لابراهيم بك ومراد بك وخضعت مصر لحكم ثنائى اشترك فيه هذان الأميران وتعرضت البلاد لفترة من الاضطراب الشديد . والحق أن تاريخ مصر منذ وفاة أبى الذهب حتى قدوم الحملة الفرنســية الى مصر ـ وهى فترة تبلغ ثلاثة وعشرين عاما ـ عبارة عن صورة داميــة للنزاع على السلطة والتطاحن بين المماليك والســعى لاغتصــاب

---

(١) الشطر الأخير من الآية رقم ٤٤ من سورة الأنعام .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٤١٤

أموال المصريين والمغالاة فى الظلم وما صحب ذلك من اضطراب الأمن وانتشار الأوبئة والمجاعات ووقوع الغلاء ·

واشتد التناحر بين الأميرين الطاغيتين على منصب شيخ البلد · وكان أحدهما يغاضب الآخر ويخشى الغدر من زميله ، فيلجأ الى الوجه القبلى ويعمل على تعزيز قواته ، فيمعن فى سياسة السلب والنهب والاستيلاء على المحاصيل الزراعية ودواب الحمل ومصادرة الأموال · وتقع الحرب بين الأميرين ويشتد الضنك بالأهالى وينقطع السفر سواء فى البر أو فى النيل . وكان علماء الأزهر ، وهم زعماء الشعب فى ذلك الوقت ، يتدخلون لاصلاح ذات البين بين الأميرين ويقوم بالوساطة بينهما الشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد السادات والشيخ محمد البكرى نقيب الأشراف · وكان هؤلاء الزعماء يستهدفون من سفارتهم ووساطتهم مصلحة الشعب قبل كل شىء بالقضاء على أسباب الفتن والحروب الداخلية التى كان الشعب يكتوى بنارها ، ويحدث الصلح بينهما ويقيمان بالقاهرة · ولكن لا يمر وقت طويل حتى يغاضب الآخر الأول ويعتصم هو وجنوده بالصعيد يملئون الارض ظلما وفسادا ونهبا وتخريبا ·

توالت الأنباء على الآستانة بأن ابراهيم بك ومراد بك قد أسرفا اسرافا بعيدا فى سياسة الطغيان. وخشيت الدولة العثمانية أن يقوم هذان الأميران بحركة انفصالية على غرار حركة على بك الكبير؛ وكانت أحداث هذه الحركة لا تزال عالقة فى أذهان رجالات الباب العالى ، ودلت تصرفاتهما فى الحكم على أنهما يسيران على نهج على بك ، فقد امتنعا عن ارسال الجزية الى السلطان وتوقفا عن ارسال الأموال المخصصة للحرمين الشريفين فى الحجاز ، وعقد مراد معاهدة تجارية مع فرنسا فى ١٠ من يناير ١٧٨٥ تقرر فيها منح تسهيلات جمركية للتجارة الفرنسية فى الموانى المصرية ، ولم يرجع مراد الى

السلطان للحصول على موافقة مسبقة مما اعتبر خروجا على السيادة العثمانية المقررة على مصر ·

وكانت مظالم ابراهيم ومراد قد امتدت الى الأجانب فى مصر، فعملا على ابتزاز الاموال منهم ومصادرة متاجرهم ولم يحترما المعاهدة التى أبرماها مع فرنسا بل هدد مراد بهدم كنائس الأجانب فقام سفراء وممثلوا فرنسا والنمسا وهولندا واسبانيا ونابولى بالاحتجاج لدى الباب العالى فى الآستانة على الاهانات التى لحقت بالكنيسة فى مصر فكانت هـذه الاحتجاجات من أسباب حملة الدولة على مصر تضاف الى هـذه الاسباب الاتصـالات المريبة التى كانت تتم بين ابراهيم ومراد وبين روسيا · فقد ترامت الأنباء الى الدولة العثمانية بأن هذين الأميرين يجدان تشجيعا من روسيا فى سياستها تمهيدا لفصل مصر عن الدولة العثمانية · وكانت روسيا قد ندمت لأنها لم تستغل الفرصة التى أتيحت لها على عهد على بك الكبير وزاد اهتمامها بمصر بعد وفاته وعينت قنصلا لها فى الاسكندرية وعهدت اليه أن يعرض المساعدات العسكرية على ابراهيم بك ومراد بك وان يوضح لهما أن روسيا على استعداد لتأييد مصر فى أية حركة استقلالية · ويلوح أن الاضطراب الداخلى فى مصر الذى أوجده الحكم الفاسد لهذين الأميرين لم يساعدهما على الدخول فى تفاصيل سياسية من هذا القبيل مع روسيا ، ولـكن ابراهيم اسـتقدم عددا وافرا من المماليك الروس ·

هذا عرض سريع لأهم الأسباب التى من أجلها قرر السلطان ارسال حملة عسكرية الى مصر تستهدف كسر شوكة المماليك ودعم نفوذ الدولة فى مصر وكانت الحملة بقيادة حسن باشا الجزائرلى وقد بلغ الاسكندرية فى ٧ من يوليو ١٧٨٦ ·

وقد فشلت الحملة حربيا وسياسيا : عجزت عن القضـاء على ابراهيم ومراد اللذين اعتصما بالصعيد واخفقت فى توطيد الحـكم

العثمانى فى مصر ، وظل الباشا فى القلعة مسلوب السلطة وكان التغيير الذى حدث تغييرا شكليا شمل أشخاص الحاكمين واقتصر على القاهرة والوجه البحرى • وغادر الجزائرلى القاهرة فى ٦ من أكتوبر عام ١٧٨٧ بعد أن أقام فيها مايقرب من أربعة عشر شهرا وتبددت الآمال التى علقهـا الشعب المصرى على الحملة لتخليصه من ظلم المماليك فقد ترك السلطة الفعلية فى يد أمير مملوكى هو اسماعيل بك ، وكان ظلوما جهولا •

ولم تنعم مصر بالاستقرار السياسى أو الانتعاش الاقتصادى فان هذا الأمير بدد الأموال العامة فى تقديم الرشا الى السلطان ورجالاته ليشترى رضاهم عنه ، ومضى فى نفس الوقت يعزز قواته المسلحة فى وجه الأمراء القبليين (١) الذين حبسوا محاصيل الصعيد وضرائبه عن حكومة القاهرة فاشتدت حاجة اسماعيل الى المال يوما بعد يوم ، ولم يجد أمامه سوى الشعب فى القاهرة والدلتا يضغط عليه ضغطا لا هوادة فيه يستنزف منه الأموال بوسائل تتنافى مع الأخلاق والتقاليد الاسلامية •

لم يكد يرحل الجزائرلى عن القاهرة حتى استعد الأمراء القبليون للزحف على القاهرة وأراد اسماعيل أن يسترضيهم فزاد لهم فى المنطقة التى حددها لهم الجزائرلى • وجاءت سياسة الاسترضاء بنتيجة عكسية لأنها أطمعتهم فيه وطلبوا مزيدا من البلاد لحكمها • طلبوا أول الامر أن تكون طهطا هى الحد الشمالى للمنطقة التى يسمح لهم بحكمها ثم طلبوا أن تمتد منطقتهم حتى أسيوط ثم طالبوا بمدها الى منفلوط وفى مرة رابعة طلبوا المنيا حدا فاصلا لمنطقتهم وفى مرة خامسة طالبوا بجميع أقاليم الصعيد وأن يتركوا القاهرة والدلتا

---

(١) أطلق الجبرتى عليهم عدة تسميات تدور كلها حول هـذا المعنى من اعتصام ابراهيم ومراد وأمراء حزبهما بأقاليم الوجه القبلى • وكان من هذه التسميات : القبالى ، الأمراء القبالى ، القبليون ، الامراء القبليون ، الجماعة القبليون •

لاسماعيل بك ثم انتهى بهم الأمر الى المطالبة بدخول القاهرة والاقامة فيها وأن يتنازل كل فريق عن المطالبة بثأر قتلاه ويبـــدأ الجميع صفحة جديدة « وعفا الله عما سلف فان لم يرضوا بذلك فليستعدوا للقاء • وهذا آخر الجواب • والسلام • »

طاعون اسماعيل بك

وفى ذلك الوقت وقـع حادث مروع لم يكن فى الحسبان اذ اشتعل فى مصر وباء الطاعون فى جمادى الأولى سنة ١٢٠٥ (يناير ١٧٩١) وفتك فتكا ذريعا بالشعب على اختلاف طبقاته • وكان الأهالى يتضاربون من أجل الحصـــول على مغسل أو مغسلة لتجهيز جثث الموتى • وكانت الجنازة تخرج من بيت الامير وهى تضم جثث عدد يتراوح بين خمسة وبين عشرة أفراد من ضحايا الوباء• وكانت صلاة الجنازة لا تتوقف فى المساجد طوال النهار وتمتد زلفا من الليل ، ويقول الجبرتى انه لم يبق للناس شـغل فى ذلك الوقت الا الموت وأسبابه « فلا تجد الا مريضا أو ميتا أو معزيا أو مشيعا أو راجعا من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولا فى تجهيز ميت أو باكيا على نفسه موهوما»(١) وندر من كان يصـاب بالطـاعون وينجو منه ، ويكون الانسان جالسا فيشعر برعشة من البرد ، فيتدثر ولا يكاد ينقضى النهار حتى يلفظ أنفاسه • واستمر الوباء فاشيا قرابة الخمســة أشهر (جمادى الاولى ـ رمضان ١٢٠٥) وكان الميراث ينتقل ثلاث مرات فى الأسبوع الواحد لكثرة عدد الوفيات فى الأسرة الواحدة • وكان الامير اسماعيل بك من ضحايا الوباء ولذلك أطلق العامة على هذا الوباء طاعون اسماعيل بك •

بموت اسماعيل بك اشتد التنافر بين أمراء حزبه وتطلع كل منهم الى منصب زعيمهم المتوفى • وكانت المنافسة على أشدها بين

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٩١

حسن بك الجداوى وبين على بك الدفتردار على منصب شيخ البلد • ورأى الأمراء أن مصلحة الحزب تتطلب اقصاء هذين الأميرين المتنافسين عن المنصب ، وأن يعين فيه عثمان بك طبل وأن يعين حسن بك قصبة رضوان أميرا للحج ، وتظاهر الأمراء أمام الشعب أنهم يعتزمون أن ينهجوا فى الحكم نهجا قويما فأطلقوا المنادين فى الشوارع يعلنون عزمهم على الاقلاع عن فرض المظالم أو زيادة الضرائب • وكانت هذه النداءات مجرد شعارات تخفى وراءها نزعة أصيلة فى هذا الرعيل من المماليك بوجه خاص لاستغلال الشعب •

وما أن علم الأمراء القبليون بموت اسماعيل بك حتى ازدادوا تصميما على دخول القاهرة ، وتحركت قواتهم حتى بلغت العياط فى مديرية الجيزة • واتخذ الامراء المماليك فى القاهرة على عادتهم موقف الدفاع بدلا من الهجوم ، فخرجوا الى طرا والجيزة على ضفتى النيل لمنع الأمراء القبليين من دخول القاهرة اذا زحفوا عليها من البر الشرقى أو البر الغربى •

وكان من اضطراب السياسة العثمانية أنها نقلت فى هذا الوقت العصيب اسماعيل باشا الوالى العثمانى • وكانت الحاجة ماسة الى ايجاد نوع من الاستقرار السياسى فى الوقت الذى توارت فيه شخصية اسماعيل بك شيخ البلد ، فاذا بأجهزة الحكم فى القاهرة تهتز اهتزازا عنيفا نتيجة وفاة كبير الأمراء المماليك ، ونقل الباشا العثمانى ، وانتشار وباء الطاعون ، واقتراب الأمراء القبليين من القاهرة ، وتناحر الأمراء المماليك فى القاهرة تناحرا أدى الى ضياع حزبهم فى النهاية •

الفصل الثانى

عمر مكرم يطل على الحياة السياسية

فى هذا الموقف يطل السيد عمر مكرم على الاحداث السياسية ويظهر على مسرح الحوادث رسولا للأمراء القبليين ، اذ يهبط القاهرة فى ٢٦ من يونيو ١٧٩١ (٢٤ من شوال ١٢٠٥) حاملا رسالة منهم الى كل من محمد عزت باشا الوالى العثمانى الجديد وعثمان بك طبل شيخ البلد الجديد والى كبار المشايخ علماء الأزهر • وقبل أن نفض هذه الرسالة التى يحملها السيد عمر مكرم نقف وقفة قصيرة لنلم الماما سريعا بنشأة هذا المبعوث السياسى قبل أن تحف به أضواء الزعامة•

ولد عمر مكرم فى مدينة أسيوط من أسرة شريفة تنسب الى البيت النبوى الكريم • ولم يصل أحد من الباحثين الى تحديد سنة معينة لمولده فى يقين جازم ولكن الرأى الغالب هو أنه ولد حوالى منتصف القرن الثامن عشر أى فى سنة ١٧٥٠ تقريبا • وليست نشأته الاولى مكتملة الصورة أمام الباحثين اذ لم يكتب أحد من معاصريه ترجمة له • لم يفعل ذلك الجبرتى وهو المؤرخ الذى عاصره لأن هذا المؤرخ العملاق قد درج على عادة ـ لا نخالها الا عادة علمية وطبيعية ومنطقية ـ وهى أنه لا يترجم لرجالات مصر الا بعد أن يطويهم الموت ، فيذكر تراجم الوفيات فى نهاية كل سنة هجرية • وقد ظفر التاريخ من الجبرتى بتراجم ضافية لكثير من رجالات مصر فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين ومطلع القرن الثالث عشر الهجرى • ولم يدرك الجبرتى وفاة عمر مكرم فحرم التاريخ من

ترجمة لهـــذا الزعيم من مؤرخ معاصر له اشتهر بالبـحث والدقة والاتزان فى معظم أحكامه • ومع ذلك فان فى كتابات الجبرتى الضافية عن الأحداث التى مرت بمصر ومشاركة عمر مكرم فى هذه الأحداث مايعطينا صورة عنه واضحة المعالم والسمات خلال المراحل التالية لمرحلة شبابه •

كانت مدينة أسـيوط مرتع طفولته ولما أينع صباه واكتمل شبابه أو كاد ارتحل الى القاهرة والتحق بالأزهـر يطلب العـلم ، وتلقى عن أشـيـاخ عصره علوم الفقه والدين واقتنى مكتبة زاخرة بالمؤلفات لا تزال تحتفظ دار الكتب المصرية فى القاهرة بجزء منها، غير أنه لم يشتغل بالتدريس فى الأزهر ولم يتجه الى التأليف أو شرح النصوص والتعليق عليها كما كانت عادة معظم علماء عصره ، بل انصرف الى الحياة العامة يتكسب من تنظره على الأوقاف ولذلك لم يكن فى عداد المشايخ ولم يطلق عليه لقب شيخ بل كان يلقب حينا بالسيد عمر مكرم • ويلاحظ أن لقب السيد كان يطلق وقتذاك تبعا للعرف والتقـاليد على من ينتسب الى فرع من فـروع الدوحة النبوية الشريفة • وكان يلقب حينا آخر السـيد عمر أفندى مكرم الاسيوطى ، وحينا ثالثا السيد عمر أفندى الاسيوطى • وكانت أول مرة ذكره الجبرتى فيها فى حوادث سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٨) حين ترجم للشيخ أبى العباس المغربى من علماء شمال افريقيا جاء مصر وقام بالتدريس فى الازهر ثم تاقت نفسه أن يكون شيخا لرواق المغاربة ولكنه فشـل فى تحقيق أمنيته وكان سليط اللسان يتقى شره ، ونزل له السيد عمر مكرم عن نظارة وقف الجوهرية ، فما كان من هذا العالم المغربى الا أن استحل لنفسه ايراد الوقف ومنع عن المستحقين مرتباتهم(١) •

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٦٧

وفى ضوء المعلومات التى ذكرها الجبرتى نجد أن عمر مكرم استهل حياته السياسية فى سنة ١٧٩١ (١٢٠٥) هـ بالسفارة التى قام بها مندوبا عن الأمراء القبليين الى حكومة القاهرة • وقد ساعدته الظروف فى نجاح مهمته لأن الديوان لم يجتمع فى ٢٦ يونيو ١٧٩١ (٢٤ شوال ١٢٠٥) وهو اليوم الذى حضر فيه عمر مكرم الى القاهرة كما لم يعقد جلسة فى اليوم التالى كما جرت العادة منذ أن تأزم الموقف بين الأمراء القبليين وبين حكومة القاهرة ، فقد كان اليوم التالى هو موعد الاحتفال بسفر المحمل الشريف الى الحجاز ، فأجل اجتماع الديوان الى يوم ٢٨ يونيو ١٧٩١ وفى خلال هذه الفترة كان لدى السيد عمر مكرم من الوقت متسع للقيام باتصالات مع كبار المشايخ أعضاء الديوان ، ونجح فى اقناعهم فى الوقوف الى صف الأمراء القبليين • وقد وضح أثر هذه الاتصالات فى موقف المشايخ أثناء جلسة الديوان التى عقدت برياسة محمد عزت باشا الوالى الجديد وأمر بتلاوة الرسالة التى حملها عمر مكرم وفيها ان الامراء القبليين سبق أن طلبوا الصلح مع اخوانهم الامراء المماليك فى القاهرة والصفح عما بدر منهم • وقد رفض المرحوم اسماعيل بك طلباتهم المكرورة فى هذا الصدد ولم يطمئن لعقد الصلح معهم ، وكان هذا قدرا مقدورا • أما وقد جاز اسماعيل بك الى ربه فانهم يشعرون بحنين جارف الى القاهرة ويؤرقهم شوق عظيم الى عائلاتهم ، وقد مضت أعوام ذات عدد منذ أن أخرجوا من ديارهم ، ثم قرروا فى خطابهم أن عبد الرحمن بك الابراهيمى وهو أحد الرهائن الذين اعتقلهم حسن باشا الجزائرلى وأخذهم الى الآستانة قد عاد الى مصر ومعه مرسوم من السلطان بالعفو عن الأمراء القبليين، وختموا رسالتهم بقولهم ان « الماضى لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم ، وأن أسيادنا المشايخ يضمنون غائلتنا » (١)

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٩٣ .

ولما تليت هذه الرسالة التفت الباشا الى المشايخ ليقف على رأيهم فى طلب الأمراء القبليين • فقال الشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر انه اذا كانت المسألة محصورة بين الأمراء القبليين وبين اخوانهم الامراء فى القاهرة فالمشايخ يشفعون فى الامراء القبليين • أما اذا كانت المسألة تخص السلطان وأمراء الصعيد فالامر متروك للباشا بصفته نائب السلطان فى مصر • واستقر رأى الديوان على كتابة رد على الرسالة التى حملها عمر مكرم • وقد سجل الديوان على الامراء القبليين أنهم كثيرا ما طلبوا الصلح وكانت القاهرة تستجيب لطلباتهم ، ولكنهم كانوا ينقضون العهد فى كل مرة ، ثم استطردت رسالة الديوان فقالت ان شرط التوبة هو رد المظالم ، ولم يفكر القبليون فى شىء من هذا القبيل ، فلم يرسلوا الضرائب النقدية والعينية المقررة على الاقاليم التى فى حوزتهم، واذا كانوا جادين فى الصلح فليعودوا الى منطقتهم التى حددت لهم وليرسلوا الاموال والغلال الى القاهرة ، وعندئذ تبعث القاهرة مذكرة الى الباب العالى تطلب الاذن لهم فى دخول القاهرة ، فان الامراء المماليك الذين بالقاهرة لم يدخلوها عنوة ولكن السلطان هو الذى سمح لهم بدخولها ، وهو الذى أخرج الأمراء القبليين • واختتمت رسالة الديوان بأنه اذا أصدر السلطان موافقته على العفو عنهم فانهم يدخلون القاهرة دون مقاومة •

تسلم عمر مكرم رسالة الديوان وسافر بها فى نفس اليوم الى الصعيد بعد أن نجح فى سفارته نجاحا تعددت آياته • وكان من مظاهر هذا النجح أن كبار المشايخ الذين حضروا جلسة الديوان لم يقفوا موقفا عدائيا من الأمراء القبليين ، بل انهم على العكس قبلوا أن يضمنوا سلوكهم اذا عادوا الى العاصمة ، كما أن حكومة القاهرة أبدت استعدادها لأول مرة منذ حملة حسن باشا الجزائرلى لترفع مذكرة الى الباب العالى تلتمس العفو عن الامراء القبليين والاذن لهم فى دخول القاهرة • وكان هذا فى حد ذاته كسبا كبيرا لقضية

الامراء القبليين • ولم يلبث أن ارسل محمد عزت باشا الوالى مذكرة الى الآستانة صارحها بحقيقة الموقف فى مصر وقال ان الأمراء المماليك المقيمين فى القاهرة أضـــعف وأعجز من الوقوف فى وجه الامراء القبليين ، وان هؤلاء الامراء لا محـــالة داخلون العاصمة • وأبدى الباشا رأيه صراحة حين قرر أن كرامة الدولة العثمـانية وسمعتها تقضيان أن يصدر السلطان مرسوما بالعفو عنهم وأن يدخلوا القاهرة صلحـــا بدلا من أن يدخلوها عنوة • وكان أن استجابت الحكومة العثمانية لما أشار به الوالى ، فأصدر السلطان مرسوما بهذا المعنى بشرط التـــوبة والصلح بينهم وبين اخوانهم الامراء الممـــاليك فى القاهرة • وجاء رسول من الآستانة فى أوائل صفر ١٢٠٦ ـ اكتوبر ١٧٩١ يحمل المرسوم وتلى فى الديوان وأطلقت المدافـع من القلعة ابتهاجا بهذا الحادث •

غـير أن ابراهيم بك ومراد بك وغيرهمـا من الامراء القبليين كانوا قد دخلوا القاهرة فى ذى القعدة ١٢٠٥ ـ يوليو ١٧٩١ أى قبل وصول مرسوم السلطان بحوالى ثلاثة أشهر ، وقد تم دخولهم بعد اتصالات تمت فى الخفاء بينهم وبين عثمان بك طبل زعيم الأمراء العـــلوية اذ كان قد ضاق ذرعا بالدسائس التى كان يحيكها له حسن بك الجداوى وكان الاخير يطمع فى أن يكون شيخا للبلد بعد وفاة اسماعيل بك • ومما يدل على أن دخول القبليين كان باتفـاق سابق أن مراد بك دخل القـاهرة وفى صحبته عثمان بك طبل • ونزل مراد بك فى قصر اسماعيل بك وكأن الاخير قد شيده وأنفق على زخرفته وتأثيثه بسخاء من أجل خصمه •

ويعلق الجبرتى تعليقا طريفا ولاذعا على ظاهرة اجتماعية طرأت بدخول الأمراء القبليين القاهرة ، فقد كان وباء الطاعون قد انحسرت موجته وخفت حدته بعد أن أطاح بعدد كبير من الأمراء العلوية فدخل الأمراء القبليون بيوت هؤلاء الأمراء « ووجدوها عامرة بالحـريم

والجـــوارى والخدم ، فتزوجوهن ، وجددوا فراشـــهم ، وعملوا أعراسهم ومن لم يكن له بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما فيه من غير مانع ، وجلس فى مجالس الرجال ، وانتظر تمام العدة ان كان بقى منهـا شىء ، وأورثهم الله أرضهم وديارهـم وأموالهم وأزواجهم (١) » وأذعن الباب العالى للأمر الواقع وتناسى خصومته السابقة لابراهيم بك ومراد بك فأوفد رسولا بلغ القاهرة فى أواخر ربيع أول ١٢٠٧ — نوفمبر ١٧٩٢ يحمل الى كل منهما والى الباشا خلعة واجتمع الديوان وتليت المراسيم واطلقت المدافـع من القلعة ابتهاجا بالرضاء السامى ٠

كانت السفارة التى قام بها السيد عمر مكرم ونجاحه فيها من العوامل الرئيسية التى مهدت الطريق أمام ابراهيم ومراد لتحقيق حلم ظل يداعبهما سنين عددا لدخول القاهرة والعودة الىحكم البلاد٠ ويهمنا هنا أن هذه السفارة كانت ذات أثر بالـغ فى حياة السيد عمر مكرم ، اذ لما استقر الأمر لهـذين الأميرين أرادا مكافأته على مسعاه ٠ ولم تمض سنوات ذات عدد حتى واتتهما الفرصة حين توفى بدون عقب فى ١٨ من ربيع آخر ١٢٠٨ — ٢٣ من نوفمبر ١٧٩٣ محمد البكرى نقيب الأشراف وشيخ سجادة البكرية ، وتدخل ابراهيم ومراد وعينا السيد عمر مكرم نقيبا للأشراف كمـــا عينا فى نفس الوقت الشيخ خليل البكرى شيخا للسجادة الوفائية وهو ابن خال النقيب الراحل ٠

ومما لا ريب فيه أن اسم عمر مكرم قد ازداد ذيوعا فى البلاد بعد تعيينه نقيبا للأشراف ، لأن هذا المنصب كان من المناصب الكبرى وبخاصةفى مجتمع دينى كان الطابع المميز للحياة فى مصر٠ واجتمع لعمر مكرم من مهابة المنصب وقوة شخصيته وطموحه ما جعله يتبوأ

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٩٥

بعد حين مكانا عليا بين رجالات مصر ، يلتصق بالشعب ، وتلتحم حياته بالاحداث السياسية التى تعاقبت على البلاد فى مطلع القرن التاسع عشر • وأصبح بحكم منصبه يشترك فى ديوان الباشا ويكون فى مقدمة المدعوين الى الحفلات الرسمية كاستقبال الباشا الجديد أو الاحتفالات العامة مثل وفاء النيل كما ينظم الاحتفالات الدينية الكبرى كالمولد النبوى الشريف ومولد الامام الحسين وليلة الصيام وغير ذلك من احتفالات دينية • وكان يشرف على أملاك نقابة الاشراف وادارة أوقافها وصرف المرتبات والخيرات لمستحقيها وينظر فى قضايا الأشراف وتظلماتهم وغير ذلك من المسائل التى تقع فى اختصاصات النقيب •

اشتراك عمر مكرم فى غضبة الشعب سنة ١٧٩٥

ويلاحظ أنه فى الفترة التى انقضت منذ تعيينه نقيبا للاشراف سنة ١٧٩٣ حتى قدوم الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ كانت صفته الدينية كنقيب للأشراف أكثر وضوحا من صفته السياسية ، فهو لم يبرز كزعيم سياسى فى هذه السنوات الخمس لان الحياة السياسية فى مصر سارت على وتيرتها السابقة ، وكانت هذه الفترة هى فترة ركود سياسى ، فلم تشهد البلاد انقلابات سياسية أو تغييرا فى أشخاص الحكام ولم تتعرض لأحداث خارجية يتهيأ فيها المجال أمام عمر مكرم ليبرز كزعيم سياسى • ولذلك لم يظهر السيد عمر مكرم فى الحياة السياسية المصرية الا مرة واحدة خلال هذه الفترة حين قامت حركة شعبية فى منتصف سنة ١٧٩٥ ضد جور الأميرين المملوكين ابراهيم بك ومراد بك وأقرانهما من الأمراء المماليك •

كان محمد بك الألفى قد أسرف فى فرض ضرائب جزافية على سكان احدى القرى القريبة من بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فى

ذلك الوقت . وكان للشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر حصة فى أرض تلك القريه فاستغاث به أهلهـــا . واتصل الشيخ الشرقاوى بابراهيم بك ومراد بك لوقف هذه المظالم ولكن أعرض كل من هذين الأميرين ونأى بجانبه . وثارت ثائرة الشيخ الشرقاوى وعزم على القيام بحركة شعبية كبيرة يهتز لها ــ فى ظنه ــ مركز هذين الطاغيتين ، فذهب الى الجامع الأزهر وكان ذلك فى شهر ذى الحجة ١٢٠٩ (١٩ يونيو ــ ١٧ يوليو ١٧٩٥) وجمع اليه المشايخ وأمر باغلاق أبواب الجامع ايذانا بأن أمـراً ادا قد ارتكبه الحكام الطغاة . وانطلق المنادون يأمرون بغلق الحوانيت وهجر الاسواق . وفى اليوم التالى كانت جموع الشعب تتجه من كل حدب وصوب الى الجامع الازهر . واكتظ المسجد والحى بالحشود الشعبية وركب الشرقاوى والمشايخ العلماء كل منهم بغلته وتقدموا المواكب الشعبية الصاخبة وذهبوا الى دار الشيخ محمد السادات . ووقع اختيارهم على هذه الدار لأنها كانت على مقربة من دار ابراهيم بك حتى يرى هذا الامير غضبة الشعب على حكومته وقد نجح هذا التدبير اذ لمـا شاهد الامير هذه الحشود المتراصة من الجماهير ولها عجيج وضجيج بعث مندوبا من قبله هو أيوب بك الدفتردار « فحضر اليهم وسلم عليهم ، ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم . فقـــالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها . فقال لا يمكن الاجابة الى هذا كله ، فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات . فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند النـــاس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ؟ والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ(١) » وقد وعدهم أيوب بك الدفتردار بالعودة اليهم بعد عرض مطالبهم على ابراهيم بك . وهكذا تطورت المسألة من مجرد حركة فردية تستهدف

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٢٥٨ .

المطالبة بوقف اعتداءات محمد بك الالفى على قرية فى مديرية الشرقية الى حركة شعبية تنادى بضرورة وضع حد للمظالم التى يتعرض لها الشعب ومطالبة الحكومة بضغط المصروفات والحد من الاسراف فى استيراد المماليك وتأمين الافراد على أموالهم وأرواحهم ٠

ولما لم يعد مندوب ابراهيم بك الى الزعماء فى دار السادات قرروا المضى فى حركتهم ورجعوا ومعهم جموع الشعب الثائر الى الجامع الازهر وقضوا ليلتهم فيه ، وما أقبل ضحى اليوم التالى حتى تقاطرت جموع أخرى من الشعب من بولاق ومصر القديمة والجيزة والبلاد المحيطة بالقاهرة وانضمت هذه الجموع الى حشود اليوم السابق وأصبح الموقف ينذر بشر مستطير ٠ واستشعر ابراهيم بك خطر هذه الحركة الشعبية الهادرة ٠ وأرسل الى المشايخ يسترضى الشعب ويعلن أنه يؤيده ويستنكر تصرفات المماليك ٠ وأخذ يثير مخاوف زميله مراد بك من تفاقم الموقف ، ونزل الاخير عن غلوائه ، أو لعله تظاهر بذلك ، فأرسل الى المشايخ يقول انه أقلع عن ظلم الشعب وطلب أربعة من المشايخ « عينهم بأسمائهم » فذهبوا اليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعى فى الصلح ٠

وفى اليوم الثالث على بدء هذه الحركة عقد اجتماع فى دار ابراهيم بك حضره الباشا وقاضى القضاة والأمراء البكوات ماعدا مراد بك ، واستقر رأى المجتمعين على ضرورة العمل على انهاء هذه الحركة الشعبية ومفاوضة الزعماء لعقد الصلح ٠ وأرسلوا مندوبا عنهم الى الجامع الازهر حيث اجتمع بالزعماء ، وطلب أن يصحبه وفد منهم الى دار ابراهيم بك ٠ وتألف وفد من خمسة أعضاء هم ، وفق الترتيب الذى ذكره الجبرتى : الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر ، والشيخ خليل البكرى شيخ السجادة البكرية والشيخ محمد الامير والأخير من صفوة كبار العلماء اشتهر بجرأته وشجاعته واغلاظه

القول للأمراء المماليك • أرادت جموع الشعب الصاخبة أن تسير وراءهم الى مكان الاجتماع فمنعهم المشايخ وطلبوا منهم الانتظار فى الأزهر ، وطالت الجلسة وقرر الامراء المماليك فى نهايتها «انهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم » وانعقد الصلح على أن يرسلوا ايراد الاوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى الحجاز من أموال وغلال ، وأن يفرجوا عن الحبوب وسائر المحاصيل الزراعية المودعة فى مخازن الامراء ليشتريها الشعب ، وأن يرفعوا أيديهم عن ايراد الاوقاف الخيرية ، وأن يقلعوا عن المظالم المحدثة ، «وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس • » وكتب القاضى حجة شرعية سجل فيها هذه العهود والمواثيق ووقع عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بك وأرسلت الى مراد بك فختم عليها هو الآخر •

وفى أثناء هذا الاجتماع كان الشعب قد استبطأ عودة زعمائه اليه من دار ابراهيم بك وخشى أن يكون قد حاق بهم مكروه ، فزحفت جموع الشعب الى دار الامير وأحاطت بها • ويصور الجبرتى ابتهاج الشعب بانتصاره فى غضبته على الامراء المماليك فيقول « وانجلت الفتنة ورجع المشايخ ، وحول كل واحد منهم ، وأمامه وخلفه ، جملة عظيمة من العامة ، وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية • وفرح الناس وظنوا صحته ، وفتحت الاسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهر • ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة ، ونزل عقب ذلك مراد بك الى دمياط وضرب عليها الضرائب العظيمة وغير ذلك(١) » •

وقد أسرف بعض الباحثين فى تقييم هذه الحركة الشعبية وفى اضفاء مختلف الصفات على «الحجة» أو القرارات التى انبثقت عنها• والواقع أن هذه الحركة ومثيلاتها التى حفل بها تاريخ الشعب

---

(١) المصدر السابق •

المصرى في القرن الثامن عشر لم تستهدف الاســـتقلال عن الدولة العثمانية أو التخلص من حكم الامراء المماليك · فهـذه الحركات لم تعد العمل على دفع ظلم الحكام · وبعبارة أخرى انصرف الشعب الى مقاومة الظلم الداخلى حتى اذا هبطت أرض مصر الحملة الفرنسية هبوا سراعا يحمون الذمار فى بطولة وفدائية · أما « الحجة » أو المذكرة التى تضـــمنت القرارات التى أسفرت عنها هـذه الحركة الشـــعبية فأطلق عليها ذلك الفريق من البـاحثين اسم « الوثيقة السياسية الكبرى (١)» والحق أنها لم تكن وثيقة ولم تكن كبرى وانما أراد بها الامراء المماليك انهاء حركة شـــعبية عابرة ، فهى قصاصة ورق ، لان الامراء المماليك كانوا قوما مردوا على النفاق ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وانطوت نفوسهم على قسوة مدمرة ، وشر أصيل ، وكان الظلم صفة عريقة فى دمائهم ، فظلوا سادرين فى غيهم · والجبرتى يستهل حوادث كل سنة من السنوات الثلاث التى مضت بعد صدور هذه «الحجة» حتى نزول الحملة الفرنسية ، بعبارة لا تكاد تختلف فى مبناها ومعناها وهي أنه لميقع من الحوادث ما يستحق التسجيل سوى جور الامراء وتتابع مظالمهم ·

ويعنينا فى هذا البحث أنه على الرغم من أن عمر مكرم كان مدينـــا بمنصـــبه كنقيب للاشراف لابراهيم بك ومراد بك الا أنه لم يتردد فى الوقوف الى جانب الشعب فى حركة ١٧٩٥ ضد حكومة هذين الأميرين · وكانت صفحة فخار وشرف لعمر مكرم تدل على أنه كان لا يجامل حاكما ذا جاه أو كبيرا ذا ثراء وأنه يؤثر الصالح العام على علاقاته الشخصية · وقد وقف عمر مكرم هذا الموقف المشرف وهو فى باكورة حياته السياسية وكان فى هـذه المرحلة رجلا من رجالات الصف الثانى فى مصر ، وظل على هذا الوضع الى أن هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر ·

---

(١) محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٦٠ ·

الباب الثانى

عمر مكرم إبان الحكم الفرنسى

الفصل الثالث

عمر مكرم من اجتماع قصر العينى إلى هجرته الأولى من مصر

هبطت أرض مصر فى صيف ١٧٩٨ حملة فرنسية تضم قوات زاحفة جرارة بقيادة الجنرال بونابرت • وتعتبر هذه المحاولة أول غزو عسكرى أوربى مسيحى فى التاريخ الحديث لبلد عربى اسلامى من بلاد الدولة العثمانية • ولكن هـــذا الغزو سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا على دول وامارات اسلامية فى أواسط آسيا وجزر الهند الشرقية والهند • غير ان هذه السيطرة المبــكرة لم تمس قلب العروبة كمــا فعلت حملة الجنرال بونابرت على مصر •

وليس من شأن هذا البحث أن يخوض فى الاسباب التى حملت فرنسا على انفاذ هذه الحملة ، وهى أســـباب تقوم فى جملتها على أساس الرغبة فى توسع استعمارى جديد يعوض على فرنسا مافقدته من مستعمرات فى أمريكا الشمالية والهند من ناحية ، وللاضرار بالمصالح البريطانية من ناحية ثانية ، اذ أرادت أن تجعل من مصر قاعدة لتهديد بريطانيا فى الهند وتحويل التجارة الشرقية الى طريق مصر •

ظهرت الحملة تجاه الاسكندرية فى أول يوليــو ١٧٩٨ ونزل الفرنسيون ليلا جهة العجمى فى غرب الاسكندرية • وبلغوا أسوار

المدينة فى صباح ٢ يوليو • وكانت السلطة فى يد السيد محمد كريم ، الذى سارع بايفاد رسول الى مراد بك فى القاهرة يبلغه قدوم الفرنسيين ويطلب اليه ارسال نجدات عسكرية • ومع ذلك لم ينتظر السيد محمد كريم وصول النجدات من القاهرة بل شرع يدافع عن المدينة واستمات فى الدفاع عنها والتف حوله الاسكندريون بما عرف عنهم من شجاعة واقدام ، وحصنوا أسوارها ونقلوا الذخيرة الى القلاع ووضعوا المدافع العتيقة على الاسوار واشترك الرجال والنساء فى القتال وانضم الى سكان المدينة المغاربة والعرب المجاورون للثغر • وهاجم الفرنسيون المدينة من ثلاث جهات حتى اقتحموها ثم هاجموا الأهلين فى مساكنهم وأخذ المصريون يطلقون الرصاص على الجنود المهاجمين • وكاد بونابرت يلقى مصرعه برصاصة أطلقت عليه من نافذة أحد المنازل لولا أن تدخل القدر ونجا من الموت • وعندئذ هاجمت جموع الفرنسيين هذا المنزل ولم يكن به سوى رجل وسيدة قتلهما الفرنسيون • واستمر السيد محمد كريم يدافع عن المدينة بعد أن دخلها الفرنسيون ، واعتصم بقلعة قايتباى ومعه جموع غفيرة من المصريين • ولكنه أدرك عبث المقاومة لان المدينة كانت أضعف من ان تقف فى وجه جيش فرنسى مسلح أحدث تسليح فكف عن القتال • وقد تكبد الفرنسيون خسائر فى استيلائهم على المدينة نتيجة المقاومة العنيفة التى قوبلوا بها من المصريين • وأصيب الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته وجرح جرحا بليغا ، وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة وقتل الجنرال ماس Mas وخمسة ضباط آخرين • وقدر بونابرت فى مذكراته خسائر الفرنسيين بثلاثمائة بين قتيل وجريح • وأمر بتشييع جنازة القتلى الفرنسيين فى احتفال عسكرى مهيب ودفنوا حول عمود السوارى ونقشت أسماؤهم على قاعدة العمود • ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانت الأعلام الفرنسية قد نصبت فى الاسكندرية •

تلقى الأمراء المماليك فى القـــاهرة باستخفاف شديد أنباء وصول الحملة الفرنسية الى الاسكندرية ، اذ كانوا على قدر كبير من الصلف والغرور والغفلة • احتقروا شأن الفرنسيين ظنا منهم أنهم على شاكلة الفرنسيين الذين ظهروا على شواطىء دمياط منذ خمسة قـــرون خلت ابان الحـــروب الصليبية واعتقدوا أن فى استطاعتهم سحق القوات الفرنسية « اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنهم اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم » (١) واستقر رأى ابراهيم بك ومراد بك على عقد اجتماع عام كبير فى قصر العينى (٢) لبحث الموقف وطلبا الى بكر باشا الوالى العثمانى حضور الاجتماع ، فنزل من القلعة كما شهده سائر الأمراء والمماليك والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وكبار المشايخ علماء الأزهر والقاضى والأعيان والكشاف وأرباب العكاكيز ومن اليهم من الشخصيات الكبيرة ، ثم أذن لعدد كبير من صغار المشايخ فى حضور هذا الاجتماع •

تدارس المجتمعون الموقف على ضوء المعلومات التى تلقوها عن استيلاء الفرنسيين على الاسكندرية • واحتدت المناقشة بين مراد بك وبين الوالى العثمانى • اذ قال مراد بك انه يعلم جيدا أن رجال الباب العالى لا ينظرون اليه بعين الارتياح • واتهم مراد بك الدولة

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣

(٢) يقع فى المكان الحالى لمستشفى قصر العينى • وكان يقيم فيه أحيـــانا الباشا العثمانى عند صدور الامر بنقله أو عزله حتى يتم معدات سفره • وكان يجتمع فى هذا القصر الامراء المماليك وكبار المشايخ علماء الازهر وضباط بعض الفرق العثمانية • وقد شيد هذا القصر فى زمن سابق وقد ورد ذكره كثيرا فى الجبرتى قبل أحداث الحملة الفرنسية بزمن طويل • أنظر على سبيل المثال ج ١ ص ٤٥ ، ١٧٩ ، ج ٢ ص ١٥ ، ٢٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١٠١ ، ١٢٩ ، ١٦٣ ، ٢٥١، ٢٦٢ •

العثمانية بأنها قد أذنت لفرنسا فى ارسال هذه الحملة • واستند فى هذا الاتهام الى منشور بونابرت الذى قرر فيه أنه صديق للسلطان العثمانى وأنه جاء الى مصر للقضاء على المماليك • وتهكم مراد بك على الوالى العثمانى وطلب منه أن يزود الحاضرين بمعلومات وافية عن الحملة الفرنسية وأهدافها وأسلحتها وعدد جنودها • وقد أنكر الوالى العثمانى قيام أى تفاهم سابق بين السلطان وبين فرنسا حول هذه الحملة • وقد علق مراد بك على ذلك بأن دعا الله أن يساعده حتى يقضى على الاثنين معا : السلطان والفرنسيين وقال : وأرجو أن تسعفنا العناية على الاثنين » • ورد الوالى بقوله « دعونا من هذا الكلام وشدوا همتكم وانهضوا نهضة الابطال واستعدوا للحرب والقتال » (١) •

وأصدر المجتمعون عدة قرارات نذكر منها أربعة : خروج مراد بك بقواته لملاقاة الفرنسيين فى دمنهور ، مرابطة ابراهيم بك بقواته فى امبابة وأن يظل الباشا العثمانى مع ابراهيم بك ، اعتقال جميع الرعايا الفرنسيين ، ابلاغ الدولة العثمانية أنباء الغزو الفرنسى • ويتهكم الجبرتى على القرار الأخير لعلمه بعدم جدواه ، فيقول ان بكر باشا أرسل رسولا عن طريق البر الى الآستانة « ليأتيه بالترياق من العراق » (٢) •

عمر مكرم ينظم المقاومة الشعبية :

لم تمر أيام ذات عدد حتى تلقت القاهرة الأنباء بهزيمة مراد

---

(١) مذكرات نقولا ترك • نشر وترجمة وتعليق جاستون فييت • القاهرة ١٩٥٠ ص ١٢ •

(٢) عند ذكر أمر مستحيل أو يتعذر تحقيقه كانت تقال هذه العبارة : « على ما يأتوا بالترياق من العراق يكون العليل قد مات » •

بك من الفرنسيين فى معركة شبراريس (١) (١٣ من يوليو ١٧٩٨) وانسحابه الى القاهرة • كانت هذه المعركة بمثابة ناقوس الخطر وأدرك الشعب أن الموقف جد خطير • وفى هذا الوقت العصيب برز السيد عمر مكرم بروزا واضحا قويا وطغت شخصيته فى الأوساط الشعبية على سائر الشخصيات التى كانت فى مصر وقتذاك • استنفر الشعب للقتال وبث فيه روح المقاومة ، وصعد الى القلعة وأنزل منها علما كبيرا أطلقت عليه الجماهير «البيرق النبوى» ونشره بين يديه ومشى به من القلعة الى بولاق • وكانت المساكن فى ذلك الوقت تنتهى عند بركة الازبكية (حديقة الازبكية) ويفصلها عن بولاق سهل مترب وعر خال من العمران •

لقيت دعوة عمر مكرم استجابة جماعية من أهل القاهرة ، تجمعت حوله ألوف العامة يتصايحون بالحرب ويحملون العصى والنبابيت والبنادق ومعهم الطبول • واغلق التجار الحوانيت وخلت الأسواق من روادها واشتركت طوائف الحرف فى التطوع وكانت كل طائفة تجمع الأموال من أفرادها كل على قدر طاقته واشترى رؤساء الطوائف الأسلحة والذخائر والخيام • وارتفعت أسعار البارود والأسلحة • وتطوع الأثرياء بالانفاق على البعض الآخر ممن قلت مواردهم بسبب توقف التجارة واغلاق المحلات • ومنهم من جهز جماعات من المغاربة والشوام بالسلاح والطعام وغير ذلك • وتوافد على القاهرة جموع كثيفة العدد من عرب البحيرة والجيزة والصعيد وقبائل أولاد على والهنادى ليشتركوا فى الكفاح • ولم يبق فى القاهرة سوى النساء والأطفال والكهول •

---

(١) شبراريس احدى قرى مركز شبراخيت على الشاطىء الغربى لفرع رشيد جنوبى شبراخيت • وتذكر المراجع الفرنسية المعاصرة للحملة اسم هذه المعركة شبراريس • ويلاحظ أنه توجد فى المنوفية قرية أخرى تحمل نفس الاسم شبراريس وتتبع مركز تلا وتقع على الشاطىء الغربى لترعة الباجورية •

ويقول الجبرتى « ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا مافى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ••• ومحصل الامر أن جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاق وأقام بها من حين نصب ابراهيم بك العرضى (١) هناك الى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكانا ولا مأوى فيرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها ثم يصبحون الى بولاق » وهكذا كان دور عمر مكرم ايجابيا بارزا فى هذه الظروف العصيبة الحرجة •

الفرق بين عمر مكرم وموقف المماليك :

والأمر العجاب فى الموقف وقتذاك أن هذا الحماس الدافق الذى بدأ من السيد عمر مكرم وغمر جماهير الشعب كان يقابله استهتار بلغ حد الغفلة من جانب الامراء المماليك الذين تجمعت فى أيديهم مقاليد الحكم والحرب والادارة والاقتصاد فى مصر • لم يقدر تماما هؤلاء الأمراء الخطر الداهم الذى استهدفت له البلاد وأطاح فى النهاية بنفوذهم ونظامهم وكيانهم السياسى والحربى • وبدت منهم فى هذا الوقت العصيب ظاهرتان خطيرتان ، أولاهما : أنهم انصرفوا الى المحافظة على مدخراتهم ونفائسهم • وثانيتهما : أنهم لم يتناسوا ـ ولو الى حين ـ تنافسهم القديم على السلطة • أما الظاهرة الأولى فيصفها الجبرتى وصفا يفيض بالألم والحسرة وهو يستعرض حالة القاهرة قبيل زحف الفرنسيين عليها فيقول ان الأمراء المماليك « شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة الى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد ، واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم ،

(١) العرضى كلمة مأخوذة من اللفظة التركية أوردو ومعناها معسكر • وقد وردت فى كتابات بعض الباحثين أوردى ، أوردو ، آرضى •

وأرسلوا البعض منها لبلاد الارياف ، وأخذوا أيضا فى تشـــهيل الاحمال واستحضار دواب الشيل وأدوات الارتحال » • وهكذا كان الفرق واضحا صارخا فى الوقت العصيب : **زعيم مصرى هو عمر مكرم يدعو الشعب الى الكفاح والنضـــال وشعب يستجيب للكفاح أروع ماتكون الاستجابة** ، وحكام يحرصـــون على حطام الدنيا بدلا من تكريس كل جهـودهم ووقتهم لصـد الغزاة • أما الظاهرة الثـــانية فقد ظل ابراهيم بك ومراد بك واتباعهما على انقسامهم القديم • وكان كل فريق يرتاب فى نيـــات الآخر ولم يحدث تعاون بين الفريقين وبقى جيش كل منهما بعيدا عن الآخر ، ابراهيم بك فى بولاق ومراد بك فى امبـــابة يفصـــل بينهما نهر النيل •

معركة امبابة ٢١ من يوليو ١٧٩٨ :

وقف مراد بك فى امبابة استعدادا لملاقاة الفرنسيين واحتشد فى ميـــدان المعـــركة آلاف مؤلفة من المتطوعين من أهـــل القاهرة والفلاحين من سكان الأقاليم ، وضمت هذه الجموع الزاخرة المسلمين والأقباط على السواء ، وبدت بصورة رائعة وحدة عنصرى الأمة أشد ماتكون تماسكا فى أوقات الشدائد • وبقى ابراهيم بك معسكرا على الضفة الشرقية للنيل عند بولاق ومعه بكر باشا الوالى العثمانى • وهذه ظاهرة جديدة بالتسجيل تدل على ضعف الباشا ، اذ ترك أمر الدفاع عن مصر الى المماليك ، مع أنه كان يجب عليه أن يكون هو الرجل الأول فى مصر قولا وعملا • ويعتقد الخبراء العسكريون أن مراد بك ارتكب خطأ حربيا جسيما بمقابلة الفرنسيين على الشاطىء الغربى للنيل عند امبابة ، اذ كان الواجب عليه أن يجمع قواته الى قوات ابراهيم بك وتقف هاتان القوتان كتلة واحدة متراصة متعاونة على الشاطىء الشرقى وتترك للفرنسيين مهمة عبور النيل لدخول

القاهرة وهى مهمة لا تخلو من خطر على الجيش الفرنسى المهاجم ٠ ولكن النفرة والتنافس والتحاسد كل أولئك جعل مراد بك يقف بقواته فى أرض مكشوفة فحصدتهم المدفعية الفرنسية حصدا ٠

ولما شاهد بونابرت من بعد قوات خصمه أطلق عبارته المشهورة وقد أراد أن يثير بها حماس الجنود الفرنسيين : « تقدموا أيها الجنود ، واعلموا أن أربعين قرنا من الزمان تنظر اليكم من فوق قمم هذه الأهرام ٠ » وفى بدء المعركة حمل مراد بك ومعه خيرة فرسانه حملة عنيفة على الفرنسيين واخترق صفوفهم بسرعة وبطولة وخفة أذهلت الفرنسيين وأوقعت الارتباك فى صفوفهم ٠ ولكن أنقذت المدفعية الفرنسية المتحركة موقف الجيش الفرنسى اذ حصدت قذائفها المماليك والمصريين المتطوعين ومات كثير منهم قتلا أو غرقا فى النيل ٠ وكانت خسائر المصريين فى الأرواح أفدح ، اذ قتل منهم خمسة آلاف بينما بلغت خسائر المماليك ألفى قتيل ٠ ويقرر بونابرت فى مذكراته أن خسائر الفرنسيين بلغت ثلاثمائة قتيل ٠ واختار الفرنسيون لمعركة امبابة اسما آخر خالدا له رنين تمجيدا لانتصارهم فأطلقوا عليها معركة الاهرام ٠

رحيل عمر مكرم من القاهرة :

أما ابراهيم بك فلم يكن رجلا عسكريا بل كان يغلب عليه الطابع السياسى والادارى ٠ ولما رأى أن الهزيمة قد حلت بزميله مراد بك جمع أمواله ونفائسه ومدخراته ورحل غداة المعركة من القاهرة ومعه قواته التى ظلت سليمة لأنها لم تشترك فى المعركة وصحبه بكر باشا الوالى العثمانى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد السادات وغيرهم من كبار المشايخ ٠ وقصدوا الى المطرية قبل أن يواصلوا سفرهم الى بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك

الوقت • وحذا حذوهم عدد كبير من سكان القاهرة اتجه بعضهم الى الصعيد والبعض الآخر وهم الكثرة الى مديرية الشرقية •

بونابرت يكتب الى عمر مكرم والمشايخ بالعودة الى القاهرة :

أصبحت القاهرة بدون حكومة ولاجيش أمام القوات الفرنسية ولم يبق فيها الا صغار مشايخ الأزهر وبعض التجار وأطلقوا سراح التجار الفرنسيين ومن اليهم من رعايا فرنسا الذين اعتقلتهم سلطات القاهرة عقب نزول الحملة فى الاسكندرية • وفى صباح اليوم التالى لمعركة امبابة عاد الى القاهرة كثير من سكانها وهم فى أسوأ حال من الفزع والعرى • وكانوا قد غادروها بعد المعركة مباشرة • وتبين لهم أن الفرنسيين لم يدخلوا القاهرة بعد ، وأنهم لم يشعلوا النيران فيها كما انطلقت الشائعات بهذا النبأ ، وتأكدوا أن ألسنة اللهيب التى رأوها عند فرارهم تنبعث قوية رهيبة كانت من فعل مراد بك الذى أعمل النار فى سفينته الحربية الكبرى حتى لا تقع فى أيدى الفرنسيين غنيمة باردة •

وعقد اجتماع عام فى الازهر فى صباح اليوم التالى للمعركة واستقر رأى المجتمعين على ارسال وفد لمفاوضة الفرنسيين ، وكان بونابرت مقيما فى قصر مراد بك فى الجيزة فأرسلوا اليه وفدا يتكون من رسولين أحدهما مغربى يتكلم الفرنسية • وأحسن بونابرت مقابلة الوفد الذى قدم له رسالة المجتمعين بالأزهر وفيها يطلبون تأمين حياة السكان وأموالهم • وقد طلب بونابرت أن يحضر اليه كبار المشايخ كى يتخذ بالاتفاق معهم التدابير الخاصة بانشاء ديوان يتكون من سبعة أشخاص عقلاء يصرفون الأمور• ولكن الوفد طالب باصدار الأمان فكتب لهم بونابرت منشورا وجهه الى سكان القاهرة وهو مؤرخ فى ٢٢ يوليو ١٧٩٨ •

ولما عاد الوفد الى القاهرة اطمأن الأهالى وذهب الى بونابرت

بعض العلماء وكان على رأسهم الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ، فقابلهم بالبشاشة والترحاب « وسألهم هل هم كبار المشايخ ؟ فأجابوا بأن المشايخ الكبار قد خافوا وهربوا . وقال بونابرت مستهجنا هذا التصرف : « ولماذا يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة » فاستكتبوه عدة خطابات الى كبار المشايخ بالحضور والأمان (١) » .

وقد وجه بونابرت الدعوة الى كل من السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ السادات وغيرهم من كبار المشايخ بالعودة الى القاهرة . ورفض عمر مكرم هذه الدعوة واستمر فى طريقه مع ابراهيم بك مرتحلا الى بلبيس ، بينما قبل الدعوة الشيخ الشرقاوى والشيخ السادات وعادا فعلا الى القاهرة ومعهما كثير من المشايخ وعامة الشعب ممن هاجروا عقب المعركة .

وشرعت القوات الفرنسية تعبر النيل على كوبرى انشىء بين الجيزة والقاهرة كان عبارة عن سفن ربطت بعضها الى بعض. ودخل الجنرال ديبوى **Dupuy** القاهرة ليلا على رأس كتيبة وسار أمامه حملة المشاعل والمنادون يطلقون نداءاتهم بالأمان للأهالى ونزل فى بيت ابراهيم بك الصغير(٢) . وفى اليوم التالى ـ ٢٣ يوليو ـ دخلت فرق الجيش القاهرة واحتلت القلعة وغيرها من الأماكن ذات الأهمية الحربية . وظل بونابرت مقيما فى الجيزة يستقبل فى قصر مراد بك الشخصيات التى تعبر اليه النيل ثم انتقل فى ٢٤ يوليو الى القاهرة حيث نزل فى قصر محمد الألفى بك المطل على بركة الأزبكية وكان قد تم تشييد هذا القصر من عهد قريب واشترى له الألفى بك أفخر

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠

(٢) ابراهيم بك الصغير هو صهر ابراهيم بك الكبير وكان من ضحايا معركة امبابة اذ ألقى بنفسه فى النيل هربا من قذائف المدفعية الفرنسية فمات غرقا .

الأثاث وأنفق الأموال بسخاء فى زخرفته حتى جاء آية فى الفن والجمال والابداع • وشاءت الأقدار أن ينعم بونابرت بالاقامة فى هذا القصر وكأن الألفى قد بناه لهذا الفرنسى ثم لمن جاء بعده من الحكام الفرنسيين والولاة العثمانيين •

عمر مكرم يرفض عضوية ديوان القاهرة :

لم يكد يمضى يوم واحد على دخول بونابرت عاصمة البلاد حتى أصدر قرارا بتشكيل ديوان وطنى لمدينة القاهرة يتكون من تسعة أعضاء كانوا جميعا من المصريين المسلمين وادخل فى عضوية هذا الديوان السيد عمر مكرم بصفته نقيبا للأشراف • ونذكر هنا ترجمة قرار انشاء الديوان وتشكيله •

معسكر القاهرة فى ٧ ترميدورمنالسنة السادسة للجمهورية (٢٥ من يوليو ١٧٩٨) •

بونابرت عضو المجمع الاهلى والقائد العام للجيش يأمر بما يأتى :

أولا : تحكم مدينةالقاهرة بواسطة ديوان مؤلف من تسعة أعضاء •

ثانيا : يتألفهذا الديوان من المشايخ: السادات، الشرقاوى، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الأشراف ، ومحمد الأمير • وعليهم أن يجتمعوا فى الساعة الخامسة مساء اليوم فى منزل كخيا الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيسا لهم ويختاروا سكرتيرا (كاتم سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية •

ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤســاء الجند) للاشراف على شئون الشرطة ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأســواق وتموين المدينــة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها الى فرسخين منها ٠

ثالثا : يجتمع أعضاء هذا الديوان كل يوم من الظهر ويبقى منهم ثلاثة أعضاء على الدوام فى دار المجلس ٠

رابعا : يقام على باب الديوان حرس فرنسى وآخر تركى ٠

خامسا : على الجنرال برتييه **Berthier** (١) وحاكم المدينة(٢) أن يتواجدا فى الســاعة الخامسة مســاء اليوم بدار الديوان لاجراء ما يلزم لأعضائه ، ولكى يأخذا عليهم تعهــدا بألا يعملوا شيئا ضد مصلحة الجيش (٣) ٠

هجرة عمر مكرم من مصر وبواعثها :

كان وجود عمر مكرم فى بلبيس أكبر حافز لســكان مديرية الشرقية على القيام فى وجه الفرنسيين مما دفع بونابرت الى العمل الحربى السريع ، لأنه توجس خيفــة من نشــاط عمر مكرم وخشى القوة الحربية التى كانت تحت امرة ابراهيم بك لأنها ظلت سليمة لم تشــترك فى معركة امبــابة ٠ ورأى بونابرت الخطر الـكامن فى مرابطة هذه القوة على مقربة من القاهرة ووجود زعيم وطنى فى هذه المنطقة يلهب سكانها حماسا ضد الفرنسيين ٠ كما أن موعد عودة الحجاج المصريين من الحجــاز كان قد اقترب ، وكان لا بد أن يسلك

---

(١) هو رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى ٠

(٢) جاء فى النص الفرنسى أنه القومندان وهو الجنرال ديبوى Dupuy

(٣) الوثيقة رقم ٢٨٣٧ فى Correspondances de Nappléon, t. IV

الحجيج فى عودتهم الى القاهرة أراضى مديرية الشرقية التى يسيطر عليها ابراهيم بك ٠

زحف بونابرت على بلبيس فدخلها بدون قتال لأن ابراهيم بك كان قد أخلاها قبل وصول الفرنسيين اليها ووجد بونابرت فى المدينة جموعا من الحجاج لم يتعرض لهم بسوء بل أرسلهم معززين الى القاهرة فى حراسة بعض الجنود الفرنسيين ٠ وعلم بونابرت أن ابراهيم بك يعتزم مغادرة البلاد الى الشام فعول على أن يتعقبه ويقضى على قواته قبل خروجه من مصر ، وجد فى زحفه حتى لحق به فى مكان قريب من الصالحية ٠ واشتبك الفريقان وكانت معظم قوة الفرنسيين من الفرسان وكانوا أضعف وأجبن من أن يصمدوا أمام فرسان المماليك ٠ وكان هذا الاشتباك أول معركة التقى فيها الفريقان دون أن يكون مع الفرنسيين سلاح المدفية الذى يعتمدون عليه اعتمادا كليا ، ولذلك كادت الهزيمة تلحق بالفرنسيين أمام شجاعة فرسان المماليك ، ولم ينقذ بونابرت الا وصول نجدات اليه ٠ واضطر المماليك الى الانسحاب ٠ وتسمى هذه المعركة باسم الصالحية (١١ من أغسطس ١٧٩٨) وارتحل عمر مكرم مع ابراهيم بك الى العريش ثم الى غزة ٠

ولكن ما هى البواعث التى حملت عمر مكرم على الهجرة من مصر ؟ انها النزعة الدينية القوية المتأصلة فى نفسه ٠ انها الولاء للسلطان العثمانى سلطان المسلمين ٠ انها الالتصاق بالدولة العثمانية على اعتبار أنها دولة الاسلام الكبرى ٠ ويلاحظ أن المجتمع فى مصر كان مجتمعا دينيا خالصا ، وكانت الفكرة الاسلامية فيه سمة بارزة عميقة الجذور ٠ فعمر مكرم لا يطيق أن يعيش بمحض رغبته واختياره فى القاهرة متمتعا بمركز مرموق ونفوذ واسع ومال وفير بعد أن أصبحت مصر تابعة لدولة أوربية ناصبت سلطان المسلمين العداء وانتزعت منه بلدا اسلاميا ٠ وعمر مكرم يرفض أن

يكون من دعائم الحكم الجديد، وهو يفضل النفى الاختيارى والتشريد وشظف العيش ومعاناة الصعاب على أن يتعاون مع الفرنسيين فى أية صورة من صور التعاون • ومما لاشك فيه أن عمر مكرم قد اطلع على المنشور الأول الذى وجهه بونابرت الى الشعب المصرى • وكان هذا الفرنسى وهو لا يزال فى الاسكندرية قد أرسل نسخا عديدة منه الى القاهرة وقد حمل هذه النسخ الأسرى المسلمون الذين أطلق الفرنسيون سراحهم فى جزيرة مالطة وجاءوا بهم الى مصر • ولكن لم يركن عمر مكرم الى ما جاء فى هذا المنشور من زيف وكذب ونفاق • ألم يقل بونابرت فيه ان الفرنسيين مسلمون مخلصون؟(١) وأنهم « صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى » وان بونابرت يحترم النبى عليه السلام والقرآن الكريم • ثم هذا التهديد الذى حفل به المنشور باحراق المدن والقرى اذا هى لم تذعن للحكم الفرنسى وترفع « علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر » وانذار المصريين باستهدافهم لأشد أنواع العقاب اذا شقوا عصا الطاعة ؟ وكان عمر مكرم يحدوه أمل قوى فى أن يعود الى الجهاد وأن السلطان — وقد فوجىء بالغزو الفرنسى — سوف يحشد جيشا جرارا يرد العدوان ويعيد مصر الى حظيرة دولة الاسلام الكبرى •

عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ومصادرة أمواله :

حدث ما كان متوقعا فما كاد يعود بونابرت الى القاهرة من موقعة الصالحية واستبان موقف عمر مكرم العدائى من الحكم الفرنسى

---

(١) جاء فى النص الفرنسى أن الفرنسيين أصدقاء للمسلمين المخلصين Que nous sommes amis des vrais musulmans والفرق كبير جدا بين العبارتين الفرنسية والعربية •

حتى اتخذ اجراءات انتقامية تعسفية . عزل عمر مكرم من منصبه كنقيب للأشراف وصادر أمواله . وأصدر فى أغسطس ١٧٩٨ قرارا بتعيين الشيخ خليل البكرى نقيبا مكانه . يقول الجبرتى « وفى ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة وتقلد نقابة الأشراف ونودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب » . وكان خليل البكرى دائب السعى لدى الفرنسيين لتعيينه فى هذا المنصب . وقد أوضح للفرنسيين أن نقابة الأشراف كانت دائما فى بيت البكرية وأنها اغتصبت منهم «فقلده الفرنسيون اياها واستولى علىوقفها وايرادها» وقدر النقيب الجديد فضل بونابرت عليه فلم يدخر وسعا فى ارضائه وغمره بالهدايا الثمينة وقد ظل بعضها ردحا طويلا من الزمن حديث المجالس فى أوربا ، ونعنى ببعض الهدايا «رستم» المملوك الشركسى الجميل الشكل وكان له من العمر وقتذاك ثمانية عشر عاما وقد اصطحبه معه بونابرت الى فرنسا وظل مرافقا له فى غدواته وروحاته وانتصاراته . وكان يلقب « مملوك الامبراطور » وتمتع بمركز ممتاز فى قصر التويلرى **Tuileries** فى باريس وظل اسم رستم مقرونا باسم نابليون (١) .

الترابط العربى ابان الحملة الفرنسية :

أعلن السلطان العثمانى الجهاد الدينى ضد الفرنسيين واستجاب لدعوته العرب فى الحجاز والشام وشمال افريقيا كما اشتركت الجاليات العربية فى مصر مع الشعب المصرى فى المقاومة

---

(١) يطلق عليه الفرنسيون روستان Roustan وقد ولد فى جورجيا سنة ١٧٨٠ وتوفى سنة ١٨٤٥ وتشتهر ولاية جورجيا بأن سكانها من أجمل سكان العالم شكلا . انظر

Lorousse Encylcopedique, Paris, 1923, p. 1564.

المسلحة ضد الفرنسيين . فمن الحجاز خرجت حملة من المتطوعين العرب بقيادة رجل يسمى الكيلانى وهو من الأشراف - ويقول الجبرتى « لما وردت أخبار الفرنسيس الى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم ... وصار هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحضهم على نصرة الحق والدين . وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير معما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافهم(١) » وتطلق عليهم المراجع الفرنسية اسم « المكاويون Les Mecquois » أى أهل مكة وهذه التسمية تنطوى على خطأ واضح لأن أفراد هذه القوة لم يكونوا جميعا من سكان مكة ، بل انضمت اليهم أفواج من من المدينة وينبع والطائف وجدة وغيرها . وكان هؤلاء العرب خصوما أشداء للفرنسيين فى الصعيد اذ صمموا على الاستشهاد وكان من بينهم عدد من الأشراف « وانضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان قد خرج معهم مع غزو مصر عند واقعة انبابة » ويشيد الجبرتى ببسالة عرب الحجاز وثباتهم فى المعارك . وهكذا تجمعت فى الصعيد ضد الفرنسيين عدة قوى : الفلاحون وعرب الهوارة وعرب الحجاز والمماليك ومن معهم من المغاربة . واستغل هؤلاء المناضلون ظروف الصعيد فالبلاد متباعدة تفصلها مسافات طويلة ، والمواصلات صعبة بطيئة ، وأصبحت قوات الفرنسيين مبعثرة على طول النيل فى مديريات الصعيد واستهدفت سفنهم لهجمات المصريين من الشاطئين ، تضاف الى ذلك رداءة الطقس ومتاعب الزحف فى الرمال وفتك الرمد بعدد كبير من الجنود الفرنسيين . وكانت النتيجة أن عجز الفرنسيون عن بسط سيطرتهم على أقاليم الصعيد على الرغم من أنهم وصلوا الى أسوان ،

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٤٤ .

فظـــل مركزهم مزعزعا وتمرد المصريون عليهم واســتهانوا بقواتهم وقطعوا مواصلات الجيش ، وحالوا بينهم وبين الحصول على مواد التموين ودواب الحمل · وتعددت الثورات وانتقلت من اقليم الى اقليم وفقد الفرنسيون الراحة والطمأنينة ·

كذلك جاء الى مصر رجل من مدينة درنه بطرابلس الغرب لقب نفسه المهدى ودعا الى قتال الفرنسيين وانضم اليــه رجال القبائل من أولاد على والهنــادى وغيرهم وســار بهم الى دمنهور حيث أباد حاميتها الفرنسية وكان لانتصار المهدى صدى كبير فى أنحاء البلاد فهرع اليه الناس من كل حدب وصوب وزاد عدد اتباعه وازداد اعتقاد الناس فى قوته وخوارقه · ولمــا علم حاكم الاسكندرية بنبأ الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية فى دمنهور أرسل نجدة مزودة بالمدافع لتتعقب المهدى ولكنها هزمت ، فأرسل حملة من رشيد ودارت معركة سنهور، وكانت من أشد المعارك هولا استمرت سبع ساعات وانتهت بفوز المهدى وارتداد الفرنسيين الى الرحمانية ·

وهكذا كانت مقاومة الحمــلة الفرنسية مظهرا رائعــا للأخوة العربية والترابط العربى ، وأثبتت أن الشعوب العربية هى شعوب أمة واحدة تظهر أصالتها ويبرز تضامنها وتساندها ابان الشدائد·

الفصل الرابع

القبض على عمر مكرم فى يافا واعادته الى مصر

تطورت الأحداث تطورا سريعا لم يكن فى الحسبان . ورأى بونابرت ازاء هذا التطور أن يزحف على الشام . ودخل الجيش الفرنسى قلعة يافا فوجد عمر مكرم معتصما بها مع جماعة من المجاهدين المصريين والشوام وعليه ملابس رثة وفى ظروف مادية قاسية .

كان الأسطول الانجليزى قد فاجأ الأسطول الفرنسى الراسى فى مياه أبى قير ودارت معركة بالغة العنف أسفرت عن تحطيم واغراق الأسطول الفرنسى (أول أغسطس ١٧٩٨) ويطلق الفرنسيون على هذه المعركة اسمها الجغرافى الصحيح وهو معركة أبى قير البحرية ، بينما اختار لها الانجليز اسما له رنين فى الأسماع فأطلقوا عليها اسم معركة النيل . وكانت هذه المعركة أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية اذ جعلتها تفقد وسيلة الاتصال بينها وبين فرنسا ، وضاع الأمل فى وصول المدد والذخائر من فرنسا الى الحملة ، وهبطت الروح المعنوية لدى أفرادها . كما كان لهذه المعركة تأثير أساسى فى تحول الدولة العثمانية من خطة التسليم بالأمر الواقع الى خطة اعلان الحرب على فرنسا والعمل على اخراج الفرنسيين من مصر . وكانت هذه المعركة نذيرا بتكوين التحالف الدولى الثانى ضد فرنسا من انجلترا وروسيا والنمسا وتركيا .

وعلم بونابرت أن الدولة العثمانية فى صدد ارسال جيش يتعاون مع قوات الشام للاغارة على مصر فرأى أن يسرع بصد هذا الجيش فى الشام قبل أن يصل الى مصر خشية أن ينتهز الشعب المصرى فرصة وجود جيش عثمانى فى مصر ويثور على الفرنسيين ويضطر بونابرت الى المحاربة فى جبهتين فى وقت واحد • وكان سكان القاهرة والقرى المحيطة بها قد قاموا فى أكتوبر ١٧٩٨ بثورة عنيفة هادرة تحرج أثناءها مركز الفرنسيين وزلزلوا زلزالا شديدا• فالغرض من حملة الشام هو الدفاع عن مصر وتوطيد دعائم الحكم الفرنسى فيها •

تحركت الحملة بقيادة بونابرت فى أواخر يناير ١٧٩٩ واحتلت العريش ثم خان يونس وغزة والرملة واللد• وبلغت مشارف مدينة يافا فى ٣ مارس • وقاومت حامية المدينة الجيش الفرنسى مقاومة عنيفة واستشهد منها مايقرب من الألفين وآثر الباقون التسليم ، ودخلها الجيش الفرنسى فى ٧ مارس ، وعمد الفرنسيون الى الانتقام من أهل يافا ، وأعملوا القتل والسلب والاحراق وانتهاك الحرمات • واضطر الحاكم الفرنسى الذى عينه بونابرت على المدينة الى قتل بعض الجنود الفرنسيين حتى يكف زملاؤهم عن مواصلة ارتكاب الفظائع • ولم تقف المأساة عند هذا الحد ، فقد ارتكب بونابرت ما يسمى فى التاريخ « مذبحة يافا » ، ذلك أنه أمر باعدام أفراد الحامية الذين سلموا أنفسهم فسيقوا الى شاطىء البحر زمرا حتى اذا جاءوه أطلقت عليهم المدفعية نيرانها فحصدتهم حصدا (١) •

---

(١) يبرر الفرنسيون هذه الفعلة الشنعاء تبريرا لا تقره قوانين الحرب ولا يستسيغه عقل ، فيقررون أنه لم يكن فى استطاعة بونابرت أن يرسلهم الى مصر لأنه كان لا بد من اقتطاع قوة عسكرية من جيشه تقوم على حراستهم فى الطريق وهو أمر يؤدى الى اضعاف القوة الضاربة التى تحت قيادته ، كما لم يكن فى استطاعته تدبير طعام لهذا العدد من الاسرى •

كان عمر مكرم فى قلعـة يافا مع عدد من المصريين تم القبض عليهم جميعا ولكن استثناهم بونابرت من المذبحة ، وسرعان ما أخذ يمن على الشعب المصرى بأنه لم يمسس بسوء السيد عمر مكرم ولا رفاقه الذين وجدهم في يافا • فأذاع على الشعب المصرى منشورا جاء فيه « وفى يوم الجمعة غرة شوال ١٢١٣ (٨ من مارس ١٧٩٩) وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبـه على أهـل مصر من غنى وفقـير الذين كانوا فى يافا ، وأعطاهم الأمان وأمرهم برجوعهم الى بلدهم مكرمين، وكذلك أمر أهل دمشق وحلب برجوعهم الى أوطانهم سالمين لأجل أن يعرفوا مقـدار شفقته ومزيد رأفته ورحمته ، يعفو عند المقدرة ويصفح وقت المعذرة مع تمكينه ، ومزيد اتقانه وتحصينه » (١) •

واستدعى بونابرت اليه السيد عمر مكرم وكان هذا أول لقاء بين الزعيم وبين القـائد الفرنسى • وقد عاتبه بونابرت على خروجه من مصر هو ورفاقه • ويلوح أن الحـالة المادية للسـيد عمر مكرم وزملائه كانت سـيئة • وهذا وضع طبيعى يتعرض له المجـاهدون المخلصون • فقد انقطعت عنه وعن رفاقه مواردهم المالية وأصبحوا يعيشون عيشة ضنكا ، فقدم لهم بونابرت ملابس ارتدوها • يقول الجبرتى ان السيد عمر مكرم هو ورفاقه ـ وقد ذكر أسـماء لفيف منهم • « كانوا بقلعة يافا ، فلما حاصرها الفرنسيون وملكوا القلعة والبـلد لم يتعرضوا للمصريين وطلبهم اليـه بونابرت وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر وألبسهم ملابس » (٢) والأمر العجاب أن الأمير ابراهيم بك ـ وهو رجل ملىء ـ أمسك عن الانفاق على السيد عمر مكرم ورفاقه المصريين وهو يعلم علما يقينيا أن سبل الحياة قد ضاقت بهم فى منفاهم • وقد انتهز المستعمر الأوربى هذه الفرصة

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٥١ •
(٢) ص ٥٣ من المصدر السابق •

فأظهر نحـوهم كرما وقـدم لهم الملابس ، ولـكن كان كرمه هادفا وسخاؤه مغرضا ، فعرض على رفاق السيد عمر مكرم من المصريين الالتحاق بالجيش الفرنسى ولـكنهم رفضوا جميعا • وأمر بونابرت باعادتهم الى مصركما أمر بأن يستقل السيدعمر مكرم وبعض رفاقه احدى السفن التى غنمها الفرنسيون فى يافا فأبحرت بهم الى دمياط فى أواخر مارس ١٧٩٩ • أما بونابرت فقد واصل زحفه شمالا ثم حاصر عكا أكثر من شهرين وارتد عنهـا • وحدث أثناء الحصار أن أرسلت الحكومة العثمانية جيشا هزمه بونابرت فيموقعة تل طابور بالقرب من بحيرة طبرية • ولكن لم ينجم عن انتصار بونابرت فتح عكا بل انه رفع الحصار عنها وعاد الى مصر بعد أن نجحت حملة الشام فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو القضاء على الجيش العثمانى الزاحف على مصر قبل أن يصل اليها •

التحفظ على عمر مكرم فى دمياط اجراء سياسى وقائى :

لم تأذن السلطات الفرنسية فى دمياط للسيد عمر مكرم فى مواصلة سفره الى القاهرة اذ فرضت عليـه الاقامة الجبرية فى تلك المدينة عدة شـهور • يقول الجبرتى انه فى ٣ صفر ١٢١٤ – أى ٧ يوليو ١٧٩٩ – « حضر السيد عمر افندى نقيب الأشراف سـابقا من دمياط الى مصر (القاهرة) وكان مقيما هناك من بعد واقعة يافا، ونزل مع الذين أنزلوهم من يافا الىالبحر وفيهـم عثمـان افنـدى العباسى وحسن افندى كاتب الشهر ، وأخوه قاسم افندى ، واحمد افندى عرفة، والسيد يوسف العباسى، والحاج قاسم المصلى وغيرهم فمنهم من عوق بالكرنتيلة ومنهم من حضر من البر خفيـة ، فحضر بعض الأعيان لملاقاة السـيد عمر وركبوا معـه بعد أن مكث هنيهة بزاوية على بك التى بسـاحل بولاق حتى وصل الى داره • وتوجه فى ثانى يوم مع المهدى وقابل سارى عسكر فبش له ووعده بخير ،

ورد اليه بعض تعلقاته ، واستمر مقيما بداره والناس تغدو وتروح اليه على العادة » .

بتحليل هذا النص الذى أورده الجبرتى تترى أمامنا عـــدة حقائق بعضها فى أثر بعض ، تحتاج احداها الى تصحيح أو ايضاح لعله غاب عن عقلية هذا المؤرخ العملاق . فلاحظ أن السيد عمر مكرم قد بلغ القاهرة فى ٧ من يوليو ١٧٩٩ قادما من دمياط ، أى أن اقامته فى هذه المدينة قد امتدت أكثر من ثلاثة أشهر . ويعزو الجبرتى هذا التأخير الى أنه «عوق بالكرنتيلة» أى أن سلطات المدينة فرضت عليه حجرا صحيا بسبب الوباء الذى انتشر انتشارا مروعا فى أوساط الجيش الفرنسى ثم انتقل الى الشعب المصرى ، ذلك أن المجزرة البشرية التى ارتكبهـا الفرنسـيون فى يافا أدت الى ظهور الوباء بين الجنود الفرنسيين ولما انتقل الى مصر كان أول ظهوره فى دمياط بين جنود الحامية الفرنسية بها لأنها كانت قد اشتركت فى حملة بلاد الشام وأخذت عدواه تنتقل الى الفرق الأخرى ومنها الى الشعب ، ولكن ملابسات الموقف تحملها على الاعتقـاد بأن هناك سـببا أكثر جدية من التعليـل الذى ذكره الجبرتى . وكان هـذا السبب يتصل باعتبارات الأمن الداخلى للجيش الفرنسى فى مصر. لقد احتجزت السلطات الفرنسية الزعيم المصرى فى دمياط لأسباب سياسية ريثما يعود بونابرت من حملته على بلاد الشام. وكان عمر مكرم يتمتع بشعبية عريضـة وعميقة فى أوسـاط الجماهير وخشى الفرنسيون أن يكون وجود الزعيم فى القاهرة مدعاة لقيام الشعب بثورة عارمة على الحكم الفرنسى بينما يكون بونابرت متغيبا عنها ، فلما عاد الأخير الى القاهرة فى ١٤ يونيو ١٧٩٩ سمح الفرنسـيون لعمر مكرم بمواصلة سفره الى العاصمة . وعلى ذلك لم تكن اقامة الزعيم فى دمياط اجراء وقائيا صحيا بل كانت اقامته أولا وقبل كل شىء اجراء وقائيا سياسيا. وأية عظمة أبلغ من هذه العظمة: جيش

أوربى مدجج بالسلاح يخشى زعيما شعبيا مجردا من كل سلاح الا سلاح الايمان بالله وبالوطن ٠

تصرفات خليل البكرى أساءت اليه وأحسنت الى عمر مكرم :

خرج أعيان القاهرة الى بولاق ـ ميناء القاهرة النهرى ـ لاستقبال عمر مكرم والترحيب به بعد عودته من منفاه ، ثم رافقوه الى داره وأخذت جموع الشعب تتردد على منزله وتدل هذه المظاهر التى أحاطه بها الشعب ـ أعيانه وعامته ـ على أن مكانته قد سمت فى أعين مواطنيه وبخاصة اذا لاحظنا أنه كان مبعدا عن نقابة الأشراف وعن أى منصب رسمى آخر ٠

وهنا نقف وقفة قصيرة لنرى ماذا فعل مع الفرنسيين الشيخ خليل البكرى الذى أقامه بونابرت نقيبا للأشراف بدلا من عمر مكرم ، لأن تصرفات النقيب الجديد ساعدت بطريق غير مباشر على ازدياد مكانة الزعيم لدى الشعب ٠ لقد أسرف الشيخ خليل البكرى فى تملقه لبونابرت ومضى قدما فى توثيق صلاته بالفرنسيين ولقد بدأ بالهدايا يغمر بها بونابرت وكان من بينها المملوك رستم الذى سبق أن تكلمنا عنه ، ثم تتابعت هداياه من خيل مطهمة وهجن سريعة وأسلحة ذات قبضات محلاة بالذهب والجواهر الكريمة ، وشيلان كشميرية ، وأقمشة حريرية من صناعة الهند والصين ، ثم عطر وعود وصندل ، فضلا عن الجوارى الحسان من الشركس والحبشان وتطورت العلاقات حتى ارتضى الشيخ خليل البكرى أن تكون داره هى المكان المختار لبونابرت يدنسه بسهراته ومجونه وفسقه وانتهى الأمر بأن وثقت ابنته زينب البكرية صلاتها بالفرنسيين وعلى رأسهم بونابرت حتى أوغل المعاصرون لها والمؤرخون والباحثون فى شرفها وعرضها ايغالا بعيدا (١) ٠

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٩٢ حوادث ربيع أول ١٢١٦ (١٢ يوليو ـ ١٠

يهمنا من هذه التصرفات غير الكريمة التى بدرت من الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف الجديد أنها أساءت اليه بقدر ما أحسنت الى نقيب الأشراف السابق السيد عمر مكرم • والشعوب قلما تخطىء ، والشعب المصرى مشهود له بالذكاء وبأن حكمه على الأمور والشخصيات يكون فى الغالب الأعم حكما صحيحا سليما • والحالة النفسية التى كان يمر بها الشعب المصرى وقتذاك جعلته ـ من حيث لا يدرى ـ يعقد المقارنات بين النقيبين السابق واللاحق ، فاذا بصفحة عمر مكرم تبدو للجماهير ناصعة البياض واذا بصفحة الثانى لا تنضح بالتعاون الوثيق مع الفرنسيين فحسب بل تتشح بتصرفات تمس الشرف وتلطخ أسرة البكرى العريقة • فتحفظ الجماهير تقديرها العميق للسيد عمر مكرم وتكتم حنقها المتأجج على الشيخ خليل البكرى حتى اذا لاحت الفرصة أظهرت الجماهير ذلك التقدير لعمر مكرم وفجرت هذا الغيظ المكبوت ضد خليل البكرى ، أفصحت عن تقديرها حين عاد عمر مكرم من يافا وكان الحكم الفرنسى لايزال على ضراوته وصرامته عسكريا عنيفا ، ومع ذلك كان الشعب يتردد على عمر مكرم فى داره أو بعبارة الجبرتى « والناس تغدو وتروح اليه على العادة » • وبقى حنق الجماهير على الشيخ خليل البكرى فى الصدور يضطرب حتى اذا نشبت ثورة القاهرة الثانية بعد رحيل بونابرت الى فرنسا اقتحم الثوار منزل الشيخ خليل وساقوه حافى القدمين عارى الرأس فى شوارع القاهرة والجماهير تحيط به وتسبه بأقذر أنواع الشتائم ، ولم ينقذه من ثورة الشعب الا السيد أحمد

= أغسطس ١٨٠١) و ج ٤ ص ٨٧ ترجمة السيد خليل البكرى فى وفيات سنة ١٢٢٣ (١٨٠٨) ص ٨٦ ـ ٨٨ •

أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث من ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦ •

نقولا ترك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦ •

محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ • القاهرة سنة ١٩٥٥ من ص ١٨١ ـ ١٨٣ •

محرم من كبار التجار اذ أخذه وآواه فى منزله (١) • أما ابنته زينب فكانت خاتمة حياتها مؤلمة ، كما سنرى بعد حين •

مقابلة عمر مكرم لبونابرت فى القاهرة :

فى صبيحة وصول السيد عمر مكرم الى القـاهرة ذهب الى بونابرت ، وصحبه فى هذه المقابلة الشيخ محمد المهدى وكان فى ذلك الوقت يشغل أمين سر الديوان وأحد أعضائه فى التنظيم الجديد الذى أدخله بونابرت على الديوان فى ديسمبر ١٧٩٨ • ويرى بعض الباحثين بحق أن هذه المصاحبة لم تأت عفوا بل ان الزعيم لم يذهب الى بونابرت من تلقاء نفسه بل دعى الى المقابلة عن قصد وان المقابلة كانت تدبيرا مبيتا بين الفرنسيين وبين الشيخ المهدى (٢) لأن ماضى هذا المهدى يدل على أنه كان أكثر العلماء تقربا للفرنسيين وصاحب حظوة كبـيرة لديهم • وكان بونابرت من ناحيـة أخـرى يسعى لاستمالة المشايخ والعلماء والأعيـان • وقد ظل الزعيم أثناء هذه المقابلة وبعدها مثالا للشجاعة والثبات على المبدأ ، ولو كان بونابرت قد اشتم منه بادرة تحول فى موقفه من الفرنسيين أو ميلا الى التعاون معهم لأغدق عليه اغداقا • ولكن الزعيم لم يكن يرجو من وراء جهاده مالا أو جاها أو مركزا • لقد رد بونابرت اليه بعض أمواله التى صودرت ، ولكن لم يعده الى منصب نقيب الأشراف ولا الأوقاف التى كان يتولى نظارتها ، ولم يعينه عضوا فى ديوان القاهرة ، وقد ترفع عمر مكرم عن المطالبة برد جميع ممتلكاته ، ولأن فى هذه المطالبة مجالا للأخذ والعطاء والمساومات السياسية ، وكان حريصا على أن يغلق مثـل هذا البـاب • وقد ذكرنا أن أقصى ماكان يطمع فيه

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٠ ـ ١٠٣ حوادث شهرى شوال وذى القعدة ١٢١٤ (وقد أدمجهما معا) •

(٢) محمد فريد أبو حديد : مرجع سبق ذكره ص ٦٥ •

بونابرت قيام نوع من التعاون بين عمـــر مكرم وبين الفرنسيين ، وهذا ماكان يعارض فيه عمر مكرم أشد المعارضة فأخفق بونابرت فى محاولته ، وظل عمر مكرم وفيا لفكرته لم يمد للفرنسيين يدا ولم يل لهم أمرا ـ فلنقارن هذا المسلك المشرف الذى ينم عن علو النفس والأنفة والترفع عن الوصولية بمسلك الشيخ محمد المهدى الذى صحبه فى زيارته لبونابرت • يقول الجبرتى وهو يترجم للشيخ المهدى انه قد اختلط بالفرنسيين « واجتمع بهم وواصلهم ، وانضم اليهم وسايرهم ، ولاطفهم فى أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه ، وقبلوا شفاعته ، ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه فى دولتهم مدة اقامتهم بمصر ••• وراج أمره فى أيامهم جدا وزاد ايراده وجمعه ، واحتوى بلادا وجهات وأرزاقا ، وأقاموه وكيلا عنهم فى أشـــياء كثيرة ، وبلاد وقرى يجبى اليهم خراجها » (١) وسنرى أن المهدى كان بالمال نهوما ، وأن هذا النهم كان فى مقدمة الأسباب التى دفعته الى الانضمام الى محمد على ضد عمر مكرم •

اعتكاف عمر مكرم سياسيا :

اعتكف عمر مكرم فى داره بالقـــاهرة يرقب عن كثب تطور الموقف السياسى وهو متحفز لمواصلة الكفاح ، والشعب من ورائه متربص أيضا للقيام على الفرنسيين • ومن مظاهر اعتكافه أنه لم يشترك فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف الذى أقيم فى ١٣ من أغسطس ١٧٩٩ (١١ ربيع أول ١٢١٤) حتى لا يفسر الفرنسيون أو المصريون اشتراكه فى هذا الاحتفال اقرارا منه بالوضع السياسى القائم فى مصر • ويلاحظ أن بونابرت قد حرص على حضور هذا الاحتفال على الرغم من زحمة الأعمال لديه اذ كان يعد العدة للهرب

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧ •

من مصر الى فرنســا • وأصدر أمرا عسكريا فى ١٦ من أغسطس ١٧٩٩ الى الحكام العسكريين فى المديريات يأمرهم باذاعة منشور باللغة العربية فى البلاد والقرى لابلاغ الجماهير بأن بونابرت احتفل بالمولد النبوى الشريف ، ولم يشترك عمر مكرم أيضا فى الاحتفال بوفاء النيــل الذى أقيم فى ٢٦ من أغسطس ١٧٩٩ بعــد رحيل بونابرت عن مصر ، ورأس هذا الحفل الجنرال دوجا ، كما لم يشترك الزعيم فى الاحتفال بمولد الامام الحسين رضى الله عنه على الرغم من اهتمام الفرنسيين البالغ باقامة هذا الاحتفال فانهم « قهــروا الناس وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والســهر ووقود القناديل عشر ليــال متوالية آخرها ليــلة الخميس ثانى عشر ربيع الثانى ١٢١٤ (١) » (١٣ سبتمبر ١٧٩٩) •

واعتكاف عمر مكرم فى داره بعد عودته من يافا لا يحمل على أنه نكوص عن الكفاح ، فقد ازداد الزعيم سخطا على الأوضاع التى انتهت اليها الأمور فى مصر • وقــد رأى عقب رجوعه الانقلابات الجذرية التى أصابت الشعب المصرى فى مستقبله السياسى ومظاهر الانحلال الخلقى والاجتماعى التى انتشرت بين طبقات الشعب وعلى ذلك فان جذوة الجهاد ظلت متقدة فى نفسه وقد زادها اشتعالا صور النفاق التى عمد اليها الفرنسيون لاجتذاب جماهير الشعب اليهم • وكانت هناك صــور أخرى أشد ايلاما لنفس الزعيم ، ونعنى بها النفاق المتبادل بين كبار الفرنسيين وبين بعض كبار المشايخ ويمثلهم الشيخ محمد المهدى • وكل مافى الأمر أن عمر مكرم ظل متربصا متحفزا للانتفاض على الفرنسيين منتظرا الوقت المناسب ، فلما لاحت الفرصة تنادى الى الثورة اندلعت فى ٢٠ مارس ١٨٠٢ قوية جارفة •

وكان عمر مكرم من زعمائها المبرزين وقبل أن نعرض لهــذه

---

(١) الجبرتى ج ٣ ، ص ٧٩ •

الثورة ودور عمر مكرم القيادى فيهـــا نمر جد مسرعين على أهم الاحداث التى تتابعت منذ مقابلة عمر مكرم لبونابرت حتى نشوب هذه الثورة ٠

لم يكد يمر أسبوع واحد على مقابلة الزعيم عمر مكرم لبونابرت حتى نزلت فى ١٤ يوليو ١٧٩٩ حملة عثمانية جرارة بقيـــادة مصطفى باشا فى أبى قير على مقربة من الاسكندرية ، وكانت قـد تجمعت فى جزيرة رودس وبعض الثغـــور التركية وأســـهم الاسطول البريطانى بقيادة سير سدنى سمث فى نقل هذا الجيش الى مصر ، وقد أصابت الحملة نجاحا سريعا فى عملياتها الحربية الأولى ولكنها مالبثت أن تعرضت لهزيمة منكرة على يد بونابرت فى موقعة أبى قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ووقع مصطفى باشا قائد الحملة فى الأسر ٠

هروب بونابرت من مصر :

علم بونابرت عقب المعركة تدهور الموقف فى فرنســا وقيام تحالف دولى ضد بلاده وأنها فقدت فتوحاتها ، فصحت عزيمـة بونابرت على العودة سرا الى فرنسا ، ودبر معدات هربه وارتحل من القاهرة فى ١٨ أغسطس ١٧٩٩ الى غير رجعة متظاهرا بأنه يزمع القيام بجولة تفتيشية فى الدلتا ، فذهب الى منوف ومنها انحدر الى الاسكندرية حيث أعدت له سفينتان حربيتان من نوع الفرقاطة وسفينتان لسفره ورفاقه وتراوح عددهم بين أربعمائة وبين خمسمائة من علماء وقواد وجنـــود وأتباع وكان معه أيضا رستم المملوك المشهور الذى ســـبق أن تكلمنا عنه وأخذوا معهم كميات من الذخـــائر والمدافع وســـارت السفن الأربع بمحاذاة الشاطىء الأفريقى حتى يتمكن ركابها من النزول الى البر اذا لمحتهم السفن البريطانية واستغرقت الرحلة ثمانية وأربعين يوما عاشوا

فيها على أعصـــابهم حتى رست بهم السـفن فى خليج فريجوس جنوبى فرنسا فى ٩ من أكتوبر ١٧٩٩ وقصد بونابرت فى نفس اليوم الى باريس • وقـــام فى ٩ نوفمبر ١٧٩٩ بانقلاب أطاح بالحكومة القائمة وأسس نظاما سياسيا جديدا فى فرنسا وتركزت السلطات فى يده •

وهروب بونابرت من مصر من المشاهد التاريخية النادرة : قائد من أعظم القواد العسكريين الذين عرفهم العالم فى التاريخ الحديث يهاجم مصر على رأس قوات زاحفة جرارة قوامها ٣٦ ألف مقاتل نقلتهم عمارة بحرية عددها ثلاثمائة سفينة ويحرسها أسطول حربى مؤلف من ٥٥ سفينة حربية ، وقبل أن يمر أربعة عشر شهرا على وصوله الاسكندرية اذا بهذا القائد وبعض أصفيائه يتسللون لواذا فى ظلمة الليل من بقعة مهجورة فى رمل الاسكندرية ويتخذون طريقهم فى البحر سربا خشية وقوعهم أسرى • يالها من سخرية الأقدار ! ولكنها مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله •

الفصل الخامس

دور عمر مكرم فى ثورة القاهرة الثانية

ترك بونابرت الى كليبر رسالة قبيل هروبه الى فرنسا عهد ليه فيها بتولى القيادة العامة للحملة ، ورسم له الخطوط الرئيسية للسياسة الفرنسية فى مصر - طلب اليه الاحتفاظ بمصر ما استطاع لى ذلك سبيلا ، وأذن له فى نفس الوقت فى أن يدخل فى مفاوضات ع الدولة العثمانية اذا استمر الطاعون فاشيا فى الجيش ، واذا جزت فرنسا عن مداد الحملة بالذخائر والقوات حتى مايو ١٨٠٠ لى أن يكون أساس المفاوضات هو الجلاء عن مصر واعادتها الى الدولة عثمانية فى مقابل خروج تركيا من التحالف الدولى الثانى وأن تقرر لفرنسا حرية الملاحة والتجارة فى البحر الأسود وشروط أخرى ضحها بونابرت .

وأسدى بونابرت النصح الى كليبر بأن يعمل على كسب ثقة بار المشايخ حتى يستميل اليه الشعب كما أمره باختيار عدد راوح بين ٥٠٠ وبين ٦٠٠ من العلماء وعمد البلاد والأعيان يفادهم الى فرنسا عند استئناف المواصلات البحرية كى يقيموا نة أو سنتين « ويروا عظمة الأمة الفرنسية ويقتبسوا عاداتنا خلاقنا وأفكارنا ولغتنا ثم يعودون الى مصر فينشروا هذه قتبسات بين مواطنيهم » كما وعد بأن يرسل الى مصر بعض فرق التمثيلية لغرضين هما الترفيه عن أفراد الجيش ، ونشر ن من ألوان الثقافة الفرنسية والعادات الفرنسية بين الشعب صرى .

نقم كليبر من أول الامـر لرحيـل بونابرت لأنه كان ـ على شاكلة الغالبية العظمى من أفراد الحملة ـ كارها الاقامة فى مصر اعتقادا منه أن الحملة مصيرها الى الفشل وأنه يجدر بالجيش القابع فى مصر أن يعود الى فرنسا ليسهم فى انقاذها من الأخطار المحدقة بها • وكانت المصاعب والأخطار التى تواجه الحكم الفرنسى فى مصر لا عداد لها : فالجيش يفتك به الطاعون ، ومعرض لهجمات المصريين والمماليك ، وهو فى حـاجة الى مزيد من الأسلحة والنجـدات ، والأسطول الانجليزى يحاصر شاطىء مصر الشـمالى ، ومرتبـات الجنود متأخرة ، وروحهم المعنوية هابطة • وكان كليبر يكره نوايا بونابرت الدكتاتورية لأنه من أنصار الجمهورية ثم جاءته الأنباء بأن العثمانيين يعدون جيشا ثالثا بقيادة الصدر الأعظم للهجوم على مصر من ناحية الشام •

وازاء هذه العوامل التى واجهت كليبر قرر أن يسلك طريق المفاوضات ، وأسفرت عن توقع اتفاقية العريش فى ٢٤ من يناير ١٨٠٠ وبمقتضاها تقرر جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم الى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد فى البحر على أن يتم جلاؤهم فى خلال ثلاثة أشهر تكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط الاتفاقية •

ابتهج الشعب المصرى ابتهاجا شديدا حين أذيعت فى أسواق القاهرة وشوارعها الترجمة العربية لنصوص اتفاقية العريش وأخذ الفرنسـيون من جانبهم يسـتعدون للرحيل فباعوا أمتعتهم ودوابهم وبعض أسلحتهم وجلوا عن عدد من المواقع والثغـور مثل الصالحية وبلبيس ودمياط والسويس • وعلم الشعب أن جيشا عثمانيا بقيادة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم قد دخل مصر من ناحية الشام واحتل المواقع التى أخلاها الفرنسيون وأنه على قاب قوسين أو أدنى من مشارف القاهرة استعدادا لدخولها • وكان فى صحبة هذا الجيش الأمراء المماليك وعلى رأسهم ابراهيم بك •

وأذن كليبر لأحد رجال الدولة العثمانية ويسمى محمد أغا فى دخول القاهرة ليعمل على تنظيم فترة الانتقال من الحكم الفرنسى الى الحكم العثمانى • وقد دخل القاهرة فى مساء ٢٨ من يناير ١٨٠٠ فى موكب فخم شق به شوارع العاصمة وقابله الشعب بالترحاب •

وفى صبيحة اليوم التالى لوصوله جمع العلماء والأعيان وكبار النصارى والاقباط والشوام وأمر بتلاوة عدة مراسيم سلطانية كان يحملها معه ، أولها ، خاص بتعيين مصطفى باشا فى منصب قائمقام فى مصر أى واليا بالنيابة حتى يحضر الوالى الجديد • وكان مصطفى باشا هو القائد الذى أسره بونابرت فى معركة أبىقير البرية وأرسله الى الجيزة حيث ظل مقيما بها • ونص المرسوم الثانى على الزام السيد احمد المحروقى كبير تجار القاهرة بتحصيل ثلاثة آلاف كيس أى خمسة عشر ألف جنيه لتغطية نفقات ترحيل الجيش الفرنسى ، وقد وزع السيد احمد المحروقى المبلغ المطلوب على التجار وأهل الأسواق والحرف وأقبل الشعب على أداء المبلغ « وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد » (١) أما المرسوم الثالث فكان خاصا بالتحكير أى احتكار الحكومة العثمانية لجميع أصناف الأقوات المستوردة فتشتريها بالسعر الذى يحدده المحتسب وتودعها المخازن • ونجم عن ذلك أن ارتفعت أسعار المعيشة ارتفاعا كبيرا • وبعث العثمانيون بالأوامر الى الاقاليم وعينوا الموظفين لجمع الأموال وطلب الغلال • وجعلوا فى كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وايداعها فى مخازن الحكومة • وهكذا جاء العثمانيون بداهيتين ــ على حد تعبير الجبرتى ــ وهما التحكير وفرض الاتاوات • وكانت هذه الاجراءات التعسفية استهلالا سيئا من جانب العثمانيين • وتحمل الشعب هذه

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٨٨ •

التضحيات عن طيب خاطر ورأى انها تهون فى سبيل التخلص من الفرنسيين وحكمهم الصارم ٠

نقض المعاهدة :

كان الشعب ينتظر على أحر من الجمر خروج الفرنسيين من البلاد ، ولكن حدث ماعصف باتفاقية العريش فقد كانت الحكومة الانجليزية ـ منذ أن ترامت اليها أنباء المفاوضات تعارض خروج الجيش الفرنسى من مصر حتى لايكون هذا الجيش مصدر قوة لفرنسا وهى تخوض وقتذاك حربا مريرة فى أوربا ٠ ورأت أحد حلين : اما تأجيل خروج الفرنسيين من مصر الى أن تنتهى الحرب فى أوربا وتركهم للأوبئة والمماليك وثورات المصريين تفتك بهم داخل مصر ، واما تسليم أنفسهم كأسرى حرب ، وانتهت الى الأخذ بالرأى الثانى ٠ وأرسل ادميرال كايت Admiral Keith القائد العام للأسطول البريطانى فى البحر المتوسط الى الجنرال كليبر تبليغا مؤرخا فى ٨ من يناير ١٨٠٠ ـ أى قبل اتفاقية العريش ـ بأن الحكومة البريطانية لا توافق على خروج الفرنسيين من مصر الا أسرى حرب بعد تجريدهم من أسلحتهم وأعلن فى هذا التبليغ أنه سيأسر فى البحر كل سفينة تنقل جنودا فرنسيين ويعتبرها غنيمة حربية ويعتبر الجنود الذين تقلهم السفينة أسرى حرب ، وقد وصل هذا التبليغ بعد التوقيع على اتفاقية العريش لبطء المواصلات فى تلك الأوقات ٠

وقد رحب كليبر بنقض اتفاقية العريش لأنه شعر أنه تجاوز المدى فى خطته ، وأن السياسة التى اتبعها ليست فى مصلحة فرنسا تماما ، وأهم من ذلك جاءته الأنباء من فرنسا بالانقلاب الذى قام به بونابرت وأطاح بحكومة الادارة وانه جعل نفسه على رأس الحكومة فى فرنسا ٠ فخشى كليبر اذا عاد الى فرنسا تنفيذا لاتفاقية العريش

أن يعتبر بونابرت خروجه من مصر هروبا ويقدمه للمحاكمة العسكرية وعلى ذلك استرد كليبر المواقع التى كانت قواته قد جلت عنها وأصدر منشورا الى جنوده أذاع فيه التبليغ البريطانى وقال لهم : أيها الجنود اننا لا نرد على هذا التبليغ الى بحد السيف .. وهزم كليبر الجيش العثمانى المتجمع لدخول القاهرة فى موقعة عين شمس (المطرية) فى ٢٠ من مارس ١٨٠٠ . ولكن عمدت فرقة من فرسان الجيش العثمانى ومشاته يقودها نصوح باشا الوالى العثمانى الجديد الى الانفصال عن الجيش واتجهت نحو القاهرة ، وحذا هذا الحذو قائد عثمانى آخر هو ناصف باشا . وهكذا نجد فرقتين من قوات الجيش العثمانى تتجهان سليمتين نحو القاهرة بينما اندحرت القوة الرئيسية بقيادة الصدر الاعظم وولت الأدبار الى بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك الوقت .

عمر مكرم يتنادى الى الثورة على الفرنسيين :

حين دارت معركة عين شمس على مشارف القاهرة سمع الشعب قصف المدافع وحار فى تفسير هذه الحرب والوقوف على بواعثها ، ولكنه أيقن أنها لابد أن تكون ضد الجيش الفرنسى . وكانت نفوس المصريين متحفزة للانتفاض على الفرنسيين ولاحت لهم الفرصة اذ كان الجيش الفرنسى خارج القاهرة يخوض المعركة وظهره الى القاهرة وليس فيها سوى حامية فرنسية قليلة العدد كانت تستعد للجلاء ، فحدث هرج ومرج بين سكان القاهرة وخرج السيد عمر مكرم من اعتكافه وتنادى الى الثورة واستجابوا لندائه « فهاجوا ورمحوا الى أطارف البلد وقتلوا أشخاصا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا الى أصحابهم » ودب الحماس فى نفوس الشعب فاقتحمت جموع منه معسكرات الفرنسيين واستولت على ما فيها من أدوات ومهمات حربية وهكذا بدأت ثورة القاهرة الثانية فى ٢٠ من مارس ١٨٠٠ وبرز اسم عمر مكرم منذ اليوم الأول للثورة.

يقول الجبرتى « وخرج السيد عمر أفندى نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى وانضم اليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح ، وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف البلد ، ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يتفوهون بهامن اختراعاتهم وخرافاتهم ، وقاموا على ساق، وخرج الكثير منهم الى خارج البلدة على تلك الصورة ٠٠ » وكانت معركة عين شمس قد انتهت وخف الجيش الفرنسى بقيادة كليبر فى أثر الجيش العثمانى بعد المعركة يتعقبه فى مديرية الشرقية ، فعادت فى عصر ذلك اليوم الى القاهرة جموع العامة وكان على رأسهم عمر مكرم « ولهم صياح وجلبة » ومعه بعض القواد العثمانيين والأمراء المماليك الذين انسحبوا من معركة عين شمس نذكر منهم نصوح باشا والى مصر الجديد والأمير ابراهيم بك وحسن بك الجداوى وعثمان بك المرادى وعثمان بك الاشقر وغيرهم يتبعهم مماليكهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا الى وكالة ذى الفقار وأقاموا المتاريس على جناح السرعة وقضوا ليلتهم خلفها ٠

وفى صبيحة اليوم التالى أحضر الثوار بعض المدافع التى كانت للعثمانيين فى عين شمس وسحبوها أمامهم الى الأزبكية ولم تكن بهذه المدافع قنابل فاستعاضوا عنها بكرات الموازين الحديدية التى جلبوها من الوكائل وهاجموا دار كليبر فى الازبكية وتبادلوا اطلاق النار مع الحامية الفرنسية المعسكرة بالأزبكية ولم يقف اطلاق النار طوال النهار حتى سجا الليل ٠ وفى نفس الوقت كانت حشود أخرى كاثرة من الثوار تقتحم بقية مستودعات الفرنسيين فى القاهرة ثم ما لبث أن انشأ الثوار فى جهة بيت القاضى معملا لصنع القنابل

ومصنعا لصب المدافع ومعملا لاصلاح الاسلحة وانتزعوا من المساجد الحديد والأخشاب وتطوع الحدادون والسباكون والنجارون وغيرهم للعمل فى هذه المصانع ٠

بسالة الشعب :

وانقلب سكان بولاق ثوارا بواسل وخفوا سراعا لدعوة أحد كبار تجارها وهو الحاج مصطفى البشتيلى كان يمتلك وكالة ملأها بالبارود ووضعه فى قدور وعلم الفرنسيون بأمره وضبطوا عنده هذه القدور فاعتقلوه فى القلعة حينا من الزمن ثم أفرجوا عنه بعد عقد اتفاقية العريش ، ولكنه ظل على عدائه للفرنسيين ، فلما قامت ثورة القاهرة الثانية دعا البشتيلى سكان بولاق الى محاربة الفرنسيين فلبوا سراعا وأعدوا عصيهم وأسلحتهم وقادهم الى مستودعات الجيش الفرنسى المقامة على شاطىء النيل فى بولاق فاقتحموها واستولوا على ما فيها من غلال ومدافع وأخذوا الفرنسيين فيها أخذة رابية ثم أقاموا المتاريس « واستعدوا للحرب والجهاد ، وقوى فى رأسهم العناد » ٠

امتدت الثورة الى أحياء القاهرة ومضى أفراد الشعب المصرى يجاهدون الفرنسيين جهادا كبيرا ووزعوا أنفسهم على مختلف أحياء المدينة وضواحيها « بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلهم واقفين بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار وبعض عساكر من العثمانية ومن انضم اليهم من أهل مصر المسلحين مكثوا بالجمالية اذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بطائفة من هؤلاء » وهكذا نجد أن ثورة القاهرة الثانية اتخذت من حى الجمالية مكانا لتجمع الثوار المسلحين يقفون على أهبة الاستعداد ليلا ونهارا لمواجهة حالات الطوارىء ، فاذا ما هاجم الفرنسيون أحد أحياء

القاهرة تحركت فورا فرقة من الثوار خفافا وثقالا للاسهام فى ضرب الفرنسيين ونجدة أهل هذا الحى الذى تعرض لهجوم الفرنسيين ٠

والجبرتى يقسم المصريين من سكان القاهرة ابان هذه الثورة تقسيما طريفا الى ثلاثة أنماط أو نماذج بشرية ، طائفة أوتيت بسطة فى الجسم وكانت على حظ موفور من الشجاعة والاقدام والتمكن من النزال وقد وقف أفراد هذه الطائفة بأطراف القاهرة وراء المتاريس ويتناوبون الحراسة فكانوا قليلا من الليل مايهجعون كى يحموا الذمار ، وقد جاهدوا الفرنسيين وغلظوا عليهم ٠ وطائفة لم يكن فى مقدور أفرادها مطاولة الفرنسيين أو منازلتهم منازلة الند للند ، ولكنهم كانوا ذوى اباء وشمم ، فوقفوا بالأزقة ليلا ونهارا على حذر أن يداهم الفرنسيون مساكن الشعب ٠ أما الطائفة الثالثة فكانت تضم الطاعنين فى السن ثم الجبناء الرعاديد والمنافقين الذين مردوا على النفاق وحادوا المهاجمين المخلصين وقبضوا أيديهم عن الانفاق وتثاقلوا الى الارض فقعدوا مع القاعدين ومع الخوالف فى المنازل التماسا للدعة واستمتاعا بملاذ الحياة الرخيصة فى كنف الاحتلال الفرنسى وهؤلاء أصابهم صغار وذل عند مواطنيهم ٠

وهاجم الثوار فريقا من المصريين اعتقدوا أنهم أعوان الاحتلال الفرنسى فاقتحموا منزل الشيخ خليل البكرى نقيب الاشراف لأنه كان قد وطد صلاته بالفرنسيين وكان يرسل اليهم الأطعمة فنهبوا منزله وأخرجوه منه مع حريمه وأولاده وساقوه حافى القدمين عارى الرأس فى شوارع القاهرة الى مقر قيادة الثورة فى الجمالية والجماهير تحيط به وتسبه بأقذر أنواع الشتائم ولم ينقذه من ثورة الشعب الا السيد أحمد محرم من كبار التجار اذ أخذه وحريمه وأولاده وآواهم جميعا فى منزله (١) ٠ وقتل الثوار أيضا مصطفى أغا محافظ القاهرة٠

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٤ ٠

عاد كليبر الى القاهرة بعد أن طارد يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم مع فلول جيشه فى مديرية الشرقية ولم يتركه الا بعد أن ارتحلت بقايا الجيش العثمانى عن الصالحية وأوغلت فى طريقها الى الشام ، وترك كليبر حاميات عسكرية فى الصالحية والقرين وبلبيس• وجد كليبر أن القاهرة تموج بالثورة وقد صرح فيما بعد أنه لم يكن يتصورها على هذه الدرجة من الخطورة (١) • وعلم أنه يقيم فيها مجموعة من القواد العسكريين العثمانيين والأمراء المماليك والجنود العثمانيين ورأى الوكائل والمخازن المقامة على النيل من مصر القديمة حتى بولاق وشبرا قد تحولت الى قلاع أقام فيها الثوار • استخدم فنه العسكرى فى هذا الوقت العصيب • وزع القوات التى كانت لديه وضرب نطاقا محكما من الحصار حول القاهرة ومنع الدخول اليها أو الخروج منها وكان قد مضى على قيام الثورة ثمانية أيام ونجح فى الوصول الى داره بالازبكية وارتفعت الروح المعنوية لدى الفرنسيين بعودته •

ولم يكن بالقاهرة رصيد احتياطى من الأقوات يكفى سكانها مدة طويلة ، اذ كانت تعتمد على البلاد المحيطة بها فى تموينها بالمواد الغذائية يأتى بها الفلاحون يوما بعد يوم لبيعها فى أسواق القاهرة فلما حاصرها كليبر وقعت أزمة تموينية خانقة اذ « عدمت الأقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات ونفدت الحبوب والغلات ، وارتفع وجود الخبز من الأسواق وامتنع الطوافون به على الأطباق ، وصارت العساكر الذين مع الناس بالبلد يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس من المآكل والمشارب » (٢) وأغلقت الحوانيت وتعطلت المخابز واقفرت الاسواق • وبلغ من ندرة الخضراوات وانعدامها أن أصبحت

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ج ٢ الطبعة الثالثة • القاهرة ١٩٥٨ ص ١٤٦ •

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٩٦ ، ٩٨ •

الغالبية العظمى من أهل القاهرة لا يأكلون سوى الأرز مطهيا بالعسل واللبن • وكان الباعة يعرضونه فى الأسواق فى طشوت وأوان • وامتدت الأزمة الى ماء الشرب فارتفع سعره اذ تعذر الوصول الى نهر النيل واعتمد السكان على ماء الآبار وما تبقى فى خزانات الأسبلة ، ونفقت دواب الحمل من الجوع لنفاد العلف من التبن والفول والشعير، وهبطت أسعار البغال والحمير • وقام الأعيان والتجار بتقديم الطعام الى الجنود المقيمين خلف المتاريس فى الأحياء التى يقطنها هؤلاء وأولئك • وكان من بينهم الشيخ السادات والشيخ الصاوى وكبار الأقباط مثل المعلم جرجس الجوهرى وفلتؤس وملطى فقد قدموا المال وفيرا للثوار •

وأبلى حسن بك الجداوى بلاء حسنا فى هذه الثورة فما يكاد يسمع أن العدو يزحف على أحد أحياء القاهرة حتى يسرع بجنوده لنصرة ثوار هذا الحى ويأخذ الفرنسيين أخذا وبيلا • ويقول الجبرتى « ورأى الناس من اقدامه وشجاعته وصبره على مجالدة العدو ليلا ونهارا ما ينبىء عن فضيلة نفس وقوة قلب وسمو همة ، وقل أن وقع حرب فى جهة من الجهات الا هو مدبر رحاها ورئيس كماتها»•

أما عمر مكرم فلم يفتر له نشاط فى ليل أو نهار ابان تلك الأيام العصيبة ، بل كان دائم التجول والانتقال بين مناطق القاهرة يبعث فى الشعب روح الحماس ويدعوهم الى الثبات فى الجهاد ، ويعرض نفسه للخطر فى الأماكن التى يشتد فيها هجوم الفرنسيين• وكان يصحبه فى هذه الجولات المشايخ علماء الأزهر والسيد أحمد المحروقى • وقام العثمانيون بدور مشابه اذ كان نصوح باشا الوالى العثمانى يطوف مع الأغا ـ محافظ العاصمة ـ مع رجال الشرطة وينادون على أفراد الشعب تحريضا على الجهاد وتشجيعا لهم على الاستبسال فى محاربة الفرنسيين •

دور عمر مكرم فى الثورة :

نخرج من هذا أن السيد عمر مكرم كان من بين زعماء ثورة مارس ١٨٠٠ ولكنه لم يكن زعيمها الأوحد ، فقد شاركت أخلاط شتى فى زعامة هذه الثورة وفى التحريض عليها وفى بطولاتها ووقائعها • فمن المصريين كان عمر مكرم وأحمد المحروقى والشيخ السادات والشيخ الجوهرى ابن الشيخ محمد الجوهرى والحاج مصطفى البشتيلى • وكان هناك العثمانيون ثم المماليك • والجبرتى نفسه يقول عند كلامه على المدافع الثلاثة التى أحضرها الثوار من عين شمس فى مستهل الثورة « وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الأمراء المصرية على أقدامهم وجروا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها الى الازبكية وضربوا منها على بيت الألفى» وكانت هذه الدار هى التى اتخذها بونابرت ومن بعده كليبر مقرا لهما وللمعسكر العام للجيش الفرنسى • ويقرر الجبرتى أيضا أن محمد الألفى بك « قد تترس بناحية السويقة التى عند درب عبد الحق وعطفة البيدق وصحبته طوائفه ومماليكه وأشخاص من العثمانية ، وبذل الهمة وظهرت منه ومن مماليكه شجاعة وكذلك كشافه وخصوصا اسماعيل كاشف فانه لم يزل يحارب ويزحف حتى ملك ناحية رصيف الخشاب وبيت مراد بك وبيت أحمد أغاشويكار وتترس فيهما » وأن حسن بك الجداوى «قد تترس بناحية الرويعى، وربما فارق متراسه فى بعض الليالى لنصرة جهة أخرى »

ولا تقلل هذه المشاركة من دور السيد عمر مكرم ابان ثورة مارس ١٨٠٠ • ولكن الامانة العلمية تقتضى ألا يغمط دور الآخرين وأن يضفى على السيد عمر صفة الزعيم الأوحد للثورة • يلاحظ أن الفارق بين ثورة القاهرة الاولى التى نشبت فى اكتوبر ١٧٩٨ وثورة القاهرة الثانية التى اندلعت فى مارس ١٨٠٠ هو أن الثورة الاولى كانت زعامتها للمصريين وحدهم • ولم يشترك فيها عمر مكرم لانه

كان متغيبا عن مصر وقد استمرت يومين أما الثـورة الثـانية فقد اشترك في قيادتها ووقائعها والتحريض عليها المصريون والعثمانيون والمماليك واستطالت ثلاثة وثلاثين يوما ٠

الشعب يضرب زعماءه ظنا منه أنهم خانوا الأمانة

طلب كليبر المشـايخ ليوسطهم فى تهـدئة الموقف وموادعة العناصر التى يتألف منها رجال الثورة وتم تكوين وفد كان من بين أعضائه المشايخ : الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى ٠ وعرض كليبر على الوفد شروط الصلـح وهى أن يخرج العثمانيون ويلحقوا بالجيش العثمانى الذى ارتد الى الشـام ٠ أما المـماليك فلهم أن يختاروا بين البقاء فى مصر لا يمسسهم أذى أو سوء وبين مغادرتها واللحاق بالعثمانيين ٠ وأما أفراد الشـعب المصرى فقد قرر العفو الشامل عنهم وأمنهم على حياتهم وأموالهم ٠ وقال العلماء ان المصريين يخشون أن ينـكل بهم الفرنسيون اذا وقفت العمليـات الحربية وخرجت القوات العثمانية من مصر ٠ فرد كليبر مؤكدا أنه لن يحدث شىء من هذا القبيل على الاطلاق ٠ ولمـا عرض الوفد على رؤسـاء العثمانيين وزعماء الثورة المصريين شروط الفرنسيين أنكروا عليهم هذا التصرف ، وبسط الثوار ألسنتهم وأيديهم بالسـوء الى أعضاء الوفد ٠

يقول الجبرتى « فلما رجع المشـايخ بهـذا الـكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليه وسـبوهم وشتموهم ، وضربوا الشرقاوى والسرسى ، ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين ، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس»(١)

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٩ ٠

اعتقد الشعب أن مبادرة كليبر الى طلب الصلح دليل على حرج مركزه وضعفه ، وأن ذخيرته الحربية قد نفدت ، فأهملوا الرد على كليبر وأرسل الاخير يستعجل نتيجة العرض الذى حمله المشايخ • وقد أرسل الباشا والكتخدا ـ نائبه ـ يقولان ان الجنود لم يقبلوا المصالحة وقالوا انهم لن يرجعوا عن حرب الفرنسيين حتى يظفروا بهم أو يموتوا عن آخرهم • وقرر الباشا ونائبه أنه ليس فى مقدورهما كبت شعور الجنود واكراههم على ترك القتال • وتعجب كليبر وقال كيف يفقد القائد سيطرته على جنوده ولا ينفذ هؤلاء الجنود الاوامر العسكرية التى يصدرها الضباط لهم •

سكان بولاق يقتلون رسول كليبر اليهم :

أرسل كليبر انذارا الى أهل بولاق يأمرهم بالقاء السلاح ويتهددهم اذا رفضوا الاذعان لانذاره ولكنهم أبوا الا المضى فى محاربة الفرنسيين • وكرر عليهم الانذار عدة مرات ، وفى المرة الخامسة حمل الانذار رجل فرنسى يركب فرسا ويقول « أمان ! أمان ! سوا! سوا ! » أى معا معا ، وبيده ورقة من كليبر فأحاط به أهل بولاق وأنزلوه من فرسه وأوسعوه ضربا ثم قتلوه • وكان نصوح باشا يؤكد مرارا لسكان القاهرة • أن قوات عثمانية جرارة فى طريقها اليهم لنجدتهم •

الفرنسيون يبدءون بحرق حى بولاق :

فلما كان يوم ١٨ من ابريل ١٨٠٠ هطلت الامطار وبرق البرق وارعدت السماء رعدا مزعجا وسالت السيول وامتلأت الشوارع والأزقة بالوحل • وقد أعاقت الامطار والوحل تحركات الثوار المصريين والجنود العثمانيين فملابسهم كانت فضفاضة واسعة ولطخت بالوحل ، وكانوا يحاربون فى الأزقة والطرقات الضيقة •

ولم يكن لهذه الحـــال من أثر على الفرنسيين لأنه ـ كمـا لاحظ الجبرتى ـ كان لديهم الاستعداد والتحفظ والخفة فى ملابسهم وما على رءوسهم وكانوا فى خارج الافنية ، وهى لا تتأثر بمياه الامطار كداخل الابنية . وانتهز الفرنســيون الفرصة وشنوا على المدينة هجـوما شديدا واستخدموا أقصى ماوصلت اليه مقدرتهم من وسائل التدمير. وبدءوا بحي بولاق فهاجموه من ناحية النيـل ومن ناحية بوابة أبى العلاء ، وأعملوا النار فى مبانى الحى وتحمل أهـل بولاق ببسالة منقطعة النظير أهوال النيران وقذائف المدفعية الفرنسية واستهانوا بالموت واسترخصوا التضحيات الغالية واستمروا فى نضالهم أروع ما يكون النضال بكل ما أوتوا من قوة وايمان وعزم « حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النـــواصى ، وصارت القتــلى مطروحة فى الطرقات والازقة واحترقت الأبنية والدور والقصور ... » (١) ثم أحرقوا الأحياء الاخرى التى اعتصم فيها الثوار وانتقموا من الشعب انتقاما وحشيا.

تدخل العلماء لوضع حد للمجزرة البشرية التى تعرض لها الشعب على يد الفرنسيين ودارت اتصالات أسفرت عن اتفاق أبرم فى ٢١ من ابريل ١٨٠٠ يتألف من تسع مواد وقع عليه ناصف باشا وعثمان افندى وكيل الصدر الاعظم عن العثمانيين وابراهيم بك عن المماليك ، وكليبر عن الفرنسيين وينص الاتفـاق على جلاء العثمانيين والمماليك عن القاهرة فى خلال ثلاثة أيام بحيث لا يبقى أحد منهم فى القاهرة بعد ظهر ٢٥ ابريل ما عدا الجرحى ، وأن يأخذوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم ما عدا المدافع فانهم يتركونها فى مواقعها وأن يواصلوا الارتحال حتى يجتازوا حدود مصر الى الشام عن طريق بلبيس والصـالحية والقطية والعريش ونصت

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

المادة السابعة من هذا الاتفاق على أن يمنح كليبر عفوا شاملا لاهل مصر عامة وسكان القاهرة خاصة .

عمر مكرم يترك الشعب لمصيره

فى المواعيد المحددة خرج العثمانيون من القاهرة وكان على رأسهم نصوح باشا الوالى العثمانى الجديد وخرج معه الامراء المماليك أبراهيم بك ومحمد بك الألفى وحسن بك الجداوى وغيرهم ومعهم مماليكهم وأتباعهم ، وخرج كذلك السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقى وكثيرون من سكان القاهرة الى الصالحية فى طريقهم الى الشام .

ما أشبه الليلة بالبارحة :

خرج عمر مكرم فى المرة الاولى من القاهرة مع بكر باشا الوالى العثمانى وابراهيم بك الى بلبيس غداة معركة امبابة (٢١ يوليو ١٧٩٨) وكان وجود عمر مكرم أكبر حافز على قيام سكان مديرية الشرقية على الفرنسيين ، فلما غلب المصريون ومماليك ابراهيم بك على أمرهم فى الصالحية آرتحل عمر مكرم وصحبه الى غزة أول الأمر ثم استقر المقام بعمر مكرم فى يافا الى أن أعيد الى القاهرة • وخرج عمر مكرم فى المرة الثانية من القاهرة مع نصوح باشا الوالى العثمانى وابراهيم بك فى أواخر ابريل ١٨٠٠ بعد أن استطاع الفرنسيون القضاء على الثورة الشعبية الكبرى ومر المرتحلون ببلبيس والصالحية فى طريقهم الى الشام . وهنا نجد أن عمر مكرم كان الى ذلك الوقت يربط كيانه السياسى ومستقبله بدعامتى الحكم العثمانى اللتين تتمثلان وقتذاك فى الوالى والأمراء والمماليك ، وهو النظام الذى كان قائما فى مصر وقت قدوم الحملة الفرنسية اليها .

والباحث المحايد لا يستطيع أن يجد تفسيرا لخروج عمر مكرم فى المرة الثانية من القاهرة الا أنه أراد أن يكون بمفازة من تنكيل الفرنسيين به • ولنزيد الأمر وضوحا نقول ان الفرنسيين كانت تمتلىء قلوبهم حقدا على المصريين وكان أول ما اتجه أليه تفكيرهم بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية ورحيل العثمانيين والمماليك هو أقامة عرض عسكرى ضخم فى ضاحية القبة دعوا اليه أعيان القاهرة . وبعد العرض سارت كتائب الجيش بأعلامها وموسيقاتها وأسلحتها فى شوارع القاهرة بين قصف مدافع القلاع . واستهدفوا من هذه المظاهرة العسكرية اشاعة الرهبة فى نفوس المصريين واشعارهم أن الجيش الفرنسى لا يزال قوة ضاربة وأنه قدير على سحق أية ثورة يفكرون فى القيام بها من جديد ، ثم أمر الفرنسيون باقامة الزينات ثلاثة أيام تضاء فى لياليها القناديل ابتهاجا بانتصارهم على الثوار • ولما انقضت هذه الأيام الثلاثة أقام كليبر فى أول مايو ١٨٠٠ وليمة للمشايخ والأعيان وأسبغ على الشيخ خليل البكرى نقيب الاشراف الكثير من مظاهر العطف والتقدير تعويضا له عن الاهانات والخسائر التى لحقته من غضب الشعب عليه ابان الثورة الكبرى فخلع عليه خلعة وأمر باعطائه منزل عثمان كاشف بدلا من منزله الذى عبث به الثوار . وفى نهاية الوليمة طلب كليبر من المشايخ الحضور اليه فى صباح يوم الجمعة ٨ من ذى الحجة ١٢١٤ (٣ من مايو ١٨٠٠) وتظاهر بأن الغرض من هذه الدعوة « هو ترتيب الديوان لأجل تنظيم البلد وصلاح حالكم وحال الرعية » وانصرفوا من عنده مطمئنين فرحين مستبشرين بهذه الروح الطيبة وتلك الوعود الخلابة •

الاجتماع الأغبر (٣ من مايو ١٨٠٠)

فلما كان اليوم المحدد للاجتماع بكر المشايخ بالذهاب الى

كليبر تداعبهم أعذب الآمال بأن خيرا عميما فى انتظارهم ولم يدر بخلدهم شىء عن المفاجأة المفزعـــة التى أعدها لهم كليبر والتى جعلت هذا الاجتماع هو أحلك اجتماع شهدوه حتى بال بعضهم على ملابسه وتمنى كل منهم أنه لم يكن شيئا مذكورا فى هذا اليوم . ونترك الجبرتى يصف حالتهم النفسية البهيجة وهم فى طريقهم الى الاجتماع الأغبر فيقول انهم « بكروا بالذهاب الى بيت سارى عسكر ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيئاتهم ، وطمع كل واحد منهم ، وظن أن سارى عسكر يقلده فى هذا اليوم أجل المناصب أو ربما حصل التغيير والتبديل فى أهل الديوان فيكون فى الديوان الخصـــوصى » ولكنهم قوبلوا مقابلة جافة انطوت على معـــانى الازدراء والاستهانة بهم فقد أجلسوا فى الردهة الخارجية ، ولم يخاطبهم أحـــد ، ولم يؤذن لهم فى الدخـــول ، وتركوا على هـــذا الوضـــع المهـــين فترة طويلة ، ثم فتح باب القـــاعة وطلب منهم الدخول والجلوس ، وتكرر نفس المشهد ولقوا الاهمال المتعمد . ثم فتح الباب ودلف منه كليبر فى فوج من كبار الفرنسيين وأعيان النصارى . ووضع لكيبر مقعد فى وسط المجلس وتكلم طويلا والمترجم يعرب كلامه أو شـــتائمه ، فهو يرمى المشـــايخ بالنفاق وضعف الخلق واهتزاز الشخصية ، ويمن عليهم بأنه أتاح لهم نفوذا لم يحلموا بمثله من قبل ، وأنه أنشأ لهم ديوانا ، وكانت شفاعتهم لديه مقبولة وكلمتهم مسموعة ، ونعى عليهم مسلكهـــم ابان الثـــورة وقرر أن ضررهم أكثر من نفعهـــم « لأنكم اذا حضر أخصامنا قمتم معهم ، وكنتم واياهم علينا ، واذا ذهبوا رجعتم الينا معتذرين . فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخـــركم وحـــرق بـــلدكم وسبى حريمكم وأولادكم » وقد دافع المشايخ عن تصرفاتهم فقالوا ان الفرنسيين قد أذاعوا على الشعب نصوص اتفاقية العريش متضمنة جلاء القوات الفرنسية عن مصر « وعرفتمونا أننا صرنا فى حكم العثملى

من ثانى شهر رمضان ، وأن البلاد والأموال صارت له ، وخصوصا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين » (١) وقالوا انهم فوجئوا بقيام الثورة ولم يكن فى استطاعتهم اخمادها ودللوا على صدق كلامهم بأنهم تعرضوا للضرب والاهانة والقاء عمائمهم على الأرض عندما نصحوا الشعب بالاخلاد الى السكينة .

مطالب تعسفية

أنهى كليبر المناقشة بقوله ان الفرنسيين يحترمون كلمتهم وحيث أنهم أعطوا الشعب الامان فلن ينقضوا هذا الأمان ثم أعلن المطالب الآتية على أن تكون مشمولة بالنفاذ العاجل الفورى .

أولا : فرض ١٢ مليون فرنك بصفة غرامة حربية على أهل القاهرة . (وقد ذكر الجبرتى أنها عشرة ملايين فرنك بينما أجمعت المصادر الفرنسية على انها ١٢ مليونا)

ثانيا : يلتزم سكان القاهرة بتقديم عشرين ألف بندقية وعشرين ألف طبنجة وعشرة الآلاف سيف .

ثالثا : اعتقال خمسة عشر شخصا من الحاضرين ليكونوا بمثابة رهائن حتى تؤدى الغرامة .

وخص بعض العلماء والأعيان بنصيب كبير من الغرامة الحربية وكان على رأس هؤلاء السيد احمد المحروقى والشيخ محمد السادات والشيخ محمد الجوهرى وفتوح الجوهرى ومصطفى الصاوى والعنانى . اما السيد عمر مكرم فقد نهبت داره ولم تكن لديه مدخرات مالية ، اذ كان الفرنسيون قد استولوا

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠٧ .

على أمواله عند خروجه من القاهرة أول مرة • وبعد اعلان هذه المطالب خرج كليبر وأغلق الباب . ولما أراد المشايخ مفادرة المكان منعهم الحراس ولم يسمحوا لأحد بالانصراف الا للشيخ خليل البكرى، والشيخ محمد المهدى وكانا على صلات طيبة بالفرنسيين، ويلاحظ أن الشعب كان قد نهب منزل الاول وأحرق منزل الثانى ابان الثورة ، وكان هذا المهدى « يستعمل المداهنة وينافق الطرفين بصناعته وعادته » واستمر الحراس متحفظين على الحاضرين وحيل بينهم وبين اداء صلاة الجمعة وفى نفس الوقت كان الشيخ محمد المهدى مجتمعا مع الاقباط يتشاور معهم فى طريقة توزيع الغرامة فوزعوها على الملتزمين وتجار الغورية وخان الخليلى والصاغه والنحاسين وأصحاب الحرف وبائعى الدخان والصابون والدلالين والقبانية والجزارين والشواءين والمزينين والنجارين حتى الحواة والقردتية والمحبظين كما قرروا أن يسهم قضاة المحاكم فى دفع الغرامة وأن يدفع أصحاب العقارات المبنية القيمة الايجارية عن أملاكهم لمدة سنة كاملة .

اعتقالات وتعذيب

استمرت الاتصالات بين الشيخ محمد المهدى وبعض كبار الاقباط من ناحية وبين الفرنسيين من ناحية أخرى ، واستقر الرأى على اطلاق سراح المشايخ والأعيان الذين لديهم مدخرات مالية تكفى لتغطية نصيبهم المقرر عليهم آداؤه من الغرامة الحربية ، فكان الواحد منهم ينصرف الى ذويه لاحضار قيمة الغرامة وهو محاط بجنود مدججى السلاح يذهبون ويعودون به لاستيفاء المبلغ • أما غيرهم ممن عجزوا عن الدفع فقد اعتقلوا فى أماكن متفرقة فى القاهرة ، وامتهنت كرامتهم بل أهدرت آدميتهم فى المعتقلات •

سيق السيد محمد السادات الى القلعة حيث اعتقل فى أحد المخازن بها ، وكان ينام على التراب ويتوسد بحجر ، وكان الفرنسيون يضربون كل يوم خمس عشرة عصا فى الصباح ومثلها فى المساء ، ثم سمحوا له بالذهاب تحت الحراسة المشددة الى داره وقدم لهم من الأموال السائلة تسعة آلاف ريال فرانسة وقدم ماكان فى داره من المصاغ والفضيات والفراء والملابس والتحف وقد ثمنها الفرنسيون بأبخس الاثمان وبلغ مجموع ما دفعه نقدا وعينا واحدا وعشرين ألف ريال فرانسه وأعيد ثانية الى المعتقل . واستمرت عمليات الضرب والتعذيب فى الصباح والعشاء وقد تحملها الشيخ السادات فى شجاعة وصبر وبحث الفرنسيون عن زوجته وابنه فلم يعثروا لهما على أثر ، وألقوا القبض على تابعه محمد السندوبى وعمدوا الى تعذيبه حتى أشرف على الموت واضطر أن يفصح عن مكانهما . وسرعان ماتم القبض عليهما وحبسوهما عند أغات الانكشارية وكانوا يضربون الابن على مرأى من والدته زيادة فى ايلامها فكانت تبكى وتصرخ، وتدخل عدد كبير من علية القوم لدى الفرنسيين لنقل الزوجة من عند أغات الانكشارية فنقلت الى منزل الشيخ الفيومى .

وأخذ الفرنسيون يهاجمون المنازل ويستولون على المصوغات الذهبية والفضية وأثاث البيوت وفاء للغرامة الحربية ، واذا وجدوا أن صاحب المنزل متغيب قبضوا على زوجته وأقاربه ثم يضربونهم ويسحبونهم الى المعتقلات بعد أن ينهبوا أثاث المنزل ، فاذا لم يجدوا به شيئا ذا قيمة أضافوا غرامته على جيرانه أو أهل حرفته . وأمعن الفرنسيون فى ازدراء الشعب ، فجمعوا البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها على الاطلاق ماعدا خمس شخصيات : الشرقاوى والمهدى والفيومى والامير وابن محرم والاخير من كبار تجار القاهرة وهكذا اجتمعت على سكان القاهرة أهوال الحرائق والقتل والتدمير والمجاعة والاعتقال والتعذيب

وفرض الغرامة الحربية الفادحة وغير ذلك من صنوف المصائب وحل عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة ١٢١٤ (٥ من مـــايو ١٨٠٠) « ومضى ولم يلتفت اليه أحد ولم يشعر به أحد ، ونزل بهم من البلاء والذل مالا يوصف »

مقارنة بين عمر مكرم والسادات :

نضع فى الصورة أمامنا عمر مكرم محمد السادات والشعب المصرى . فنجد أن الاول خرج من اعتكافه السياسى وتنادى الى الثورة فى مارس ١٨٠٠ واستجاب له الشعب سراعا ، وكان عمر مكرم ومحمد السادات من زعماء الثورة ، واستهان الشعب بالموت واستبسل فى القتال ثلاثة وثلاثين يوما حتى غلب على أمره بسبب تفوق الفرنسيين فى السلاح ووصول النجدات اليهم من شتى جهات القطر ، وعقد الفرنسيون اتفاقية خرج بمقتضاها العثمانيون والمماليك من القاهرة الى الشام . وبقى محمد السادات بجانب الجماهير فى العاصمة ولقى الاضطهاد والاعتقال والتعذيب . أما الشعب فقد أحاطت به مظالم الفرنسيين من يمين وشمال بعد اخماد الثورة حتى «ضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه» كما يقول الجبرتى (١) . وفى هذه الظروف المتناهية فى ظلامها وظلمها تلفت الشعب الى عمر مكرم فوجده قد خرج من القاهرة مرتحلا الى الشام مع العثمانيين والمماليك . حقيقة ان عمر مكرم لم يكن رجل حرب ، وحقيقة انه لم تكن لديه الوسائل أو الامكانيات كى يمنع عن الشعب انتقـــام الفرنسيين ، وحقيقة أن الأوضاع السياسية فى مصر كانت واحدة عند هجرته من مصر أول مرة وعند ارتحاله عنها فى المرة الثانية ، ولكن كان الفرنسيون فى المرة

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠٩ .

الأولى يوادون المصريين رياء ونفاقا ، وكانوا فى المرة الثانية يحادون المصريين جهارا واستكبارا ، ولا ريب أن بواعث هجــرة عمر مكرم مع القوات العثمانية والمملوكية كانت هى نفس الاسـباب التى حملته على الهجرة الأولى ، ولكن يضاف اليها فى ضوء ملابســات الموقف أن عمر مكرم أراد فى هجرته الثانية أن ينأى بنفسه عن انتقــام الفرنســيين منه . ومن واجب الزعيم أن يقف الى جــانب الشعب فى وقت المحن والشدائد وأن يشاركه آلامه وأتراحه وهو ما لم يفعله عمر مكرم عقب ثورة القاهرة الثانية وهذا هو المأخذ الذى نسجله على عمر مكرم ابان الحملة الفرنسية . ولا ينفى هذا المأخذ أن حياته جاءت حافلة بصدقه الثورى مليئة بالشجاعة والنزاهة زاخرة بالنضال .

عودة عمر مكرم بعد نهاية الحكم الفرنسى :

لم تطل هجرة عمر مكرم فقد تطورت الاحداث فى مصر تطورا عجل بنهاية الاحتلال الفرنسى ، وكان أول هــــذه الأحداث مصرع كليبر ، اذ تسلل الى حديقة داره فدائى عربى من مدينة حلب عمره أربع وعشرون سنة أسمه سليمان الحلبى طعنه بخنجره عدة طعنات أودت بحياته فى ١٤ من سبتمبر ١٨٠٠ .

وتسلم الجنرال مينو قيادة الحملة بصفته أقدم ضـــباط الحملة ثم صدر قرار بونابرت بتثبيته فى هذا المنصب . وبدأ عهد القيادة الثالثة والاخيرة للحملة . كان مينو يمثل أنصار البقاء فى مصر وهو من الرجال الذين استهواهم حب الاستعمار . وكان يثق فى نجاح الحملة وفى قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمصر واستغلال مواردها . وعلى أثر توليه القيادة العامة أوضح للضباط والجنود عزمه على البقاء فى مصر ووصف اتفاقية العريش بأنها تسليم من كليبر . وكان هذا مدعاة لانقسام الضباط والجنود بين أقلية من

أنصار البقاء وأغلبية من أنصار الجلاء . وقد فعل هذا الانقسام فعله فى التعجيل بنهاية الحملة • وقد أنف كثير من الضباط أن يعملوا تحت قيادته لأنهم اعتقدوا أنه أقل كفاية من سلفيه وكانوا يعلمون أن وصوله الى رتبة لواء (جنرال) لا يستحقها اذ لم يكن فى ميادين القتال فقد قضى حياته العملية فى مناصب مكتبية وأن صفحته العسكرية فى مصر ليست مشرفة • ولذلك كان أبرز ماتميز به عهد القيادة الثالثة للحملة هو عدم تبادل الثقة والتفاهم بين مينو وكبار الضباط ، وكان جهل مينو بدقائق المسائل الحربية مدعاة لارتيابه فى آراء زملائه ولذلك كان هناك سوء تفاهم مستمر وكان القواد يعقدون اجتماعات لتدبير خطة للقبض على مينو واعتقاله فى القلعة .

أيقنت انجلترا أن العثمانين عاجزون بمفردهم عن اخراج الفرنسيين من مصر وأن الثورات الشعبية فى القاهرة والأقاليم، على الرغم من تعددها وتلاحقها وانهاكها الفرنسيين ، لم تسفر عن اجلائهم ومن ثم استقر رأيها على ارسال قوات بريطانية تسهم فى اخراج الفرنسيين من مصر لعدة أسباب تتعلق بالموقف السياسى والحربى فى أوربا • فتحرك جيش بريطانى من جبل طارق وبلغ الاسكندرية فى أول مارس ١٨٠١ وحوالى هذا الوقت تحركت قوات بريطانية من الهند ونزلت غالبيتها فى القصير فى مايو ١٨٠٦ وعبرت الصحراء الشرقية الى قنا ثم صعدت فى النيل الى الجيزة فبلغتها فى ٧ أغسطس ١٨٠١ ولكنها لم تشترك فى العمليات الحربية لأنه كان قد تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة ومن ثم اتجهت الى رشيد ، كما عملت بريطانيا على ارسال جيش ثالث من رأس الرجاء الصالح ينزل فى القصير أيضا • وكان العثمانيون ومعهم الأمراء المماليك يتقدمون الى مصر من ناحية الشرق بجيش تحت قيادة يوسف باشا ضياء الصدر الاعظم وهكذا أصبحت مصر تموج بقوات عسكرية فرنسية وبريطانية وعثمانية ومملوكية وقد

تعارضت أهدافها ومصالحها تعارضا جذريا .

فقد الفرنسيون أعصابهم فى هذه الفترة الحرجة فاعتقلوا فى القلعة كبار المشايخ ونحو خمسة عشر شخصا من أعيان القاهرة وحدث أن توفى ابن الشيخ محمد السادات أثناء اعتقاله فأذنت السلطات الفرنسية للوالد فى تشييع جنازة ابنه وهبط من القلعة فى حراسة مشددة وأعيد الى المعتقل بعد دفن فلذة كبده .

أظهر مينو ضعفا متناهيا وسوء تدبير وعنادا لا يتفق مع خطورة الموقف وأبى أن يستمع لنصيحة كبار الضباط وقبع فى الاسكندرية بجزء من الجيش حاصره الانجيز وتعذر عليه الخروج من المدنية برا وبحرا . ووصل الجيش الانجليزى الى امبابة والجيش العثمانى الى القبة فطلبت الحامية الفرنسية فى القاهرة وقف القتال والدخول فى مفاوضات على قاعدة الجلاء وانتهت بتوقيع اتفاقية فى ٢٧ من يونيو ١٨٠١ نصت على جلاء الفرنسيين عن القاهرة والجيزة وبولاق بأسلحتهم وأمتعتهم وعتادهم على نفقة الحلفاء فى فترة لا تتجاوز خمسين يوما وسافر الفرنسيون فى السفن النيلية الى رشيد ومنها الى أبى قير حيث أبحرت بهم السفن فى أوائل شهر أغسطس ١٨٠١ الى فرنسا . أما مينو فقد شدد الانجليز الحصار عليه برا وبحرا ونقصت مواد التموين لديه الى حد خطير وأكل الفرنسيون لحوم الخيل الهزيلة وانقطع ماء الشرب وانتشرت الأمراض والطاعون بين الضباط والجنود حتى اضطر الى التسليم ووقع اتفاقية فى ٣١ من أغسطس ١٨٠١ نصت على جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية بشروط أسوأ من الشروط التى وافقت عليها الحامية الفرنسية فى القاهرة وتم جلاء الحملة نهائيا عن مصر . فى ١٨ من أكتوبر ١٨٠١ .

كان السيد عمر مكرم قد عاد مع الجيش العثمانى الذى زحف على مصر من الشام وعاد معه أيضا السيد أحمد المحروقى

والأمير ابراهيم بك الكبير وغيره من الأمراء المماليك . ولما بلغ الجيش العثمانى ضاحية القبة أقام السيد عمر مكرم فى معسكر الصدر الأعظم وركب المشايخ أعضاء الديوان بعد آخر جلسة عقدت فيه فى ٦ من يوليو ١٨٠١ الى القبة للترحيب بالصدر الأعظم ثم توجهوا الى عمر مكرم وأحمد المحروقى للسلام عليهما وقضوا ليلتهم فى المعسكر .

ودخل عمر مكرم القاهرة فى ١٥ من يوليو ١٨٠١ ومعه أحمد المحروقى وارتدى كل منهما خلعة من السمور رمزا لتقدير رجال الدولة العثمانية لهما . وفى اليوم التالى دخل القاهرة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم فى موكب عسكرى حافل من باب النصر واستمرت مسيرة الموكب من الصباح حتى الظهر . وسار فى الموكب كبار موظفى الدولة وأفراد جميع الطوائف وخرجت جموع الشعب لمشاهدة الموكب واستأجروا الدور المطلة على الشوارع التى يمر منها الموكب وقد أسهب الجبرتى فى وصف الاستقبال الحافل الذى ظفر به الصدر الأعظم ثم علق عليه تعليقا يتمشى مع نظرة الشعب وقتذاك الى السلطان العثمانى والدولة العثمانية فيقول « فكان ذلك اليوم يوما مشهودا ، وموسما وبهجة وعيدا ، عمت المسلمين فيه المسرات .. ودقت البشائر وقرت النواظر وأمروا بوقود المنارات سبع ليال متواليات ، فلله الحمد والمنة على هذه النعمة ، ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ، ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب » (١)

وشرع العثمانيون يمارسون سلطاتهم . وقد بعث يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم فى ٤ من أغسطس ١٨٠١ فى استدعاء الشيخ خليل البكرى وابنته زينب وذهبت قوة الى دار أمها فى

---

(١) الجبرتى ج ٣ من ص ١٨٩ - ١٩٠

الجودرية (٢) بعد المغرب وأحضروها حيث سئلت أمام أبيها عما كانت تفعله مع الفرنسيين ، فقالت : انى تبت من ذلك • فوجه المحقق سؤالا الى والدها : ما تقول أنت ؟ فقال : أقول انى برىء منها فكسروا رقبتها »(٢) أى قتلوها • أما الشيخ خليل البكرى فقد عزل من نقابة الأشراف لأنه كان قد وطد علاقاته مع الفرنسيين على النحو الذى أشرنا اليه من قبل ، ولأنه سمح لابنته أن « تتبرج مع الفرنسيس » و « أن تخرج عن طورها فى أيام الفرنسيس • وانه أساء بتصرفاته وبأسلوب معيشته فى الحياة الى سمعة بيت البكرى العريق وصدر قرار بتعيين عمر مكرم نقيبا للأشراف • والحق أن تصرفات الشيخ خليل البكرى قد يسرت أمام العثمانيين مهمة اعادة عمر مكرم الى منصبه القديم نقيبا للأشراف ، فهم فى اقصائهم الشيخ خليل البكرى عن نقابة الأشراف كانوا يعتمدون على أسانيد قوية وصمته بعدم الأهلية لشغل منصب النقيب • وفى نفس السنة الهجرية أصدر محمد خسرو باشا الوالى العثمانى قرارا بعزله أيضا من مشيخة السجادة البكرية واستند فى قرار العزل الى أن

---

(١) الجودرية اسم طائفة من العسكر كان عددهم أربعمائة اختطفوا هذه الشارع أيام الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى • ثم علم هذا الخليفة أن جماعة من اليهود يجتمعون فيه فى أوقات فراغهم ويتسامرون فيه بما لا يليق فما كان منه الا أن ذهب ليلا وأغلق أبواب الشارع والحارة المتفرعة منه وأعمل فيهما النار • ومنذ ذلك الوقت لا يسكن ولا يبيت فيهما يهودى أبدا •

ويقع شارع الجودرية بالقرب من أول شارع المؤيد وينتهى الى أول شارع الخطاب • أما حارة الجودرية فتتفرع منه وتمتد الى جامع بيبرس والى درب سعادة فى شارع الازهر • أنظر على مبارك الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٣٩ — ٤٤ •

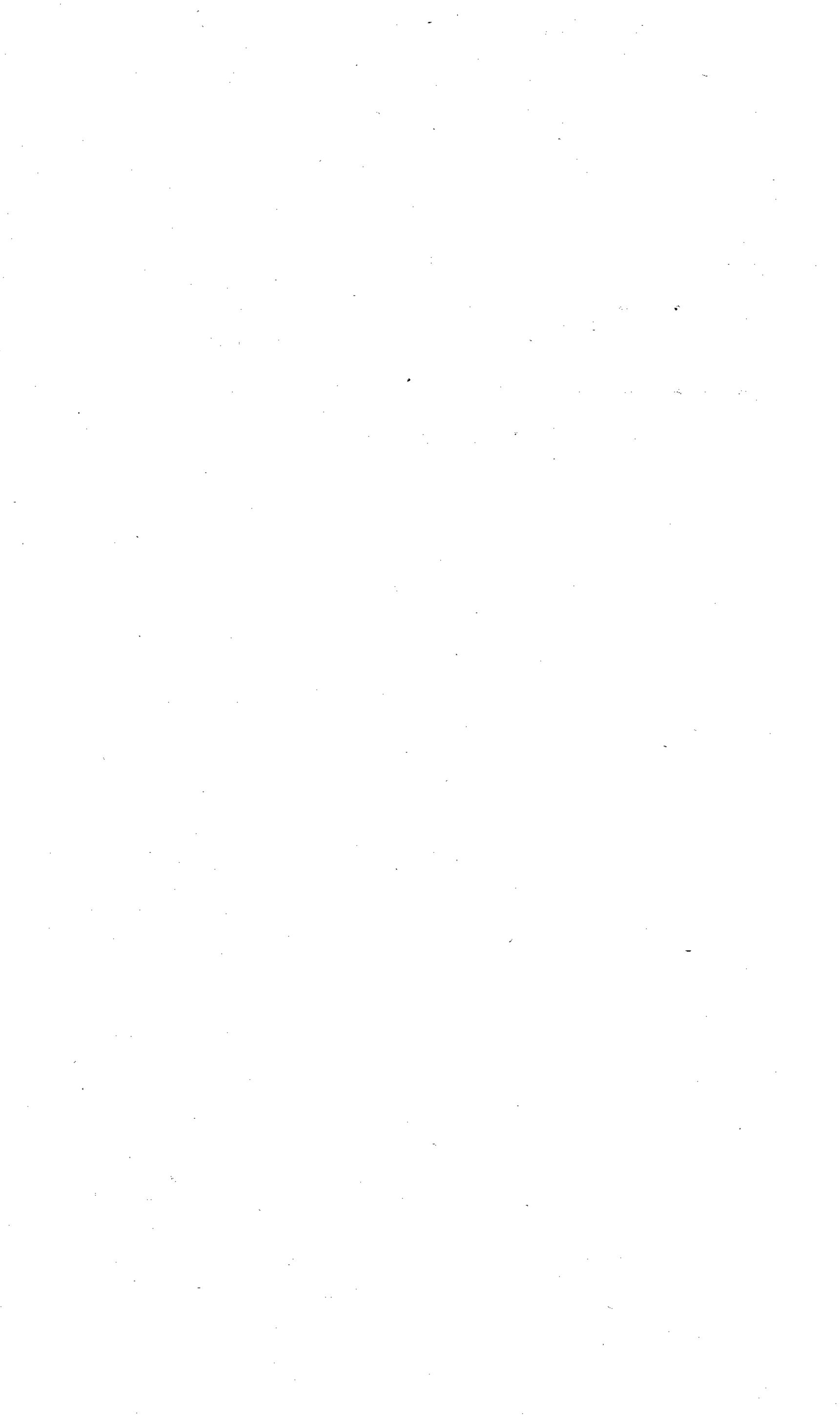
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٩٢ حوادث ٢٤ من ربيع أول سنة ١٢١٦ (٤ من أغسطس ١٨٠١) •

الشيخ خليل البكرى « لا يصلح لسجادة الصديق » (١) اشارة الى أن البكرية ينسبون الى أبى بكر الصديق ٠

ونخرج من هذا العرض التـــاريخى بأن عمر مكرم كان ابان الحـكم الفرنسى يتميز بالايجابية القيـادية الثورية حينا ، والنفى الاختيارى حينا ثانيا والاعتكاف السياسى يلجأ اليه مختارا حينا ثالثا وهو فى جميع هذه المراحل لم يدنس زعامته بالتعاون مع الفرنسيين فى أية صورة من صور التعاون وأشكاله وألوانه ٠

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢١٠ حوادث ١٥ من شهر ذى القعدة ١٢١٦ (١٩ من مارس ١٨٠٢) ٠



البَابُ الثّالِثُ

عمر مكرم في عهد الانقلابات السياسية

١٨٠١ ـ ١٨٠٥

الفصل السادس

(أفاق تركى ينتزع نقابة الأشراف من عمر مكرم)

ابتهج المصريون بخروج الفرنسيين من مصر ، ولكنهم رأوا بلادهم تموج بالقوات العثمانية التى كانت قد جاءت للاسهام فى اخراج الفرنسيين وكانت هذه القوات تضم أخلاطا شتى من الجنود الاكراد والالبانيين والاتراك والمغاربة والشوام ومن اليهم • وسرعان ما أصبحوا عوامل فوضى واضطراب ، كانوا فخورين أنهم أنقذوا مصر من الحكم الفرنسى ، وسيطرت عليهم هذه الفكرة ورتبوا عليها نتائج قاسى منهــا الشعب المصرى الـكثير من المتاعب ، اعتقدوا أن هذا الانقاذ المزعوم يبيح لهم أن يفعلوا فى البلاد وأهلهــا ما شاءت أطماعهم وأهواؤهم • انتشروا فى الشوارع يخطفون أرزاق النــاس ويقتحمون المنازل وينتهكون الحرمات والأعراض وارهقوا المصريين بشتى أنواع الضرائب والاتاوات • ورأى الشعب الى جانب العثمانيين الأمراء المماليك واتباعهم يريدون الاستئثار بالحكم واغتصاب الأموال من المصريين ، وهكذا خرج المصريون من محنة الاحتــلال الفرنسى ليواجهوا ظلما ثنائيا تعددت صوره ومظاهره على أيدى العثمانيين الطغاة من ناحية والمماليك البغاة من ناحية أخرى •

لم يعمد المصريون الى الاستكانة ازاء مظالم العثمانيين والمماليك بل تعددت ثورات الشعب فى القاهرة والأقاليم احتجاجا على تلك المظالم واستمر الصراع بين الشعب وبين هؤلاء الحكام أعنف ما يكون الصراع ، وتعاقبت حوادث اغلاق الجامع الأزهر احتجاجا على عسف

الحكام ، وكثرت تجمعات الجماهير فى حى الأزهر انتظارا لاشارة زعماء الشعب بالتحرك استنكارا لتصرفات هؤلاء الحكام وتحديا لهم • واشتركت النساء مع الرجال فى هذه الحركات الشعبية •

والحق أن مصر أصبحت مسرحا لفوضى سياسة لا مثيل لها وكثرت حوادث قتل واعتقال وعزل الباشوات العثمانيين • وحسبنا أن نذكر أنه تعاقب على حكم مصر ـ خلال الفترة التى بدأت منذ أن تم جلاء الفرنسيين عن مصر فى سنة ١٨٠١ حتى قاد السيد عمر مكرم الثورة الشعبية الكبرى فى سنة ١٨٠٥ ـ خمسة حكام عثمانيين قتل منهم اثنان وأخرج الثلاثة الباقون من البلاد اخراجا غير كريم ، الأمر الذى يجعلنا نطلق على هذه الفترة «عهد الانقلابات السياسية» •

وتضافرت عوامل أخرى على استفحال الفوضى التى كانت الطابع المميز لعهد الانقلابات السياسية ، منها تدهور الحالة الاقتصادية فى البلاد بسبب كثرة الحروب والثورات التى شهدتها البلاد على عهد الفرنسيين وبعد جلائهم الأمر الذى أدى الى تعطيل الزراعة وانقطاع المواصلات وكساد التجارة ، ثم استيلاء المماليك عقب عودتهم على أقاليم شاسعة فى الصعيد والوجه البحرى واستئثارهم بايراداتها ومحاصيلها • وغدت خزانة الحكومة خاوية• وعجزت الحكومة فى القاهرة عن مواجهة النفقات العاجلة ودفع مرتبات الجنود • ولم يجد الحكام أمامهم سوى الشعب الكادح يفرضون عليه الاتاوات الفادحة والقروض الاجبارية وغير ذلك من ضرائب جزافية تعسفية مختلفة المسميات • وليس من شأن هذا البحث أن يخوض فى تفاصيل الفوضى السياسية الحادة التى سادت البلاد ابان عهد الانقلابات السياسية • وحسبنا ان نشير الى حادث وقع ابان هذه الفترة ويتصل بالسيد عمر مكرم •

فى غمار الفوضى السياسية التى عمت البلاد واضطراب

السياسة العثمانية ازاء مصر نزعت نقابة الأشراف من السيد عمر مكرم وتولاها أفاق تركى يدعى يوسف أفندى . كان فى مطلع حياته يقيم فى القاهرة حيث اتخذ له محلا فى خان الخليلى يبيع فيه الخردة على مدار السنة حتى اذا أقبل شهر رمضان من كل عام توفر على بيع البندق والجوز واللوز وغيره من أصناف الياميش . ثم بدا له احتراف التصوف ، فغدا من متصوفة الأتراك . وكان للمتصوفين شأن عظيم فى المجتمع الدينى الذى كان طابع مصر فى ذلك الوقت ولما مات شيخ رواق الأتراك بالأزهر هفت نفسه الى تقلد هذا المنصب ، ونجح فى تحقيق بغيته بمعونة بعض سفهاء الأتراك . وسرعان ما ظهر سوء خلقه وخراب ذمته ، اذ استغل منصبه واختلس أموال رواق الأتراك ، أو رواق الأروام كما كان يسمى وقتذاك . وكشف أمره ، فعزل من منصبه وعين تركى آخر يسمى حسين افندى شيخا للرواق ، وامتلأ قلب الشيخ المعزول ضغينة وموجدة وغلا لهذا الذى انتزع منه مشيخة الرواق ، ومن ثم سولت له نفسه أن يرتكب جريمة منكرة فى الخفاء كى يتخلص منه نهائيا ويسترد منصبه ، فدعاه الى منزله بعد أن دس له السم الزعاف فى شراب اعتزم تقديمه له ، ولكن حدث أن أخطأت ابنة الداعى فشربت من الشراب المسموم فماتت لفورها ونجا حسين أفندى من موت محقق .

ولما تعرضت مصر للغزو الفرنسى هاجر يوسف أفندى شيخ رواق الأتراك السابق الى الآستانة حيث أقام بها طوال الحكم الفرنسى . وتحت ستار الدين والتصوف نجح فى توثيق صلاته بكبار رجال الدولة ، وزعم لهم أنه كان شيخا للجامع الازهر ، وتظاهر بالتقوى والتدين ، وأنه على حظ موفور من العلم ، وطلب اليهم تعيينه نقيبا للأشراف فى مصر ، كما طلب أن تسند اليه مشيخة الحبانية بالقاهرة . ويلوح أن الامر قد اختلط على رجال الباب العالى ، فلم يفرقوا بين مشيخة الأزهر وبين مشيخة رواق

الأروام بالأزهر ، فاستجابوا لطلبه ، اعتقادا منهم أنه صادق فى قوله ، ومن ثم فهو أهل لشغل هذين المنصبين • وجدير بالذكر أن الأتراك يحبون التصوف ويميلون الى تقديس أهله والايمان بصدق ولايتهم (١) •

هبط هذا المدعى الآفاق مصر يحمل مرسوما بتوليه نقابة الأشراف ومشيخة المدرسة الحبانية • وبلغ بولاق - ميناء القاهرة النهرى - فى مستهل شهر شعبان ١٢١٦ هـ (٧ من ديسمبر ١٨٠١) وقضى ليلته فى بولاق ، وأرسل فى الصباح نفرا من أتباعه يبلغون ولاة الأمور نبأ وصوله ، ولكن لم يحفل أحد منهم به ، ولم يخرج لاستقباله أحد ، فأحضر اليه أتباعه فرسا ركبه وذهب به الى القاهرة •

عقد عمر مكرم اجتماعا شهده الأشراف وقرروا الاعتراض على تعيين هذا التركى نقيبا للأشراف وشيخا للحبانية ، وقالوا « لا يكون هذا حاكما ولا نقيبا علينا أبدا » وكان الصدر الاعظم يوسف ضياء باشا لا يزال فى القاهرة • وعلم قصة هذا التركى على حقيقتها ، وأدرك أنه محتال مزور ، فأهمل أمره وتقرر صرف النظر عن تعيينه فى هذين المنصبين: نقابة الأشراف ومشيخة الحبانية، وتقرر أن يستمر عمر مكرم فى منصبه • وأبدى الشيخ الجبرتى ابتهاجه بموقف الصدر الأعظم فى هذه المسألة وتقديره العميق لقراره الحكيم ، وقال تعليقا على ذلك الموقف المشرف العادل «وهكذا شأن رؤساء الدولة ، أدام الله بقاءهم ، اذا تبين لهم الصواب فى قضية لا يعدلون الى خلافه » • (٢)

---

(١) د • توفيق الطويل : التصوف فى مصر ابان الحكم العثمانى ص ١٦٢

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ حوادث شهر شعبان ١٢١٦ (٧ من ديسمبر ١٨٠١ - ٤ من يناير ١٨٠٢) •

لم يذعن الأفاق التركى لرأى الصدر الأعظم ، ومن ثم طفق يسعى لتمكينه من تقلد نقابة الأشراف ، فانتهز فرصة قدوم محمد باشا خسرو الى القاهرة فى ١٣ من رمضان ١٢١٦ (١٧ من يناير ١٨٠٢) وهو أول وال عثمانى يعين لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها، وبذل يوسف أفندى مساعيه لديه ، واستند فى مسعاه الى أنه يحمل مرسوما صدر من السلطان بتعيينه نقيبا للأشراف ، وأن هذا المرسوم واجب النفاذ ، فقلده هذا الوالى نقابة الأشراف فى ٢٩ من رمضان ١٢١٦ (٢ من فبراير ١٨٠٢) وفى ذلك يقول الجبرتى « وفى ليلة الاربعاء تاسع عشرينه ذهب يوسف أفندى الى والى مصر فقلده نقابة الأشراف وألبسه فروة بعد أن كان أهمل أمره » ويلاحظ أن المرسوم الصادر بتعيين يوسف أفندى نقيبا للأشراف فى مصر كان من الناحية القانونية لا يزال قائما ، لأنه لم يكن قد صدر مرسوم لاحق يلغيه أو يعدله ، ومن ثم كان يتعين على الوالى محمد خسرو باشا تنفيذه • ولا ننسى أن فى مقدمة واجبات الوالى العثمانى فى مصر تنفيذ الفرمانات أى المراسيم التى يصدرها السلطان • وكان خسرو باشا يعتقد أن مهمته الأولى فى مصر هى توطيد دعائم الحكم العثمانى فى العهد الجديد واقصاء المماليك عن حكم البلاد • وكان تجاهل مرسوم صدر من السلطان مما يتنافى مع مهمته التى أخذ على عاتقه تنفيذها بحذافيرها •

لم يسكت السيد عمر مكرم عن أمر اعتبره ضيما نزل به ومهانة لحقت نقابة الأشراف بمصر وبخاصة ان الذى انتزعها منه أفاق تركى ليست لديه الأهلية لشغل هذا المنصب الدينى ، وأن ماضيه فى مصر كان ملوثا ، وأنه شخص مرد على النفاق والكذب وقلب الحقائق ، فادعى أمام ولاة الأمور فى الآستانة أنه كان فى يوم ما شيخا للأزهر العتيد • وقد تحدث السيد عمر مكرم مع الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا أثناء وجوده فى القاهرة فى هذه المسألة على السلطان عقب عودته الى الآستانة ، وعند رحيل الصدر

الأعظم من القاهرة فى طريق عودته الى الآستانة بطريق الشام فى ١٠ من شوال ١٢١٦ (١٣ من فبراير ١٨٠٢) ذهب لوداعه السيد عمر مكرم وبعض المتعممين فأعطاهم صررا وقرءوا له الفاتحة ، وخرج أيضا فى ذلك اليوم بقية المشايخ وذهبوا الى الخانكة حيث أقيم معسكره وودعوه (١) .

وقد بر يوسف ضياء باشا بوعده ، لأنه لم يمض وقت طويل على وصوله الى الآستانة حتى فاتح السلطان فى موضوع نقابة الأشراف واستطاع تسويتها معه . وقد وصل الى القاهرة فى ١٥ من ذى الحجة ١٢١٦ (١٨ من ابريل ١٨٠٢) رسول من الباب العالى يحمل مكاتبات كان من بينها مرسوم باعادة نقابة الأشراف الى السيد عمر مكرم وعزل يوسف أفندى منها . وقد ركب عمر مكرم الى القلعة حيث قابل الباشا الذى ألبسه خلعة سمور ثم توجه من عنده الى الدفتردار . وبذلك عادت الحقوق الى ذويها واسترد عمر مكرم نقابة الأشراف ، بعد أن انتزعها منه يوسف أفندى شهرين ونصف شهر .

ولم يعدأحد يسمعشيئا عنالنقيب التركيالسابق الا مرةواحدة حين تطاول على أحمد خورشيد باشا الوالى العثمانى بالسب والقذف فى حقه . وكان ذلك فى ٨ من ذى الحجة ١٢١٩ (١٠ من مارس ١٨٠٥) يصف الجبرتى الاهانة التى لحقت به ، فيقول : « وفى يوم الأحد ثامنه طلع يوسف افندى الذى كان تولى نقابة الأشراف فى أيام محمد باشا خسرو ثم عزل عنها الى القلعة ، فقبض عليه صالح أغا قوشى وضربه ضربا مبرحا وأهانه اهانة زائدة وأنزلوه أواخر النهار وحبسوه فى بيت عمر أفندى النقيب ثم تشفع فيه الشيخ السادات وأفرجوا عنه تلك الليلة وذهب الى داره ليلا ، وذلك بسبب دعوى تصدر فيها المذكور وتكلم كلاما فى حق الباشا فحقدوا عليه ذلك ، وفعلوا معه مافعلوه ، ولم ينتطح فيها عنزان » .

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٠٨ .

الفصل السابع

دور عمر مكرم القيادى فى ثورة ١٣ مايو ١٨٠٥

بعد أن عاد عمر مكرم الى منصبه نقيبا للأشراف لم يعمد الى الاعتكاف بل شارك فى الحياة العامة فى النطاق الذى رسمته له أحداث الفوضى السياسية التى كانت طابع هذه الفترة • فهو لم يشترك اشتراكا ايجابيا فى المنـــازعات التى وقعت بين طوائف العثمانيين سواء بين الجنود الانكشارية وبين الجنود الألبانيين أو بين الأخيرين وبين المماليك • وقد ترك عمر مكرم ـ الى حين ـ هــذه العناصر العسكرية الدخيلة تتطاحن وتتقاتل على السلطة والنفوذ وهى فى الحقيقة تعمل على اضعاف وافناء نفسها بنفسها •

وفى ٢٦ مارس ١٨٠٤ وصل الى القاهرة أحمد خورشيد باشا واليا على مصر وهو خامس وال يلى مصر فى ثلاث سنوات ، وكان على شاكلة من سبقوه ، أسرف اسرافا بعيدا فى ظلم الشـــعب • استقدم جنودا أشداء من الاكراد عرفوا باسم الدلاة (١) ليتخلص بهم من محمد على وجنوده الألبانيين مما أثار عليه حفيظة الأخيرين ثم عجز خورشيد عن دفع مرتبات الدلاه والألبانيين على السواء ولجأ الى فرض ضرائب جزافية وقروض اجبارية على الشعب واستخدم فى جمعها وسائل تعسفية كان من بينها اعتقال الأعيان وكبـــار

(١) الدلاة أو الدلاتية كلمة تركية معناها المجانين ومفردها دلى • وأطلقت هذه اللفظة على الجنود الاكراد لشهرتهم بالبسالة والتهور والاندفاع الذى يصل الى حد الجنون •

التجار فى القلعة وعدم الافراج عنهم الا بعد سداد ما قرره عليهم ثم فرض على صغار التجار دفع خمسمائة كيس ٠

اسفاف الجنود الدلاة فى الاجرام :

كان الجنود الدلاة يقيمون فى مصر القديمة ، وانقلبوا وحوشا كاسرة بعد أن تأخرت مرتباتهم ثلاثة أشهر وأخذوا يهاجمون الشعب وبدأوا اعتداءاتهم بالأسلوب التقليدى وهو خطف العمائم من رءوس المارة ثم انقلبوا مجرمين عتاه ينهبون ويقتلون ويقتحمون البيوت ويرتكبون جرائم خلقية منكرة ٠ وما أن علم المشايخ بهذه الجرائم حتى عملوا على تعبئة الرأى العام ضد هؤلاء الدلاة ، فأمروا عددا من الرجال بالمرور فى الطرقات الرئيسية واذاعة أنباء هذه المآسى ، ولم تمض ساعة واحدة حتى أغلقت الحوانيت والوكائل واقفرت الاسواق من روادها ٠ وتدفقت الجماهير الى حى الأزهر تطلب من المشايخ بصوت مرتفع الاذن لها فى الزحف على مصر القديمة والانقضاض على الدلاة (١) ٠ وقد شعر خورشيد بهذه الحركة وخشى أن يتفاقم الموقف فأرسل وكيله ومعه قائد فرقة الانكشارية فى حراسة قوة من الجند الى الأزهر للتفاهم مع المشايخ على تهدئة الجماهير ولكن انهال عليهم الطوب من أسطح المنازل ٠ وتعذر عليهم الوصول الى الأزهر فعادوا من حيث أتوا ٠

وقد وقف المشايخ من خورشيد موقف المحتج الغاضب فصعدوا اليه فى القلعة وخاطبوه فى هذا الارهاب الاجرامى الذى يمارسه جنوده الدلاة ٠ فأصدر أمرا الى الدلاة بعدم التعرض للأهلين ، فلم يمتثلوا ٠ وخوطب خورشيد مرة ثانية فأجاب بأنهم

---

(١) Achille de Vaulabelle, Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition francaise en Egypte. «Paris, 1832» 10 vols. t. 9, pp. 206-207.

مسافرون بعد ثلاثة أيام ، فزاد ضجيج الشعب • واجتمع المشايخ في الأزهر صباح يوم الخميس ٢ من مايو ١٨٠٥ وأوقفت الدراسة فيه ، وخرج الناس الى الأسواق يصرخون ويأمرون التجار بغلق الحوانيت • ورأى خورشيد أن يخطو خطوة في سبيل علاج الموقف فأرسل كتخداه ـ وكيله ـ الى جـــامع الأزهر يعرض على المشايخ عقد هدنة مدتها ثمانية أيام تنتهي في ١٠ من مايو يبذل المشايخ نفوذهم حتى يركن الشعب الصاخب الى الهـــدوء وتعود الحياة الى مجراها الطبيعي ، ويتعهد خورشيد من ناحيته باتخاذ الاجراءات الكفيلة بردع الجنود الدلاة • ولكن لم يجد الكتخدا أحدا في الجامع فتوجه الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوي بصفته شيخ الأزهر وعقدا اجتماعا شهده عمر مكرم وسائر المشايخ • ولما نقل الكتخدا الى المجتمعين رغبة الوالي في عقد الهدنة اشترطوا للموافقة عليها أن يطهر خورشيد مدينة القاهرة وضواحيها من الجنود الدلاة كلية في خلال ثلاثة أيام • ولما انصرف الكتخدا بعد أن انفض الاجتماع فوجيء بالجماهير تقذفه بالطوب وتوســعه سبا وشــتما (١) • وعلى الرغم من عقد الهدنة فقد ظلت الدراسة معطلة في الأزهـــر ، وبقيت معظم الحوانيت مغلقة •

نذر الثورة وموقف عمر مكرم :

استقر رأى التجار وأرباب الحرف على اغلاق حوانيتهم كمظهر عملي من مظاهر الاحتجاج على مظالم خورشيد وفرضه الضرائب الجزافية عليهم • وفي اليوم التالي نفذوا ماتعاهدوا عليه ، وظلوا مترقبين متحفزين ، وذهبت أفواج منهم الى الجامع الأزهر • وعلى الرغم من أن

---

(١) Mengin Felix: Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly. Paris 1823 2 vols. t I. p. 159

محافظ العاصمة ورئيس الشرطة (١) قاما بجولة فى شوارع القاهرة يأمران التجار بفتح محلاتهم فان أحدا منهم لم يمتثل لأوامرهما ، ذلك أن روحا جديدة دبت فى نفوس المصريين • وفى ٢٩ من مايو ١٨٠٤ كانت القاهرة كمرجل يغلى استعدادا للثورة اذ « اجتمع الكثير من غوغاء العامة والاطفال بالجامع الأزهر ، ومعهم طبول ، وصعدوا الى المنارات ، يصرخون ويطبلون ، وتحلقوا بمقصورة الجامع ، يدعون ويتضرعون ويقولون يالطيف ، وأغلقوا الأسواق والدكاكين ، ووصل الخبر الى الباشا ، بل سمعهم من القلعة » •

استنجد خورشيد بعمر مكرم لتهدئة الشعب الثائر ، وأرسل رسولا الى الزعيم يقول له ان الحكومة قررت اعفاء الفقراء من دفع الضريبة فأجابه عمر مكرم قائلا ان أرباب الحرف والصناعات أصبحوا فى عداد الفقراء ، ويكفى مايعانونه من حالة الكساد ووقف المعاملات التجارية وقلة البضائع المعروضة ، فلا يحق للحكومة أن تطلب منهم الاسهام فى تحمل مرتبات الجنود • وتساءل عمر مكرم عن العلاقة بين التجار وبين تدبير الاعتمادات المالية لحرب المماليك • وعاد الرسول الى خورشيد يحمل اجابة عمر مكرم • وذهب محافظ العاصمة فى حشد من الجنود الى الغورية يأمر التجار بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف ولكن لم يحضر أحد ولم يرهبهم وعيد أو تهديد • واضطر خورشيد ، ازاء رفض عمر مكرم التعاون معه وازاء تضامن التجار ، الى اصدار فرمان فى نفس اليوم « برفع الغرامة عن المذكورين ، ونادى المنادى بذلك ، فاطمأن الناس وتفرقوا وذهبوا الى بيوتهم » • وأفرج عن الأقباط بعد أن دفعوا ألفا ومائتين وخمسين كيسا وتغاضى عن المائتين وخمسين كيسا المتبقية عليهم من الغرامة • وتم اطلاق سراحهم ليلا وغادروا معتقل

---

(١) كان يطلق على محافظ القاهرة فى مصطلح ذلك العصر اسم الأغا • ويطلق على رئيس الشرطة اسم الوالى •

القلعة على ضوء المصابيح (الفوانيس) · وفى اليوم التالى صدرت الأوامر باعتقال اليهود وسيقوا الى معتقل القلعة وتقرر التحفظ عليهم حتى يدفعوا ألف كيس (خمسة آلاف جنيه) ·

كان فى ظن خورشيد أنه مستطيع توفير الأسباب لتهدئة خواطر الأهلين ، ولكنه فشل فى علاج الموقف · اذ أعلن أن مركز الحكومة المالى يضطره الى فرض مزيد من الضرائب ليدفع من حصيلتها مرتبات الجنود · ولهذا الغرض فرض فى ١٠ من مايو ١٨٠٥ ألفى كيس على جرجس جوهرى ومحمد المحروقى · ثم أعلن خورشيد فى نفس اليوم عن عزمه على فرض ضريبتين جديدتين · وانتشرت هذه الأنباء بسرعة البرق بين سكان القاهرة واحتوى الشعب شعور جارف بتحدى أحمد خورشيد باشا · فأعلنوا أنهم لن يدفعوا أية ضريبة يفرضها عليهم ، ومضوا ليلتهم فى هرج ومرج شديدين · وكانت الصورة التى ظلت عالقة فى أذهانهم مفزعة رهيبة تمثلت فى أمرين ، هما : الجرائم المنكرة التى يرتكبها الجنود الدلاة فى وضح النهار وفى ظلمة الليل ، وعجز الوالى أحمد خورشيد عن وضع حد لهـا ، ثم اصرار هذا الوالى على المضى فى سياسته الضريبية الجائرة ·

أما الزعماء فأخذوا يتبادلون الرأى فى الخطة العملية التى يجب عليهم انتهاجها فى اليوم التالى وقد انتهت بهم المداولات الى أن يطلبوا من القاضى عقد مجلس شرع يختصمون فيه الوالى أحمد خورشيد · فلما أصبح يوم الأحد ١٢ من مايو ١٨٠٥ ركب المشايخ الى دار المحكمة الكبرى ــ بيت القاضى ــ وطلبوا عقد مجلس شرع واختصام الوالى فيه ، وطلبوا من القاضى استدعاء « المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع » أى كبار رجال الحكومة لمصارحتهم بما استقر عليه رأى زعماء الشعب ، فحضر من طرف الوالى خمسة مندوبين ·

ولم يكد يعلم الشعب بما استقر عليه رأى زعمائه حتى كانت الشوارع المؤدية الى دار المحكمة تموج بجموع زاخرة من الجماهير

تدفقت من كل حدب وصوب على دار المحكمة ، واجتمع حولها حشود « المتعممين والعامة والاطفال » وأخذوا يرددون هتافات عدائية موجهة ضد الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا ، وكان من بينها « شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ـ يالطيف ـ يا رب يامتجلى ، اهلك العثملى ـ حسبنا الله ونعم الوكيل » .

مطالب زعماء الشعب برياسة عمر مكرم

ولما اكتمل عقد المجلس أعلن المشايخ فى مواجهة مندوبى الوالى أن أحدا لن يدفع الضريبة التى قررها الوالى فى اليوم السابق (١١ من مايو) وأنهم لن يعترفوا بسلطته كوال على مصر ما لم يخضع للشروط التى يرون أنها كفيلة باعادة الأمن والاستقرار الى البلاد وانهاء الجرائم التى يرتكبها الجنود ووضع حد لمظالم الباشا . واتفقوا على كتابة « عرضحال » أى مذكرة تتضمن الوسائل العملية لتحقيق رغبات الشعب .

وتذكر وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (١) أن هذه المطالب بلغ عددها واحدا وعشرين مطلبا كان أهمها حسب ترتيب ورودها فى نشرة الوكلاء الفرنسيين بمصر والمؤرخة فى ٢٠ من مايو ١٨٠٥ :

١ ـ عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة وضرورة انتقالها الى الجيزة .

٢ ـ عدم السماح لأى جندى بدخول القاهرة حاملا سلاحا معه .

٣ الامتناع عن فرض أية ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة المشايخ والأعيان .

---

(١) وثيقة رقم ٢٦ . وانظر Douin G. Mohamed Aly, Pacha du Care
Achille de Vaulabelle. ouvr. cit., t. 9. pp.210-211

٤ ـ اعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلي ٠

أما بقية الشروط فتقول الوثيقة الفرنسية انها شروط أقل أهمية وهى تتعلق بالاجراءات التى يجب اتخاذها لاعـــادة الهدوء والأمن الى القاهرة والأرياف والمحافظة على حياة السكان ، ثم العودة الى النظام القديم فيما يختص بسفر قافلة المحمل والحجاج الى الأقطار الحجازية ٠

أما الوثائق الانجليزية (١) فتزيد على هذه المطالب مطلبا آخر هو تخصيص جزيرة الروضة فى القاهرة لانشاء الحانات والمحال المعدة للترفيه عن الجنود ٠ كما أنها ذكرت أن حظر فرض الضرائب يمتد الى سائر أنحاء القطر المصرى ، وليس الحظر مقصورا على القاهرة وحدها كما جاء فى الوثيقة الفرنسية ٠

أما الجبرتى فلم يسجل البنــود التى تضمنتها مذكرة زعماء الشعب بل أوردهــا فى صــورة عـــامة ٠ قال عن مجلس الشرع « واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك ، وذكروا فيه تعدى طوائف العســكر ، والايذاء منهم للنـــاس ، واخراجهم من مساكنهم ، والمظالم والفرد ، وقبض مال الميرى المعجل ، وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك » (٢) وقد

---

(١) انظر الوثيقة رقم ١٦٥ فى مجموعة الوثائق الانجليزية التى جمعهـــا ونشرها دوان بعنوان

L'Angleterre et l'Egypte. La Politique Mameluke (1803-1807), Le Caire, 1930. 2 Vols. t. II. doc. no. 165 pp. 231-233.

أما الجزء الاول من مجموعة الوثائق الانجليزية فقد اشتركت معه فيه مدام Fawtier Jones وهو يحمل نفس عنوان الجزء الثانى ويغطى حـوادث السنوات من ١٨٠١ حتى ١٨٠٣ وقد طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٩ ٠

(٢) الجبرتى ج ٣ ، ص ٣٢٩ ٠

أخذ مندوبو الوالى هذه العريضة لتقـــديمها اليه ووعدوا بالعودة اليهم ومعهم الرد عليها فى اليوم التالى •

خورشيد يدبر خطة لقتل عمر مكرم :

شعر خورشيد أن الحركة جد خطيرة • ولم يكن فى مقدوره أن يستجيب لطلبات الشعب التى وردت فى العريضة حتى يتجنب انفجار الشعب • فليس لديه فائض من مال يدفع منه مرتبات الجنود حتى يخلدوا الى السكينة ، وليس له سلطان على الجنود حتى يأتمروا بأمره ويرحلوا عن القاهرة الى الجيزة • وعلم من منـــدوبيه الذين حضروا مجلس الشرع أن عمر مكرم كان فى طليعة مؤيدى العريضة وان كلمته مســـتجابة ، وأن فى استطاعة هذا الزعيم أن يدفع الشعب فى طريق الثورة حتى يحقق مطالب الجماهير فعول على أن يتخلص منه • وفى هذا يقول اكيل دى فولابل Achille Vaulabelle المؤرخ والسياسى الفرنسى ان السيد عمر مكرم برز فى الصف الأول من صفوف المناضلين الذين رآهم الشـــعب يدافعون عن حقوقه • واعتقد خورشيد أن فى مقدوره اخماد الحركة اذا اعتقل هذه الشخصية القيادية الشـــورية ثم تخلص منها • فلما تسلم خورشيد المذكرة التى تتضمن مطالب الشعب أعلن أنه لا يستطيع أن يقرر شيئا قبل أن يتشاور مع عمر مكرم • ولهذا فهو يرجوه أن يصعد الى القلعة لمقابلته (١) • أما الجبرتى فيذكر هذه الواقعة بصورة أخرى تدل على أن عمر مكرم كان هو المرجع فى أحداث الثورة وأنه هو زعيمها وموجهـــا ، فيقول ان خورشـــيد بعث

(I) Achille de Vaulabelle, ouvr cit., t 9pp 211-213

Gouin Edouard, L'Egypte au Dix-Neuvieme SiècleParis,1847

ويذكر مؤرخ آخر فرنسى معاصر أن خورشيد بعث الى القاضى يرجوه أن يحضر اليه فى القلعة فى اليوم التالى ومعه السيد عمر مكرم ليتشـــاور معهما • ولكنهما رفضا الذهاب اليه • انظر Mengin, ouvr. cit., t. I, p. 161

برسالة الى القاضى « يظهر الامتثال ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة فلما وصلته التذكرة (الدعوة) حضر بها الى السيد عمر أفندى ، واستشاروا فى الذهاب ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه ، وغلب على ظنهم أنها منه خديعة ، وفى عزمه شيء آخر ، لأنه حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه كان أعد أشخاصا لاغتيالهم فى الطريق ، ونسب ذلك الفعل لأوباش العسكر أن لو عوتب بعد ذلك » .

ولما علم خورشيد برفض الزعماء قبول دعوته أعلن رفضه مطالب الشعب جملة وتفصيلا . وقد حسمت هذه الاجابة مصيره المرتقب ودفعت عمر مكرم والمشايخ الى العمل الجدى السريع . والحقيقة أن الزعماء كانوا قد يئسوا تماما من أى اصلاح يأتى على يد خورشيد واعتقدوا فيه العجز عن احداث أى تغيير يقضى على المظالم التى حفل بها حكمه . وعلى الرغم من أنهم كانوا واضعى العريضة وموقعيها فانهم كانوا قد بيتوا النية على ضرورة عزله والمناداة بمحمد على واليا على مصر (١) وصرحوا فيما بينهم بهذا الاتجاه وتسربت الى الجماهير أنباء ما اعتزموه فتناقلته الألسن ووجد هذا التغيير المرتجى هوى فى نفوس أفراد الشعب ، ومن ثم حدث اللقاء والتجاوب بين الشعب وبين زعمائه . ولهذا ففى الصباح الباكر من اليوم التالى (١٣ من مايو ١٨٠٥) ذهب الزعماء الى دار المحكمة وحولهم جموع الشعب تظاهرهم . ولكن القاضى وقد أدرك أن ثورة الشعب تدخل مرحلتها الحاسمة وخشى عاقبتها أمر باغلاق أبواب المحكمة . وأسرع الى المحتشدين سعيد أغا وكيل خورشيد وكبار رجال حكومته ليتداركوا الموقف ، ولكن كان عمر مكرم أسبق

---

(١) Guemard Gabriel, les Reformes en Egypte d'Ali Bey El Kébir à Méhémet Ali (1760-1848) Le Caire, 1936. p 87

منهم فى الحركة والعمل • فقد جاهر أمامهم بضرورة عزل أحمد خورشيد وتولية محمد على مكانه ، فتعالت هتافات الشعب مدوية بسقوط خورشيد لكثرة مظالمه والمناداة بمحمد على واليا على مصر • وعندئذ قرر عمر مكرم والزعماء الذهاب الى محمد على فى داره بالأزبكية وعرض منصب ولاية مصر عليه بنفس الشروط التى ضمنوها مذكرتهم السابقة الى أحمد خورشيد •

ويصف الجبرتى المقابلة التى تمت فى نفس اليوم بين عمر مكرم والمشايخ من ناحية وبين محمد على من ناحية ثانية فيقول «وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له انا لانريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولابد من عزله من الولاية • فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له : لا نرضى الا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير • فامتنع أولا ثم رضى وأحضروا له كركا وعليه قفطان (١) وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى ، فألبساه له وذلك وقت العصر ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة » غير أن الجبرتى يعود ـ عند ترجمته لمحمد بك الألفى وهو يتكلم عن وفيات سنة ١٢٢١ هـ ـ فيعطينا صورة أكثر وضوحا وأدق تفصيلا • فيقول ان عمر مكرم عقد مجلسا فى منزل محمد على دعا اليه المشايخ والاعيان • وتصدر عمر مكرم الحديث فى هذا المجلس ، فتكلم عن تفاقم الموقف واستمرار الحروب والفتن بين طوائف الجند وتوالى المظالم والجرائم فى غير انقطاع على الشعب ، وأفصح عن رأيه فى أن لا مخرج من هذه الحالة التعسة التى انحدر اليها الشعب آلا بعزل أحمد خورشيد • وطلب منهم أن يختاروا أحدا من العثمانيين يعين واليا بالنيابة حتى يصدر الباب العالى قرارا بتعيينه أو تعيين وال آخر • ففوض الحاضرون الأمر الى عمر مكرم يختار من

---

(١) كان الكرك والقفطان من شارات الحكم فى ذلك الوقت •

يراه . فأشار الى محمد على فأظهر الاخير التمنع وقال « أنا لا أصلح لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة » وكان هذا القول رياء ونفاقا من محمد على حتى يتمسك الحاضرون به . وفعلا « قالوا جميعا قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة ، والعبرة رضا أهل البلاد . وفى الحال احضروا فروة وألبسوها له وباركوا له ، وهنئوه ، وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية ، واقامة المذكور فى النيابة حتى يأتى المتولى أو يأتى له تقرير بالولاية. ونودى فى المدينة بعزل الباشا واقامة محمد على فى النيابة . »

ونخرج من هاتين الصورتين بعدة حقائق :

١ ـ أن عمر مكرم كان هو الذى تزعم انقلاب مايو ١٨٠٥ وأول من اقترح على المشايخ والأعيان عزل خورشيد وتعيين محمد على مكانه . وكان رأى عمر مكرم نافذا وكلمته مسموعة فقد أخذ الحاضرون باقتراحه ولم يرتفع صوت واحد بالمعارضة .

٢ ـ قرر زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم حق الأمة فى اختيار وتعيين حاكمها وهو مبدأ دستورى هام . وكان تقرير هذا المبدأ وتنفيذه كسبا شعبيا كبيرا .

٣ ـ أن عمر مكرم كان يرى أن والى مصر يجب أن يكون عثمانيا وسنتعرض لهذه المسألة بعد حين فى شىء من التفصيل .

٤ ـ ان تعيين محمد على كان بصفة قائمقام أى وال بالنيابة حتى يصدر السلطان مرسوما بتعيينه أو تعيين عثمانى آخر واليا على مصر .

٥ ـ أن محمد على قبل الشروط التى عرضها عليه عمر مكرم وكانت نفس الشروط التى رفضها من قبل خورشيد باشا وقد كتب ميست Misset قنصل بريطانيا العام فى مصر رسالة مؤرخة فى ١٨ من يونيو ١٨٠٥ الى حكومته قال فيها ان المشايخ

والأعيان صمموا قبل المناداة بمحمد على واليا على مصر أن يوقع على تصريح أو اعلام يتضمن نفس الشروط التى رفضها خورشيد وكان أهمها ـ فى نظره ـ عدم السماح للجنود بدخول القاهرة بسلاحهم ويستثنى من هذا الحظر رجال الشرطة ، وعدم فرض أية ضريبة غير قانونية فى أى جزء من أجزاء مصر •

مقارنة بين عريضة الزعماء ووثيقة قانون الحقوق :

وقد نعت أحد رجال السياسة فى فرنسا هذه العريضة التى تضمنت شروط المشايخ بأنها وثيقة الحقوق bill des droits (١) وانها تشبه وثيقة قانون الحقوق Bill of Rights الذى أقره البرلمان الانجليزى فى سنة ١٦٨٩ عقب الثورة التى قام بها الشعب الانجليزى فى سنة ١٦٨٨ وأسفرت عن انهاء حكم أسرة ستيوارت فى انجلترا ، وتعتبر هذه الوثيقة من القواعد التى قامت عليها حرية الشعب الانجليزى وأعلن فيها أن حق الملك فى العرش مستمد من ارادة الشعب الممثل فى البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج وفقا لمصلحة البلاد ، وأنه لا يجوز للملك أن يفرض الضرائب بدون موافقة البرلمان • والوثيقة التى كانت تحمل توقيع العلماء وقدموها لخورشيد فرفضها ثم لمحمد على فقبلها تشبه قانون الحقوق • فهى قد أنهت حكم أحمد خورشيد باشا وكان آخر وال عثمانى يحكم مصر وفق النظام الذى أرسى قواعده السلطان سليم الأول عقب الغزو العسكرى العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ ، وأتت بمحمد على واليا على مصر ، والذى استطاع أن ينشىء حكما وراثيا فيها يتوارثه بنوه وحفدته ، كما أنها تتضمن نصا بعدم انشاء أية ضريبة دون موافقة الشعب ممثلا فى زعمائه المشايخ والاعيان • وهذا النص صورة

---

(1) Achille de Vaulabelle, ouvr. cit., t 9 p. 211

للمبدأ الدستورى المعروف No taxation without repesentaronti
أى لا ضريبة بدون قانون يعرض على ممثلى الشعب . والفارق بين هاتين الوثيقتين محصور فى مجال التطبيق العملى . فملوك انجلترا احترموا وثيقة قانون الحقوق والتزموا بها منهاجا ومســـلكا فى تصرفاتهم بينما رفضها خورشيد ثم قبلها محمد على ولكنه لم يعمل بها أكثر من سنتين ثم عبث بها .

الباب الرابع

عمر مكرم زعيم المقاومة الشعبية

مايو ــ أغسطس ١٨٠٥



الفصل الثامن

عمر مكرم يقود الكفاح المسلح

خورشيد يتحدى الشعب :

حمل زعماء الشعب فى نفس اليوم الى خورشيد قرار عزله ولكنه ـ وهو التركى المغرور الصلف ـ أبى واستكبر ، ووقف موقف العناد والتحدى • فأعلن تصميمه على البقاء فى منصبه استنادا الى أنه معين من قبل السلطان فلا يعزل ـ كما قال ـ بأمر الفلاحين » (١) وصرح بأنه لن يغادر القلعة الا بأمر من السلطان• ويدل أسلوب اجابته على مبلغ تعاليه على الشعب وازدرائه له ، قرر خورشيد المقاومة واعتصم بالقلعة وسارع الى اتخاذ تدابير عسكرية وسياسية متحديا الشعور الشعبى الجارف ضده • فنقل الى القلعة ذخائر حربية ومواد تموينية استعدادا لتلقى الحصار اذا اضطرته الظروف الى ذلك • وكان يعتمد على القوة العسكرية المرابطة فى القلعة والتى كانت تدين له بالولاء ، وكان عددها ألفا وخمسمائة جندى • وعول فى نفس الوقت على الاستفادة من انقسام ظهر فى صفوف زعماء الألبانيين وراوده الآمل فى مناصرة فريق منهم له مثل عمر بك الأرنؤودى الذى غادر مسكنه فى بولاق فى ١٤ من يونيو ١٨٠٥ ـ أى فى صبيحة الانقلاب ـ وصعد اليه فى القلعة يشد أزره، ونهج هذا النهج صالح أغا قوش • والتزم حسن باشا الزعيم الأرنؤودى الآخر موقف الحيدة بين محمد على وخورشيد ثم أخذ

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٣٠ وانظر Gouin Edouard, ouvr. cit., p. 154

خورشيد ينشد مساعدة محمد الألفى بك وابراهيم بك وعثمان بك وغيرهم للوقوف الى جانبه ضد محمد على ، كما انه استدعى على باشا سلحداره بجيشه من المنيا ، وعقد آمالا كبارا على مساعدة الجنود الدلاة له وكانوا فى ذلك الوقت فى القليوبية ، وبعث الى الحكومة العثمانية يطلب تأييدها له فى موقفه باعتباره نائب السلطان فى حكم مصر • وظن خورشيد أن فى مقدوره بهذه التدابير وأد الثورة الشعبية معتقدا أنها ليست الا وميض نار لا يلبث أن يخبو وشيكا • ولكنه كان فى ظنونه من الواهمين الخاسرين • فان زعماء الشعب قرروا مقابلة تحدى خورشيد بتحد مثله فقرروا بالاتفاق مع محمد على محاصرة القلعة وأن يشترك الجنود الألبانيون مع المصريين فى قتال خورشيد • وكان عمر مكرم هو أول من دعا الشعب الى ضرب الحصار على القلعة • ورفع رأسه بالايمان والعزة والقوة •

عمر مكرم يقود النضال الشعبى المسلح :

بدأ الصراع المسلح بين الشعب وبين خورشيد وأبدى عمر مكرم فى هذه الآونة الكثير من ضروب النشاط والمثابرة والشجاعة وهو يقود النضال الشعبى العنيد لتدبير المقاومة الشعبية وتوجيهها لحصار خورشيد فى القلعة وتضييق الخناق عليه • فأكثر من الطواف بأنحاء العاصمة لتعبئة المشاعر ودعوة الجماهير الى تأييد الثورة والانضمام اليها • وكان الأزهر هو مركز التجمعات الشعبية فيقودها عمر مكرم الى دار محمد على فى الأزبكية بصفته الوالى الذى ارتضاه حاكما للشعب ، ثم يخرج عمر مكرم بهذه الجموع الى القلعة لتعزيز القوات التى تحاصرها واقامة المتاريس فى الشوارع المحيطة بها • يقول الجبرتى « واجتهد السيد عمر أفندى النقيب وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد ، وركب هو والمشايخ الى بيت محمد على ، ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت ، ولازموا السهر بالليل فى

الشوارع والحـــارات ويسرحون أحزابا وطوائف ، ومعهم المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور •» (١) وأصبحت المواكب الشعبية الثائرة وعلى رأسها عمر مكرم وتحركاتها الصـــاخبة فى شوارع القاهرة من الأزهر الى الأزبكية فالقلعة منظرا مألوفا وقتذاك وعمت القـــاهرة موجـــة ثورية حتى ان دروفتى Drovetti قنصل فرنسام العام فى مصر قرر أن هياج الشعب فى القاهرة قد أعاد الى ذاكرته صورة الأيام المجيدة التى شهدتها باريس فى مطلع الثورة الفرنسية (٢) أما مانجا الدبلوماسى والمؤرخ الفرنسى فيقول : ان المظاهرات الحربية التى كان يقوم بها عمر مكرم مجتازا أحياء القاهرة وما أبداه الشعب المصرى من روح القوة والتحدى كان لها أثرهـــا فى نفوس جنـــود خورشـــيد فانكمشـــوا أمام هـــذه المظاهرات (٣) •

وأراد خورشيد أن يستعين بالقاضى التركى فى الحصول على مرتبه فبعث اليه كى يرسل له مرتبه ومرتبات الجنود المرابطين معه فى القلعة الى أن ترسل الآستانة خطابا تحسم به الموقف • وأخذ خورشيد يدافع فى خطابه عن موقفه ، فقال ان اقامته فى القلعة لا تنطوى على اضرار بالرعية أو خراب البلاد • وقد رد القاضى التركى عليه ، فقال عن المرتبات انه سبق أن تناولها أثناء توليه الحكم • أما من حيث رفضه مغادرة القلعة فقال له القاضى : « فان اقامتكم بالقلعة هو عين الضرر ، فانه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة وطالبون نزولكم أو محاربتكم ، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور • وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام » •

فى ليلة ٢٤ من مايو ١٨٠٥ قام جنود خورشيد بهجوم مفاجىء

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ص ٣٣٠

(2) Shafik Ghorbal. The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. London. 1928 p. 227

(3) Mengin, ouvr cit., t I, p 164

على متاريس الثوار وتبادل الفريقان اطلاق النيران • واستطاع الثوار أن يردوا جنود خورشيد الى القلعة خاسرين • ولجأ خورشيد الى الخديعة ففى صبيحة هذا الهجوم الفاشل نزل عمر بك الأرنؤودى من القلعة وأطلق شائعة تقول ان خورشيد باشا قد آثر التسليم ومغادرة القلعة • ولم تكن هذه الشائعة الا خدعة حتى يهدأ الشعب الثائر من ناحية ، ولينزل أنصار خورشيد من القلعة الى المدينة كى يتزودوا بالمواد الغذائية من ناحية ثانية ، وليتصل عمر بك الأرنؤودى بزعيم الثورة السيد عمر مكرم كى يتباحث معه ويسبر غوره من ناحية ثالثة •

وقد لازم الشعب المرابطة فى مواقعه « والأمر مستمر من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل واتخاذهم الأسلحة والنبابيت » •

حوار مثير بين عمر مكرم وأحد أنصار خورشيد :

وفى ٢٥ من مايو ١٨٠٥ تمت مقابلة هامة بين السيد عمر مكرم وبين عمر بك الأرنؤودى وهو كما سبق أن ذكرنا من مؤيدى خورشيد ومن خاصة مستشاريه • وتمت المقابلة فى منزل حسن باشا ودار بينهما حديث طويل حول حق الشعب فى عزل الحاكم الظالم ومحاربته • وأظهر عمر بك الألبانى حنقه الشديد على الشعب المصرى لأنه ـ فى نظر هذا الألبانى ـ قد تجاوز حدوده وأعلن عزل خورشيد متحديا فى ذلك ارادة السلطان الذى أصدر مرسوما بتعيينه واليا على مصر • وجرى الحديث على النحو الآتى :

عمر بك الألبانى :

كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » •

السيد عمر مكرم :

أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه .

عمر بك الألبانى :

وكيف تحصرونا ، وتمنعون عنا الماء والأكل ، وتقاتلونا ؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟

السيد عمر مكرم :

نعم ، قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة .

عمر بك الألبانى :

ان القاضى هذا كافر .

السيد عمر مكرم : اذا كان قاضيكم كافرا فكيف بكم ؟ وحاشاه الله من ذلك ، انه رجل شرعى لا يميل عن الحق .

وانفض المجلس ولم يتحول عمر بك الألبانى « عن الخلاف والعناد » (١) .

عمر مكرم طليعة الأحرار المسلمين فى القرن التاسع عشر :

يعتبر هذا الموقف من المواقف الرائعة التى حفلت بها حياة عمر مكرم فقد دل فى هذا الحوار على أنه زعيم متفتح الذهن صادق الفهم قوى الارادة عميق الايمان بعدالة قضية الشعب ، شديد

---

(١) أنظر نص الحديث فى الجبرتى ج ٣ ص ٣٣١ .

التمسك بالمبادىء يفهمها حق فهمها ويرعاها حق رعايتها مستعدا للبذل والتضحية فى سبيلها . وقد تجلت شجاعته وصرامته فى الحق حين قرر بصريح العبارة فى حواره المثير وجوب عزل السلطان نفسه اذا حاد عن العدل . ولا شك أن الزعيم ، وهو يدلى بهذا التصريح الخطير ، كان يستند الى ركن ركين هو الحكم الالهى الأزلى الذى ورد فى القرآن الكريم ، الكتاب الخالد . « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : انى جاعلك للناس اماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين . » (١) فالامامة والقيادة والرياسة ممنوعة على الظالمين الذين يتجاوزون حدود الله وينحرفون عن تعاليمه . والعدالة بكل معانيها هى شرط أساسى لاستحقاق الامامة فى أية صورة من صورها . والحاكم أيا كان لقبه اذا ركن الى الظلم فقد جرد نفسه من حق الامامة وأسقط حقه فيها .

وما كان لمثل عمر مكرم ـ وهو من نعرف على حظ موفور من الثقافة الدينية العميقة تلقاها فى رحاب الأزهر ـ أن يغيب عن ذهنه المتفتح ما استقر عليه رأى فقهاء المسلمين فى شروط الامامة وفى موقف الرعية من الحاكم اذا أخل بواجباته . وها هو الماوردى الملقب «بأقضى القضاة» والذى عاش فى أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس للهجرة يعقد فصلا فى « الشروط المعتبرة فى أهل الامامة » ويذكر أن هذه الشروط سبعة أولها « العدالة على شروطها الجامعة . » (٢) ويعقد الماوردى فصلا آخر يحدد فيه واجبات الحاكم وعلى رأسها تنفيذ الأحكام الشرعية واقامة العدل وبعد أن يعدد هذه الواجبات وعددها عشرة ويشرحها يقول مانصه : « **واذا** قام الامام بما ذكرناه من حقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى

---

(١) سورة البقرة : ١٢٤ .

(٢) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى البغدادى الماوردى : الاحكام السلطانية والولايات الدينية جمع بين المسائل الشرعية والسياسية : الناشر المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) ص ٤ .

فيما لهم ، وعليهم ، ووجب له عليهم حقان : الطاعة والنصرة **مالم يتغير حاله** » (١) ويلاحظ أن الماوردى قد استهل هذه العبارة بأداة الشرط « اذا » أى أن الطاعة والنصرة لا تجبان على الرعية للحاكم الا اذا نهض الأخير بالواجبات المفروضة عليه ، فاذا أهمل فلا طاعة ولا نصرة •

وهناك ملاحظة هامة أخرى فى الحوار الذى دار بين عمر مكرم وبين عمر بك الألبانى ، وسوف نتعرض لشرحها فى شىء من التفصيل فى موطن قادم ، لم يكن عمر مكرم ينشد سوى الحاكم العادل ، ولم يجر على لسانه قط فى هذا الحديث أو فى غيره عبارة الحرية أو الاستقلال عن دولة الاسلام الكبرى ، فهو الزعيم ذو النزعة الاسلامية لا يكاد يرى الأمان الا فى ظل سلطان المسلمين ، ولم يكن يترامى فكره السياسى الى الآفاق والمفاهيم التى تزدحم بها أفئدة الثوار المناضلين فى أيامنا هذه • والحق أن الوجدان الدينى والفكر السياسى كانا يتلاحمان بعضهما مع بعض فى نفس الزعيم عمر مكرم : فهو يردد فى حديثه مع عمر بك الألبانى نظرية اسلامية سياسية هامة هى حق الشعب فى عزل حكامه اذا أساءوا الحكم ، وهو يصر على نقل هذه النظرية الى مجال التطبيق العملى • وكان ترديد هذه النظرية والاصرار على تطبيقها فى ذلك الوقت المبكر من القرن التاسع عشر ظاهرتين هامتين فى تاريخ الفكر السياسى فى مصر • لقد كان هذا الزعيم العربى المصرى هو بلا منازع طليعة الأحرار المسلمين فى القرن التاسع عشر وأول بشائر البعث الجديد فى الشرق العربى الحديث •

عاد عمر بك الألبانى الى القلعة بعد حديثه مع عمر مكرم واستؤنف القتال بعنف بعد أن كان قد تراخى بعض الشىء ثلاثة أيام ، وشدد عمر مكرم فى حصار القلعة • ويصف الجبرتى الدور

---

(١) المصدر السابق ص ١٥ •

القيـــادى الذى اضطلع به الزعيم عمـر مكرم فى هذه المرحلة من مراحل المقاومة الشعبية فيقول : « وفى يوم الاثنين (٢٦ من مايو ١٨٠٥) ركب السيد عمر وصـــحبته الوجاقلية وأمـــامه الناس بالأسلحة والعدد والأجناد وأهل خان الخليلى والمغاربة شىء كثير جدا ومعهم بيارق ، ولهم جلبة وازدحام بحيث كان أولهم بالموسكى وآخرهم جهة الأزهر ٠٠٠ ورجع السيد عمر الى منزله وأخذ فى أسباب الاحاطة بالقلعة كالأول ، وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء ، ووقع الاهتمام فى صبحهـــا بذلك ، وجمعوا الفعلة والعربجيـــة وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم الى الجبل ، وأصعدوا مدافع ورتبوا عدة جمـــــال لنقل الاحتياجات والخبز ، وروايا الماء تطلع وتنزل فى كل يوم مرتين ، وطلع اليهم الكثـير من باعة الخبز والكعك والقهاوى وغير ذلك » (١) وهكذا أصبح الشعب يعيش فى ثورة ألف مظاهرها وحياتها وأحداثها ٠

ومن الأنصاف أن نذكر أن جهود الشعب قد فاقت بكثير جهود الجنود الألبانيين فى قتال خورشيد اذ تجلت فى الشعب فى هـــذه الفترة روح البذل والتصميم على بلوغ الهدف ، وأبدى سكان الحسينية والصليبة والرميلة والقرافة وغيرها من جهات القاهرة شجاعة مثاليه، فكان المقاتلون منهم يصعدون الى منارة مسجد السلطان حسن وهو على مقربة من القلعة ويرمون بقذائفهم على جنود خورشيد فيها ٠ كمـا كونوا من أنفسهم فرقا تتناوب السهر طوال الليل فى المواقع التى يحتلونها خشـــية أن يداهمهم جنـود خورشيد فى ظلمة الليل ٠ وكان عمر مكرم يمر على هذه المواقع فى العشى والابكار يثير فيهم الحماس وليكونوا على أهبة الاستعداد لرد أى عدوان غادر ٠ يقول أحد المؤرخين والسياسيين الفرنسيين الذين عاصروا هذه الثـورة الشعبية ولمسوا الدور القيادى لعمر مكرم فيها « كان من الصعب

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٣٢ ٠

أن يسود النظام وتنسق التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا حياة الفوضى وبين الأهالى الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومشقاته ، ولكن سد عمر مكرم هـــذا النقص من جميع النواحى بهمته ونشـــاطه وشجاعته ، فكان دائما دائب العمل واليقظة ، يحرك الجموع ويرتب مواقعهم ، ويبعث الحمية فى نفوسهم ، ويشعل فى كل لحظة نار الحماسة كلما خمدت جذوتها أو دب اليها دبيب الفتور • » (١)

واذا كان جنود محمد على قد اشتركوا مع المصريين فى حصار القلعة وخصصت لكل من الفريقين مواقع معينة يرابطون فيها ، فان الجبرتى يذكر ملاحظتين لاذعتين تكشفان عن دور الجنود الالبـــانيين فى النضال الشعبى المســـلح فاذا هو دور لا يشرف رجالا اتخذوا الجندية مهنة لهم ، وهو فى نفس الوقت صفحة مجد وفخار للشعب المصرى المناضل فى سبيل كرامته • قرر الجبرتى أن جنود محمد على كانوا يحـــاربون بفتور الى جانب المصريين لأنهم وضـــعوا فى اعتبارهم الأول أن غالبية الجنود الذين مع خورشيد كانوا من جنسهم ولذلك لم يشـــتدوا عليهم فى القتال • وذكر الجبرتى أن الجنـود الالمانيين طالبوا بمرتباتهم فاستمهلهم محمد على حتى يذعن خورشيد ويغادر القلعة ويضع محمد على يده على خزائن الحكومة فرفض الجنود وغادروا مواقعهم ، فما كان من الشعب الثائر الا أن ذهب الى هذه المواقع واحتلها ليسد الفراغ الذى تركه الجنود الالبانيون بهروبهم من الميدان • وفى هذا يقول الجبرتى « فى ليلة الثلاثاء سادس ربيع أول ١٢٢٠ (٤ من يونيو ١٨٠٥) تحرك العسكر وطلبوا العلوفة من محمد على ، فقال لهم ليس لكم عندى علوفة حتى ينزل أحمـــد باشا (خورشيد) من القلعة ونحاسبه وتأخذون علائفكم منه ، فلم يمتثلوا وتركوا المتاريس التى حوالى القلعة فتفرقوا وذهبـــوا ،

(١) Achille de Vaulabelle, t. 9, p, 220

فذهب جماعة من الرعية وتترسوا فى مواقعهم » وهكذا وقع على المصريين وحدهم منذ اوائل شهر يونيو ١٨٠٥ عبء حصار القلعة وكانوا يتلقون الاوامر من عمر مكرم الذى أصبح الزعيم والقائد • وكان يشرف على عمليات تموين الثوار وتقديم المعونات لعائلات المحاربين الذين انقطعوا عن أعمالهم وظلوا فى أماكنهم وراء المتاريس مصبحين وممسين وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار •

احتكاك بين المصريين والألبانيين :

ولم يكتف جنود محمد على بالتقاعس عن القتال فحسب بل انطلقوا ينهبون الاموال من الشعب استيفاء للمرتبات التى عجز محمد على عن دفعها لهم • فانتهزوا فرصة انصراف الجماهير الى محاصرة القلعة والمرابطة فى المتاريس وهاجموا منازل المصريين ينهبون ويسفكون الدماء ويرتكبون الآثام • ووقعت مناوشات بين الجماهير والجنود الالبانيين سقط فيها قتلى من الفريقين • وأطلت الفتنة برأسها ، وزاد من استفحالها امعان الالبانيين فى سياستهم العدائية ثم عبارات مثيرة كان يرددها الرؤساء الالبانيون تحريضا للجنود على قتل المصريين فكانوا « يقولون لهم بلسانهم (أى باللغة التركية) وبالعربى اضربوا الفلاحين ونحو ذلك ، وبالجملة فهى قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطباع معوجة منحرفة • » وبلغ من بلبلة الافكار واضطراب النفوس أن مضت ليالى المولد النبوى الشريف دون أن يقام حفل واحد • وشرع المصريون يقيمون متاريس أخرى فى الشوارع المؤدية الى الازهر ، وصعد الاولاد والنساء الى أسطح المنازل يقذفون الجنود بالحجارة وانصرف الرجال الى قتال الألبانيين فقتلوا منهم ستين جنديا •

وبرز فى ذلك الوقت مصرى يسمى حجاج الخضرى تميز بالبطولة والفدائية والايغال فى ذبح الجنود الالبانيين الذين يعتدون على الشعب • وكان حجاج شيخا لطائفة الخضرية فى القاهرة ويقيم

فى حى الرميلة بالقلعة واليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج وتسمى أيضا بوابة الخلاء وهى على مقربة من مسجد السيد عائشة ٠ وكون من سكان هذا الحى فرقة من الرجال ذوى بأس شديد كانوا يأتمرون بأمره ويخضعون لتوجيهات زعيم الثورة عمر مكرم ٠ وسنلتقى فى مواطن أخرى من هذا البحث بهذه الشخصية التى لم تلق تقديرا فى تاريخ مصر القومى وكان جزاؤها فى نهاية المطاف الشنق فى أغسطس ١٨١٧ بأمر محمد على بعد أن وطد أركان حكمه وقد أشاد الجبرتى فى مواضع كثيرة بمواقف حجاج الخضرى وبطولته وشجاعته (١) ٠

تدخل عمر مكرم لوقف الاحتكاك :

وابتهج خورشيد بوقوع هذه الفتنة بين الشعب وبين جنود محمد على حتى تنحرف الثورة عن أهدافها النبيلة وقد سعى محمد على الى عمر مكرم فى منزله يرجوه مطالبة الجماهير بالكف عن الاعتداء على جنوده وأعلن محمد على أن كل جندى يعتدى على أحد من الأهلين يضرب عنقه فوراً ٠ وهنا يبرز فضل آخر لعمر مكرم ٠ فتدخل لحسم الموقف تدخلا يقوم على الحذر والتيقظ ومسالمة الجنود المسالمين وضرب الجنود المعتدين مع الاستمرار فى محاربة خورشيد ٠ وأطلق عمر مكرم المنادين فى شوارع القاهرة يعلنون « حسبما رسم السيد عمر أفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم ، واذا تعرض لهم عسكرى بأذية قابلوه بمثلها ، والا فلا يتعرضوا له » ويتضح من منطوق هذا النداء أن سلطة الحكم فى أيام الثورة الشعبية قد انتقلت الى عمر مكرم

---

(١) أنظر بخصوص حجاج الخضرى :

الجبرتى ج ٣ ص ٣٣٢ ، ٣٣٤ - ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ٠ ج٤ ص ٢٧٩ ٠

وانظر أيضا محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج٣ ص ١١٣ - ١١٦ ٠

والعلماء وأن عمر مكرم كان المرجع لحل المشكلات التى تزاحمت فى تلك الأيام المجيدة ، وكان محمد على يعرف أن عمر مكرم هو عماد الثورة وأن الجماهير تستجيب لتوجيهاته ، فكان يتردد على دار عمر مكرم متوددا اليه ٠

والواقع أن عمر مكرم كان ، بفضل ما أوتيه من شجاعة واقدام ونشاط ، أعظم نفوذا على سكان القاهرة من سائر الزعماء والمشايخ٠ وقد جاء فى النشرة الاخبارية التى أذاعها الوكلاء الفرنسيون من القاهرة بتاريخ ٧ من يونيو ١٨٠٥ أن السكان الذين استجابوا لنداء عمر مكرم وحملوا السلاح واشتركوا فى أحداث الثورة قد بلغ عددهم أربعين ألفا ، قالوا عنهم انهم يطيعون السيد عمر مكرم طاعة عمياء وينفذون أوامره بحذافيرها حتى غدا عمر مكرم زعيم القاهرة كلها (١) ٠

وتنفيذا لأوامر عمر مكرم شرع القاهريون يقيمون المتاريس عند رءوس الشوارع لصد أى هجوم قد يقوم به جنود محمد على لنهب أموال الشعب ٠

وأراد خورشيد أن يعزز مركزه فى هذا الوقت العصيب فاستنجد بالجنود الدلاة ـ وكانوا فى قليوب ـ فأرسل اليهم « يطلبهم للحضور ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة واقامة لناموسها وناموس الدين ، وأن الفلاحين محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب » ، فما كان من رؤساء الدلاة الا أن أرسلوا هذا الخطاب الى محمد على الذى أرسله بدوره الى السيد عمر مكرم ، أما محمد فقد أظهر تقديره لموقف الدلاة ، فلما حضر رؤساؤهم الى القاهرة خلع عليهم محمد على الخلع والكساوى وعادوا الى قليوب ليرتحلوا منها لمحاربة الألفى ، ولكنهم انصرفوا عن محاربته « وأفحشوا فى نهب البلاد ونهب الأموال مالم يسمع بمثله ولم يتقدم نظيره » ٠

---

(١) وثيقة رقم ٣٧ ٠ Douin G., Mohamed Aly Pacha du Caire 1805-1807

وكان خورشيد قد استدعى على باشا السلحدار قائد الجيش العثمانى من المنيا فبلغ مشارف القاهرة وعسكر بجيشه فى مصر القديمة ، وعمل على استمالة الجنود الالبانيين حتى ينضموا الى خورشيد ووعدهم بدفع مرتباتهم المتأخرة فانضم اليه كثير منهم . وتمت اتصالات سرية بينه وبين خورشيد المحاصر فى القلعة . وكان يرسل اليه الخبز واللحوم والسكر والذخائر تنقلها الجمال من باب صغير فتحوه من ناحية عرب اليسار ، وفى خلال هذه الاتصالات السرية تم الاتفاق بين خورشيد باشا وعلى باشا السلحدار على أن يقوم كل منهما فى وقت واحد بهجوم مفاجىء على مواقع المصريين فتنهار مقاومتهم وتصبح الثورة أثرا بعد عين .

عمر مكرم يفسد مكيدة حربية

ودبر على باشا سلحدار خورشيد مكيدة حربية كى يضمن نجاح هذا التدبير فعهد الى اثنين من كبار قواده ـ رجب أغا وسليمان أغا ـ بأن يكتبا خطابا الى عمر مكرم وباقى المشايخ ذكرا فيه أنهما يعتزمان الحضور الى القلعة لاقناع خورشيد بالكف عن المقاومة وانهاء هذا النزاع المستعر ، وطلبا الى عمر مكرم أن يصدر أوامره الى المصريين المرابطين فى المتاريس وسائر النواحى باخلاء الطريق لهما وألا يتعرض أحد منهم لهما بسوء . وارتاب عمر مكرم فى حقيقة أهداف هذين القائدين من ارسال هذا الخطاب واشتم منه الخدعة . وما لبث أن تحقق حدسه اذ حضر اليه بعد الفجر رجل مخلص وأطلعه على مابيته القائدان . فأرسل عمر مكرم نداء عاجلا الى الثوار يأمرهم بالتيقظ والاستعداد وعدم مبارحة مواقعهم ، ولم يمض وقت طويل حتى شاهد الثوار قافلة تتكون من ستين جملا تجد فى سيرها وتحمل الذخائر من جيش على باشا السلحدار فخرج اليها حجاج الخضرى ومعه أهالى الرميلة واستولوا على القافلة وقتلوا جنديين وأسروا ثلاثة وفر الباقون . وحضر الثوار بالأسرى ورأس القتيلين الى منزل عمر مكرم فأرسلهم الى محمد على الذى أمر بقتل

الأسرى ، وفى نفس الوقت أخذت حامية القلعة تقذف المدينة بقنابل مدافعها وترميها بأدوات حارقة ورد عليهم الثوار • واستمر الضرب متبادلا بين الفريقين مدة أسبوع وركزت حامية القلعة قذائفها على حى الأزهر والأزبكية حيث منزل محمد على ووقعت خسـائر فى الأرواح والممتلكات ، وجدير بالذكر أن الجبرتى قرر أن الرعب لم يعرف طريقه الى قلوب المصريين ، لأنهم اعتادوا سماع قصف المدافع ومشاهدة القنابل وهى تتساقط عليهم من أيام الفرنسيين ، ولذلك ظلت روح الثوار عالية ولم يتزحزحوا عن مواقعهم وضيقوا الحصار على جنود خورشيد حتى ضاقت عليهم أرض القلعة بما رحبت وتصدى الثوار للمحاولات المتكررة التى قام بها جنود خورشيد للتسلل الى المدينة من أجل الحصول على ماء الشرب ومواد التموين ، وأجبروهم فى كل مرة على الارتداد على أعقابهم الى القلعة فاشلين •

ومنذ ١٣ يونيو كانت مدافع القلعة تلقى قنابلها صوب الجهات التى توجد بها دار السيد عمر مكرم والشيخ السادات ومحمد على (١) وأرسل وكيل محمد على الى السيد عمر مكرم يقترح عليه نقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون ـ وهى احـدى القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة ـ وتركيب هذا المدفع عند باب الوزير لضرب القلعة ، لأن قذائف هذا المدفع أشد فتكا من المدافع التى كان يستعملها الثوار وأرسل عمر مكرم الحمالين الذين استخدموا الأبقار فى سحب هذا المدفع الضخم واستغرقت عملية نقله يومين • ولما تم تركيبه واعداده استخدمه الثوار فى ضرب القلعة وشعرت حاميتها بشدة قذائفه وفتكه • فنزلت قوة من جنود خورشيد من القلعـة تريد تدميره أو سد فلوته فضرب المصريون على أفراد القوة وقتلوا قائدها ومعه آخر وأخذوا أسلحتهما ورأسيهما وذهبوا بها الى السيد عمر مكرم جريا على العرف السائد وقتذاك •

---

(١) وثيقة رقم ٤١ فى Douin G., Mohamed Aly, ouvr. cit.,

الفصل التاسع

انتصار الشعب وترحيل خورشيد

عمر مكرم يفوت على محمد الألفى فرصة دخول القاهرة

وبجانب الدور القيادى الذى قام به عمر مكرم فى توجيه النضال الشعبى المسلح لتأييد الثورة نجد أنه أدى أيضا دورا سياسيا تعددت صوره ومظاهره مستهدفا نفس الغرض . كان محمد الألفى بك قد زحف بقواته نحو القاهرة حين ترامت اليه أنباء الثورة واستقر فى المنصورية قرب الاهرام ، وأرسل خطابا الى كل من عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى ومحمد على يطلب جهة يستقر فيها مع أتباعه ، فأشاروا عليه بأن يختار مكانا «يرتاح فيه» الى أن تهدأ العاصفة ، وقد استقر فى جهة « الطرانة » (١) يترقب الأحداث ويتحفز للتدخل .

كان فى استطاعة الألفى وهو أكبر وأقدر الأمراء المماليك أن يحتل القاهرة فى ذلك الوقت العصيب وأن يحقق لنفسه مغنما . وكان عمر مكرم يدرك على ضوء التجارب المريرة أن عودة المماليك لحكم البلاد معناها عودة الفوضى واشتداد المظالم على الشعب الكادح ، وكان عمر مكرم فى ذلك الوقت مطمئنا الى وعود محمد على له بالتزام العدل وتوفير الأمن للجماهير والرجوع الى الزعماء فى

---

(١) الطرانة تقع على الشاطىء الغربى لفرع رشيد على مقربة من وادى النطرون وتبعد عن القاهرة أربعين ميلا . على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٣٤

مشكلات الحكم ، ولذلك اتجه تفكير عمر مكرم الى صرف الألفى عن القيام بأية محاولة عسكرية حتى لا يزداد الموقف تعقيدا ، فأكثر من الكتابة اليه فى هذه الفترة وأدخل فى روعه أن الثورة المندلعة فى القاهرة لا تستهدف شيئا سوى مصلحة الألفى فهى تعمل جاهدة لاخراج جنود خورشيد ، وقد نعتهم عمر مكرم بأنهم سفلة القوم ، وعند ما يتم طردهم يصبح الطريق ممهدا أمام الالفى لدخول القاهرة وتولى زمام الحكم ، وأضاف عمر مكرم أنه يتوسم فى الألفى الخير والعدل والصلاح • وقد آمن الألفى بهذا الكلام وكان يرسل الى عمر مكرم الأموال لينفقها على المقاتلين • وهكذا نجح عمر مكرم فى تعويق الألفى عن القيام بأى اجراء عسكرى كان من المحتمل أن يعصف بالثورة •

عمر مكرم ينظم استقبالا شعبيا لمندوب السلطان

ومن مظاهر الدور السياسى الذى قام به عمر مكرم لانجاح الثورة انه نظم استقبالا شعبيا لمندوب السلطان ، فقد تلقت القاهرة فى ٢٩ من يونيو ١٨٠٥ أنباء بوصول قابجى (١) هو صالح أغا الى الاسكندرية « وعلى يده جوابات بالراحة » وفسرها عمر مكرم والزعماء بأنها مرسوم من السلطان بعزل خورشيد وتعيين محمد على واليا على مصر ، وهو تفسير لم يكن يحمل الحقيقة كلها كما سنرى بعد قليل • وتناقلت الجماهير هذه الأنباء وغمرتها موجة من الابتهاج واعتبرت قدوم مندوب السلطان ومعه مثل هذا المرسوم نصرا لارادة الشعب وانهاء لحالة الحرب القائمة • « فحصلت ضجة فى الناس وفرحوا ورمحوا بطول ذلك اليوم وعملوا شنكا تلك الليلة التى هى

(١) القابجى ضابط موفد فى مهمة رسمية من قبل رئيس الدولة ، ويقدم عن طريق البحر • أما اذا حضر عن طريق البر مارا ببلاد الشام فيطلق عليه ططرى •

ليلة السبت (٢٩ - ٣٠ من يونيو ١٨٠٥) ورموا سواريخ فى سائر النواحى وضربوا بنادق وقرابين بالازبكية وخارج باب الفتوح وباب النصر والمدافع التى على أبراج الابواب » ولما سمع خورشيد وجنوده فى القلعة وعلى باشا السلحدار وجنوده فى مصر القديمة هذه الطلقات فسروها تفسيرا يتمشى مع آمالهم ، فظنوا أن الفتنة قد أطلت برأسها من جديد وأن الحرب قد استؤنفت بين المصريين وبين جنود محمد على ، فأطلقت مدفعية القلعة قنابلها كما تحرك على باشا بقواته من مصر القديمة • وقد تصدى للأخير سكان الرميلة بقيادة حجاج الخضرى وتبادلوا اطلاق النيران وكان عمر مكرم قد خف الى حجاج ، وانتهت هذه المعركة بهزيمة السلحدار وانسحابه بجنوده•

سافر مندوب السلطان من الاسكندرية الى رشيد ليبحر منها فى النيل الى القاهرة ، وكان قد قدم معه من الآستانة سلحدار الصدر الاعظم • وأعد عمر مكرم ترتيبات واسعة لاستقبال مندوب السلطان استقبالا شعبيا حافلا حتى يقف المندوب السلطانى عن كثب على مدى اتساع الثورة الشعبية واصرار الجماهير على عزل خورشيد من منصبه وتعيين محمد على مكانه • وكانت الترتيبات التى وضعت على النسق الآتى :

أولا : تخرج القاهرة على بكرة أبيها رجالها وسيداتها وصبيانها للترحيب به •

ثانيا : يجتمع المشايخ والاعيان فى دار محمد على حيث يتجه المندوب السلطانى اليه وحيث تنتهى عند هذه الدار مسيرة المواكب الشعبية •

ثالثا : يظل احمد خورشيد باشا حبيس القلعة •

وتنفيذا لهذه الترتيبات أرسل محمد على جنودا لحراسة مندوب السلطان فى سفره خوفا من تعرض المماليك أو العربان أو الجنود الدلاة له فى الطريق ، كما « سافر جماعة من المتعممين هم

السيد محمد الدواخلى وابن الشيخ الأمير والشيخ بدوى الهيثمى وابن الشيخ العروسى لاستقباله خارج القاهرة واصطحابه • »
اما السيد عمر مكرم فقد أرسل باشجاويش نقابة الاشراف نيابة عنه •

وفى الصباح الباكر لليوم المحدد لوصوله وهو ٩ من يوليو ١٨٠٥ خرج العامة زرافات ووحدانا ووقفوا على جانبى الشوارع وتحت السقائف ، وخرجت جماعات منهم خارج باب النصر وباب الفتوح ، يحمل بعضهم البنادق ويحمل البعض الآخر الطبول ، وازدحمت بهم الطرقات ازدحاما شديدا كأنهم جراد منتشر ، ووصل مندوب السلطان وسلحدار الصدر الاعظم الى زاوية الدمرداش حيث تخلفا لتناول طعام الافطار واحتساء القهوة ، ثم ركبا وبدأت مسـيرة مواكب الطوائف بأعلامها وشاراتها وطبولها ، يتقدمها وكيل محمد عـلى وكبار الضباط الالبانيين والجنود ، ثم أهالى بولاق ومصر القديمة وسكان نواحى باب الشعرية والحسينية وخط الخليفة ، والقرافتين والرميلة والحطابة والحبالة ، وعلى رأس هذه الحشود الشعبية حجاج الخضرى وبيده سيف مسلول ومعه ابن شمعة شيخ الجزارين ، ثم حملة الطبول والزمور • واستمر مرور هذا الموكب ثلاث سـاعات حتى توقف عند دار محمد على فى الازبكية • وكان المشايخ والاعيان مجتمعين فى احدى قاعات الدار فخفوا لاستقبال الوافدين الكبيرين• وبعد استراحة قصيرة قرىء المرسوم الذى يحمله المندوب السلطانى « ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جده سابقا ووالى مصر حالا ابتداء من عشرين ربيع أول ١٢٢٠ (١٨ من يونيو ١٨٠٥) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن احمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه الى الاسكندرية بالاعزاز والاكرام حتى يأتيه الامر بالتوجه الى بعض الولايات • » وأفردوا للمندوب السلطانى دار أحـد كبار التجار فى حى الازبكية ، كما نزل سلحدار الصدر الاعظم فى دار

محمد المحروقى • وفى اليوم التالى « ركب عمر مكرم فى جمع كثير من العسكر من أولاد البلد والمغاربة والصعائدة والكل بالأسلحة » وذهب الى دار محمد على حيث قضى معه بعض الوقت ، ثم قصد الى حيث يقيم كل من المندوب السلطانى وسلحدار الصدر الاعظم للتحية •

المندوب السلطانى يحمل مرسومين متناقضين :

كان الترتيب الحافل الذى نظمه عمر مكرم لاستقبال مندوب السلطان سببا فى رجحان كفة محمد على ، اذ كان صالح أغا مندوب السلطان ـ كما تجمع الوثائق الانجليزية والفرنسية ـ يحمل معه مرسومين مختلفين تماما • كان المرسوم الأول يقضى بتثبيت خورشيد فى منصبه واخراج محمد على من مصر • وكان المرسوم الثانى ينص على تعيين محمد على واليا على مصر ونقل خورشيد منها الى منصب آخر يحدد فيما بعد • وترك الباب العالى للمندوب السلطانى أن يبرز أحد المرسومين على ضوء تقديره للموقف فى مصر • ويقول ميسست Misset قنصل بريطانيا العام ان صالح أغا قد تسرع فى السفر الى القاهرة ، وبذلك وضع نفسه تحت نفوذ محمد على والاهالى الذين كان خمسة عشر ألفا منهم مسلحين بالبنادق وثلاثون ألفا مسلحين بالنبابيت ، فلم يجد صالح أغا مندوحة عن أن يقدم لديوان القاهرة المرسوم الذى فى صالح محمد على •

ولما أرسلت فى ١١ من يوليو ١٨٠٥ الى أحمد خورشيد صورة المرسوم الذى أبرزه صالح أغا رفض الاذعان وامتنع عن مغادرة القلعة وقال « أنا متول بخطوط شريفة وأوامر منيفة ، ولا أنعزل بورقة مثل هذه • وطلب الاجتماع بصالح أغا والسلحدار يخاطبهم مشافهة ، وينظر فى كلامهم وكيفية مجيئهم ، فلم يرضوا بطلوع

المذكورين اليه . » (١) وقرر خورشيد أنه لم يتلق ردا على المكاتبات الرسمية التى أرسلها الى الباب العالى فى الآستانة بخصـــوص الموقف الداخلى فى مصر . والواقع أن خورشيد اســتهدف من هذا الرفض كسب الوقت ريثما يتسنى له الوصول الى اتفاق مع الامراء المماليك على القيام بهجوم مشترك متعدد الجبهات على القاهرة لاخماد الحركة الشعبية وطرد محمد على كلية من القاهرة بل من مصر . ولما كان خورشيد معتصما بالقلعة وكان يتعذر عليه الاتصال برؤســاء المماليك فقد عهد بهذه المهمة الى على باشا السلحدار وكان مرابطـا بجيشه فى الجيزة . (٢)

الخلاف بين عمر مكرم وبين شيخ الازهر :

وفى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل الثورة وقع انقســـام خطير فى الرأى بين السيد عمر مكرم من ناحية وبين الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر والشيخ محمد الأمير وغالب المتعممين من ناحية ثانيـــة . وما كان ينبغى أن يقع هذا الانقســـام لو تذرع الأخيرون بقسط قليل من الأناة والمصابرة وبعد النظر ، ولكنهم تعجلوا الامور وظنوا أنها استقرت بصدور المرسوم السلطانى بخلع خورشيد وتعيين محمد على واليا على مصر ، وأنه تأسيسا على ذلك يجب على الشعب أن يلقى السلاح ويستأنف حياته العادية وأن تفتح الحوانيت وتغشى الأسواق وتستأنف الدراسة فى الأزهر . أما انزال خورشيد من القلعة وحمله على احترام مرسوم السلطان فأمر يختص به الوالى الجديد محمد على ينفذه بالصورة التى يراها مناسبة

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٣٧ .

(٢) وثيقة رقم ٥٤ مؤرخة فى ١٥ يوليو ١٨٠٥ فى
Douin Mohamed Aly, Pacha du Caire, ouvr. cit., pp. 58-59

بدون اشراك الشعب فى محاربة الوالى المعزول • ولكن كان لعمر مكرم رأى آخر على النقيض من ذلك تماما كان يرى أن تظل شعلة النضال متقدة لا تخمد فى نفوس أفراد الشعب ، لأن الموقف ازداد تعقيدا بل خطورة ، فالوالى العثمانى المعزول أحمد خورشيد مستميت فى التمسك بالبقاء فى منصبه ولا يرضى به بديلا • وقد ضرب بمرسوم السلطان عرض الحائط ، وبدا فى صورة الوالى الثائر على السلطان ، وهو يعمل على كسب الوقت لتدعيم مركزه • كما كان يعلق أعذب الآمال على معاونة المماليك له بعد أن اصبحوا حلفاءه الجدد وزحفوا زحفا خاطفا من الصعيد عقب استدعاء خورشيد لعلى باشا السلحدار بجيشه من المنيا • وقد بلغ المماليك الجيزة وعبرت قوات منهم نهر النيل الى الضفة الشرقية ووصلوا الى طره وهدموا قلعتها « وساووها بالارض » وكان وصول المماليك نذيرا بانقلاب ميزان القوى لصالح خورشيد ، فقد أصبح لديه ثلاث قوات : القوة المعسكرة بالقلعة ، وجيش على باشا السلحدار فى مصر القديمة والجيزة ، وقوات المماليك • وانساح الاخيرون أيضا فى بلاد الوجه البحرى • وقد ينجح خورشيد بتعاون هذه القوات الثلاث وتنسيق الخطط بينها فى سحق الثورة الشعبية والبقاء فى منصبه ويضطر السلطان الى التراجع وقبول الامر الواقع جريا على السوابق التى وقعت فى مصر من قبل • يضاف الى ذلك أن المماليك وجيش السلحدار قد فرضوا حصارا على القاهرة فامتنع وصول الاقوات اليها ، ولاح شبح المجاعة يتهدد المدينة • واستأنف الجنود الألبانيون والدلاة أعمال السلب والنهب والقتل • ولهذا رأى عمر مكرم أن يستمر الشعب شاهرا سلاحه ماضيا فى حصار خورشيد حصارا صارما بغية تصفية الموقف مع خورشيد تصفية حاسمة سريعة حتى لا يتعرض الشعب لمحن جديدة سواء على يد خورشيد أو المماليك •

نعود الى الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وغالب المتعممين

فنقول انهم لم يقنعوا بالمجـــاهرة برأيهم بل نقلوه الى محمد على فاستجاب الى رغبتهم « وركب الاغا ـ محافظ القاهرة ـ وصحبته بعض المتعممين ونادوا فى المدينة بالامن والامان والبيع والشراء وأن الناس يتركون حمل الاسلحة بالنهار • واذا وقع من بعض العساكر قباحة رفعوا أمره الى محمد على ، وان كان من الرعية رفعوه الى بيت السيد عمر النقيب ، واذا دخل الليل حملوا الأسلحة وسهروا فى أخطاطهم على العادة وتحفظوا على أماكنهم • » (١) وما ان سمع أفراد الشعب هذا النداء حتى استنكروا ما جاء به ورموا المشايخ بالجبن وقصر النظر وتساءلوا عن معنى هذا النداء ، وقالوا مستنكرين «اننا حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفراء بالليل ، والله لا نترك حمل أسلحتنا ، ولا نمتثل لهذا الكلام ولا هذا النداء • » وهكذا تكشفت فى الشعب المصرى فى أوقات الشدائد صلابة فى عزيمته وقوة فى أخلاقه وثقة فى نفسه من أجل الحفـــاظ على كرامته فقد سلك الشعب بداية الطريق ولما اتضحت له الرؤيا صمم على الاندفاع بأقصى طاقاته لتحقيق هدفه مهما تكبد فى هذا السبيل من مشـــقة وعناء وتضحيات •

وكان مما استرعى النظر استجابة محمد على السريعة فى تنفيذ رغبة فريق الزعماء الذين نادوا بتجريد الشعب من سلاحه • وليس من العسير تفســـير موقف محمـــد على • فعلى الرغم من أن مصلحته الشخصية كانت تقتضى انهاء الأزمة بسرعة وترحيل خورشيد من مصر كلية ، فقد كان حريصا على نزع الأسلحة من الجماهير حتى لا تتأصل فى نفوس أفراد الشعب روح القتال ، لأن حركات الكفاح الشعبى تلهب الشعور الوطنى وتشكل دعامة قوية من دعائم الحياة القومية فى مصر • ومحمد على لا يريد لهذه الحياة نماء ولا وجودا لأنه كان ينظر الى المدى البعيد حين يخلو له حكم مصر فيمضى فى حكم الشـــعب

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٣٧ •

حكما استبداديا مطلقا ومطمئنا الى أنه لا يقابل بمثل هذه الروح ، روح النضال والمعارضة • ولهذا أصدر محمد على الأوامر « ومر الأغا ببعض العامة المتسلحين فقبض عليهم وأخذ سلاحهم ، فازدادوا قهرا، وباتوا على ذلك » وفى الصباح ذهبوا الى عمر مكرم وراجعوه فى مسألة القاء السلاح ، فكان صريحا معهم اذ كاشفهم بحقيقة الموقف، وقال لهم « ان هذا الأمر على غير مراده » ، وألقى التبعة على الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والمتعممين •

وعقد اجتماع كبير فى دار عمر مكرم ضم العسكريين الألبانيين وتداولوا فى الموقف على ضوء المعلومات التى لديهم وهى أن خورشيد يراسل المماليك سرا يبتغى الاستعانة بهم ، وقرروا المبادأة بانهاء مسألته بكل حزم وسرعة حتى يتفرغوا بعد ذلك لمحاربة المماليك • ولكنهم رأوا أن يتيحوا لخورشيد فرصة أخيرة كى يراجع نفسه ويجنح الى السلم ، فارسلوا اليه فى القلعة يطلبون منه مغادرتها ، فاذا رفض جدوا فى قتاله •

وقد استجابت قلة من الأهلين لنداء المشايخ ففتحوا المحلات وذهب المشايخ الى الجامع الازهر « وقرءوا بعض الدروس ففترت همم الناس ورموا الأسلحة وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم اياهم » ، وقد أثبتت الأحداث التى تتابعت سراعا أن عمر مكرم كان على حق فى موقفه ، فقد انتهز الجنود فرصة نزع السلاح من الشعب وشمخوا بأنوفهم عليهم ، ثم عاودوا أعمال السلب والقتل ، وضج الناس بالشكوى ، وذهبوا مرة أخرى الى السيد عمر مكرم فأحالهم الى الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير « فهما اللذان أمرا الناس برمى السلاح • فلما زادت الشكوى نادوا فى الناس بالعود الى حمل السلاح والتحذر » •

وخشى محمد على أن يدخل المماليك القاهرة بعد أن بلغوا المعادى وطره ، فخرج فى ١٦ من يوليو على رأس قوة كبيرة من جنوده ومعه حسن باشا وأخوه عابدى بك الى مصر القديمة فتقهقر المماليك

وعبروا النيل الى الجيزة ، وانضموا الى جيش على باشا السلحدار ، وترامى الفريقان بضرب المدافع والقنابل من ضفتى النيل ، وانتهز الجنود الدلاة فرصة خروج الجنود الألبانيين من القاهرة لمحاربة المماليك فزحفوا على بولاق وهجموا على البيوت يخرجون سكانها ويرتكبون جرائمهم المنكرة • وذهب كثير من سكان بولاق الى عمر مكرم يشكون اليه أفعال الدلاة ، فأرسل عمر مكرم الى وكيل محمد على ليردهم عن جرائمهم « فلم يمتنعوا واستمروا على فعلهم وقبائحهم » •

السلطان يرسل حملة بحرية الى مصر :

وفى هذا الجو المشحون بشتى عوامل الاضطراب والذى استأنف فيه الشعب المصرى نضاله بمحاصرة خورشيد فى القلعة والمرابطة فى المتاريس وعديد المواقع وردت الأنباء الى القاهرة فى ١٩ من يوليو ١٨٠٥ بوصول حملة عثمانية بحرية بقيادة القبطان عبد الله رامز باشا ومعه ٢٫٥٠٠ جندى تحملهم وحدات من الأسطول العثمانى « فاجتمع المشايخ واتفقوا على كتابة عرضحال يرسلونه اليه مع بعض المتعممين ، ثم اختلفت آراؤهم فى ذلك • » وقد صرفوا النظر عن ارسال وفد منهم انتظارا لوصول سلحدار القبطان رامز باشا ، وكانوا قد علموا فى ٢٣ من يوليو بأنه فى طريقه الى القاهرة، وقد بلغها فى ٢٤ من يوليو وكان معه خطابان •

كان الباب العالى قد قرر وضع حد للفوضى التى كانت تزداد حدة وعنفا يوما بعد يوم فى مصر ، وخشى أن ينتهز المماليك هذه الفرصة فيوحدوا صفوفهم وينتزعوا مصر كلية من الدولة العثمانية • وكانت الحركة الوهابية فى بلاد العرب تنتقل من نصر الى نصر حتى كاد الحجاز يسقط كله فى ذلك الوقت فى أيدى الوهابيين ، وعجزت الحكومة فى مصر فى غمار هذه الفوضى عن تلبية طلبات الباب العالى

المكرورة بارسال نجدات عسكرية الى الحجاز • ولهذا قرر الباب العالى أن يرسل - بعد حوالى شهر من وصول المندوب السلطانى - مرسومين جديدين يؤكدان المرسومين السابقين وأن يكون ارسال المرسومين الجديدين مقرونا بارسال حملة حربية بقيادة رامز باشا من قبيل الارهاب وليحمل جميع الأطراف المعنيين فى مصر على تنفيذ ما جاء بهما • كان المرسوم الأول موجها الى « أحمد باشا المخلوع » يأمره بالنزول فورا من القلعة والتوجه الى الاسكندرية • أما المرسوم الثانى فموجه الى محمد على « بابقائه فى القائمقامية حيث ارتضاه الكافة والعلماء والوصية بالسلوك والرفق بالرعية » كما تضمن هذا المرسوم أمرا بانفاذ حملة عسكرية من مصر الى الحجاز لمحاربة الوهابيين وتزويد هذه الحملة بكل حاجياتها من ذخائر ومؤن •

ولما بلغ سلحدار قبطان باشا القاهرة أظهر خورشيد امتثاله لأوامر السلطان وطلب مقابلة السلحدار للتحدث معه، فصعد اليه فى القلعة مع بعض من الرفاق ، فنفى أحمد خورشيد باشا عن نفسه تهمة العصيان ، وقال انه مدين بخمسمائة كيس لعمر بك الأرنؤودى وصالح أغا قوش ، وانه اقترض هذا المبلغ لدفع مرتبات الجنود المحاصرين معه فى القلعة واستطرد فقال « ولم يبق عندى شىء سوى ما على جسدى من الثياب ، وقد أخذ العسكر المحاربون موجوداتى جميعا » •

عمر مكرم يساعد فى اجراءات ترحيل خورشيد ويستضيفه فى داره

ودارت اتصالات ومحادثات متثاقلة متباطئة بين خورشيد ومحمد على والسلحدار ومن اليهم من كبار العثمانيين دفع محمد على خلالها خمسمائة كيس الى خورشيد ، واتفقوا على أن يغادر الأخير القلعة فى ٥ من أغسطس ١٨٠٥ ، واستعانوا بالسيد عمر مكرم

الذى جمع لهم مائتى جمل لحمل أمتعة خورشيد من القلعة الى بولاق ٠ وفى ٦ من أغسطس نزل خورشيد من القلعة نهائيا وصحبه وكيل محمد على وعمر بك الأرنؤودى وصالح أغاقوش ٠ وكان عمر مكرم خصما شريفا قبل عن طيب خاطر أن يستضيف فى داره ببولاق أحمد خورشيد باشا الوالى المعزول ليحميه من غضب الشعب ريثما تتم عملية شحن أمتعته فى السفن (١) ، ولكنه كان فى نفس الوقت حريصا على عدم تعريض الشعب لانتقام الجنود الذين كانوا مع خورشيد فى القلعة لأنهم تغلغلوا فى داخل المدينة وانتشروا فى أحيائها ٠ فأطلق السيد عمر مكرم المنادين يطلبون من سكان القاهرة « الاستمرار على التحرز والسهر وضبط الجهات ، فان القوم لا أمان لهم » (٢) ٠

رحيل خورشيد وانتصار الشعب

وفى ١١ من أغسطس ١٨٠٥ غادر خورشيد دار عمر مكرم متجها الى ميناء القاهرة النهرى فى بولاق وأقلعت السفن تحمله مع حريمه وأتباعه وأمتعته ٠ ويعلق الجبرتى تعليقا لاذعا على أخلاق بعض أعوان خورشيد ـ والأخير يغادر مصر ـ وطمعهم فى البقاء فى البلاد والاستمتاع بخيراتها وغناها ، فيقول « وفى يوم الاحد نزل أحمد باشا المخلوع الى المراكب من بولاق ، وسافر الى جهة بحرى بعياله وأتباعه المختصين به ، وتخلف عنه كتخداه (وكيله) وعمر بك وصالح قوش والدفتردار وكثير من أتباعه ، ولم يسهل بهم مفارقة أرض مصر وغنائمها مع أنهم مجتهدون فى خرابها ٠ »

وبرحيل خورشيد توج الشعب كفاحه باعلاء كلمته واملاء ارادته على الدولة العثمانية وانتصاره على أحمد خورشيد ٠ وكان

---

(١) Mengin ovr cit., t. I. p. 180.

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٣٤٠ ٠

في مقدمة الاسباب التى أرغمت خورشيد على الاذعان هو نشاط المقاومة الشعبية واصرار عمر مكرم زعيم الثورة على عزله ، ثم صدور أمر الباب العالى الذى اعترف ـ على عادته بالأمر الواقع ـ بتثبيت محمد على فى مصر ومطالبه خورشيد بالنزول من القلعة ثم تعيينه واليا على سالونيك • لقد قامت ثورة ١٨٠٥ بارادة الشعب واعتمدت على الشعب ونجحت بقوة الشعب • وكان هناك زعماء مصريون أسهموا فى تدبيرها واشعال جذوتها ، ولكن من الانصاف أن نذكر أن عمر مكرم كان هو أبرز الزعماء بلا منازع ، فقد كان هو عماد الثورة وروحها وموجهها، فهو الذى دعا اليها ونظمها ودعمها وجنبها أسباب الفشل فى أكثر من مرة بفضل تيقظه واقدامه واخلاصه • وهو الذى دعا الشعب الى مواصلة الجهاد وواصل المرور غدوا وعشيا على مواقع الثوار فى سائر النواحى والجهات يثير فيهم الحماس وينظم المقاومة أحسن مايكون التنظيم ، وكان هو المرجع فى حل المشكلات التى واجهت الثوار حتى أصبحت هذه الثورة الشعبية مقرونة باسم عمر مكرم • وفى هذا يقول الجبرتى (١) « وانتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا » فمحمد على مدين للشعب المصرى ولكبير الزعماء عمر مكرم بتوليه حكم مصر • وقد عرف قيمة القوة الشعبية والزعامة الشعبية وعمل على الافادة منها الى حين • وكان عمر مكرم هو أعظم شخصية قيادية ظهرت من بين صفوف الشعب فى مطلع القرن التاسع عشر •

خصائص ثورة ١٨٠٥

كانت ثورة ١٨٠٥ والكفاح المسلح الذى حمل الشعب شعلته أربعة أشهر حدثا سياسيا فريدا فى تاريخ مصر القومى • فلأول مرة يقوم زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم بثورة يطيحون فيها

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٣٢ وهو يترجم لمحمد الالفى بك •

بأحد الباشوات العثمانيين اتسم عهده بالاسراف فى الظلم ويسندون الحكم الى حاكم وقع عليه اختيارهم بمحض رغبتهم . ومعنى هـذا ان الزعماء والمشايخ لم يقنعوا بالدور التقليدى الذى كانوا يقومون به من قبل وهو بذل الوسـاطة بين الحاكم والشعب بل « تزعموا المحكومين وخاطبوا الحاكمين بلهجة شديدة الجرأة بعيدة المعنى، وهذا هو البعث الجديد لمصر ، وهو سر هذه القوة التى بلغتها فى السنوات الاولى من القرن التـاسع عشر وهـو عمـاد محمـد على وسبب انتصاراته » (١) ولم يسبق للمشايخ الاشتراك فى الانقلابات التى وقعت خلال عهد الانقلابات السياسية (١٨٠١ـ١٨٠٥) أما قبل قدوم الحملة الفرنسية فكان الأمراء المماليك هم الذين يعزلون الباشا العثمانى دون أن يكون لزعماء الشعب دور فى هذا العزل . وبذلك يظهر فى انقلاب مايو ١٨٠٥ العنصر المصرى الوطنى الأصيل .

ولم تكن هذه الثورة مقصـورة على استبدال حاكم بحاكم بل كانت اعلانا بحق الشعب المصرى فى تقرير مصيره بانتخاب الحـاكم ويزيد من أهمية هذه الثورة أن اختيار عمر مكرم لمحمد على كان مقرونا بشروط أساسية هى التزام العدل وعدم انشاء أية ضريبة بدون موافقة مسبقة من الزعمـاء على سنها والرجوع اليهم فى شـئون الحكم وهى مبادىء دستورية هامة وكان تقريرها كسبا كبيرا للشعب المصرى ، وارتفع عمر مكرم فى هذه الثورة بطلا مصريا رفع صوت الشعب عاليا بحقه فى الحياة الكريمة . وقد ترتبت على هذه المبادىء نتيجة هامة هى اسهام الزعماء وعلى رأسهم عمر مكرم فى مواجهة ومعالجة الأزمات والأحداث الخطيرة التى تلاحقت بعد ذلك مثل أزمة نقل محمد على الى سالونيك والحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ والوسـاطة التى طلبها محمد على منهم لانهاء خصومة المـاليك له . كما كانت هناك نتيجة أخرى هى أنه لما أراد محمد على أنه يتحلل من الالتزام

---

(١) دكتور حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص ٩٨ .

الذى يقضى عليه بطلب المشـورة من الزعمـاء والرجوع اليهم فى شئون الحكم تمسك عمر مكرم بالميثاق الذى واثقه عليه عند مبايعته فى ١٣ من مايو ١٨٠٥ ، فحدث صراع حول هذا المبدأ بين عمر مكرم ومحمد على أدى الى وقوع الصدام بينهما ٠

وتبدو روعة ثورة ١٨٠٥ فى انها كشفت عن معـدن الشعب المصرى وطبيعته الأبية ، فما ضعف وما وهن وما اسـتكان أمام ظلم الحكام العثمـانيين بل قابل التحدى بتحـد مثله ، وصمم على مواجهة الباشا الظالم أحمد خورشيد وعقد العزم فى غير تردد على تحقيق مطلبه بعزله من منصبه باستخدام القوة مهما كانت التضحية وهكذا تجلت فى الشعب ابان نضاله المسلح ضد خورشيد أروع صور الكفاح والفدائية والبذل ، وظهرت فيه روح العزة والكرامة فى أسمى درجاتها وكان « الفقير من العامة يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا » (١) ويقول الدكتور محمد صبرى تعليقا على ثورة مايو ١٨٠٥ ان سكان القاهرة الذين قاموا بثورتين عنيفتين ضد الحكم الفرنسى قاموا بثورة ثالثة ضد الباشا المعين من قبل السلطان وأظهروا صلابة وعنادا وكان عمر مكرم يحض الجماهير على المضى فى الحرب ويعمل جاهدا على حفظ النظام فى القاهرة (٢) ٠

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ٠

(٢) Dr. M. Sabry, ouvr. cit., p. 26

الفصل العاشر

سؤالان يفرضان نفسيهما فرضاً

بقى سؤالان يتبادران الى الذهن ، بل انهما يفرضان نفسيهما فرضا فى هذا البحث بعد أن استعرضنا أحداث الثورة الشعبية فى سنة ١٨٠٥ ودور عمر مكرم فيها . وهذان السؤالان هما :

أولا : لماذا لم يناد الشعب المصرى بعمر مكرم أو بزعيم مصرى آخر واليا على مصر ؟

ثانيا : لماذا اتجه اختيار عمر مكرم الى محمد على بالذات ليكون واليا على مصر ؟

أما عن السؤال الأول فقد كانت الثورة الشعبية موجهة ضد أحمد خورشيد باشا بصفته الشخصية على أساس أنه أسرف اسرافا بعيدا فى الظلم ، ولم تكن الثورة موجهة ضد السلطان العثمانى . وتجرنا هذه النقطة الى مناقشة المسألة التى أشرنا اليها فى مقدمة هذا البحث ، وهى أن المجتمع فى مصر كان فى ذلك الوقت مجتمعا دينيا . ولم يكن الشعب المصرى ينظر الى السلطان العثمانى على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر ، بل نظر اليه على أنه سلطان الاسلام . هكذا كان يصرح زعماء الشعب المصرى فى شتى المناسباب فى ذلك الوقت . ونذكر على سبيل المثال تصريحا أدلى به كبار المشايخ علماء الأزهر فى مقابلة عاصفة تمت بينهم وبين الجنرال كليبر عقب اخماد ثورة القاهرة الثانية فى ابريل ١٨٠٠ ونعى عليهم الجنرال كليبر تأرجحهم بين الولاء للفرنسيين وبين الولاء للعثمانيين، فانطلق

الزعماء يصفون سلطان الدولة العثمانية بصريح العبارة بأنه « سلطان المسلمين » وكان السلطان العثمانى من جهته جد حريص على تأكيد صفته الدينية لا فى علاقاته مع الولايات العربية فحسب بل فى علاقاته مع الدول الأوربية. وقد ظهر هذا الحرص منذ أواخر القرن الثامن عشر حين واجهت الدولة العثمانية ضغطا متزايدا من بعض الدول الأوربية التى تروم اقتطاع أجزاء عثمانية وضمها اليها (١) . وقد نجحت الدولة العثمانية فى مخططاتها السياسية اذ فرضت على مصر ومعظم أجزاء العالم العربى - مشرقة ومغربة - استعمارا مقنعا باسم الدين ، والدين منه براء . وقد جمع بين أفراد الشعب شعور عام بالولاء للسلطان باعتباره سلطان الاسلام والمسلمين . ولذلك كان الشعب المصرى متشبعا بفكرة الوطن الاسلامى أكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومى . وكان مفهوم الوطنية ملحقا بمفهوم الدين ، وبعبارة أخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث كان يصعب الفصل بينهما . والواقع أن الحكم العثمانى قد ساعد على تأكيد الحياة الدينية لسكان مصر وغيرها من الولايات العربية ، وذلك بتمسكه بأحكام ومبادىء الشريعة الاسلامية وجعلها أساسا لحكم هذه الولايات مع الحرص على احترام التقاليد الاسلامية والمحافظة على اقامة الشعائر الدينية . فمضت الحياة تطبع المصريين بالطابع الدينى البحت ، وأضحت حضارة مصر وقتئذ حضارة دينية . وكان الشعب المصرى لا يعرف علوما أسمى من علوم الدين ولا ثقافة أحرى بالدراسة من الثقافة الدينية .

وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ أن تم الغزو العسكرى العثمانى لهذه البلاد فى سنة ١٥١٧ تقضى بأن يكون والى

(١) كان أول ظهور هذا الاتجاه فى معاهدة كتشك كينارجى سنة ١٧٧٤ وبمقتضاها بسطت روسيا نفوذها على بلاد القرم وهى بلاد اسلامية . فنصت المعاهدة على أن يظل المسلمون فى القرم تحت السيادة الروحية للسلطان وأصبح من حقه أن يعين القضاة والمفتى فى هذه البلاد .

مصر عثمانيا صرفا ، بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية • فاذا تم اختيار عمر مكرم أو الشيخ الشرقاوى أو غيرهما من زعماء البلاد واليا لمصر ، فان مثل هـذا الاختيار كان يعتبر فى ضوء مفاهيم ذلك المجتمع الدينى ثورة على النظام الذى أخذت به الدولة ونقضا لمبدأ أساسى وضعه سلطان الاسلام وخروجا على طاعته وهى الطاعة التى كانت أجهزة الحكم العثمانى تحرص على تأكيدها بترديد الآية القرآنية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) •

وفى رأى أحد الباحثين النابهين كان عمر مكرم « يقبض على زمام الشعب ويسيطر عليه تماما ، ولكن ماعساه أن يفعل ؟ انه يرجو الخلاص من ولاة السلطان لا من السلطان نفسه ، انه يسعى للانقاذ ولكنه لا يريد أن يكون ملكا أو أميرا فليس هذا من خلق العلماء ولا حماة الشرع ولا رجال الدين ، ان عليهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحولوا بينهم وبين الظلم اذا مالت بهم نفوسهم الى الطغيان » (٢) •

ومن ناحية أخرى فان سلطان الدولة العثمانية ما كان ليقر تعيين مصرى واليا على مصر • وقد تفسر دوائر الباب العالى فى الاستانة ثورة سنة ١٨٠٥ فى مصر بأنها حركة فردية استهدف متزعموها المصريون تحقيق مآرب شخصية لهم • ولذلك حرص عمر مكرم منذ المرحلة الأولى للثورة على أن يجنبها أسباب الفشل ، فاشترط أن يكون الوالى الذى ينتخبه الشعب عثمانيا، وجاهر بهذا الرأى أمام الزعماء والأعيان حين دعاهم الى اجتماع عقد فى دار محمد على للبحث فى اختيار من يخلف الوالى أحمد خورشيد • يقول الجبرتى وهو يترجم لمحمد بك الالفى « عقد السيد عمر مجلسا عند محمد على ، وأحضر المشايخ والأعيان ، ذكر لهم أن هذا الامر وهذه

(١) الشطر الاول من الآية رقم ٥٩ من سورة النساء •

(٢) دكتور حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره • ص ١١٥ •

الحروب ما دامت على هذه الحالة لا تزداد الا فشلا ، **ولا بد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية**. فانظروا من تجدوه وتختاروه لهذا الأمر ليكون قائم مقام حتى يتعين من طرف الدولة من يتعين . فقال الجميع الرأى ماتراه . فأشـــار الى محمد على » ونخلص من هذا العرض الى أن المصريين فى ثورة سـنة ١٨٠٥ لم يتطلعوا الى تغيير جذرى فى وضع مصر السـياسى ولم يطالبوا باستقلال بلادهم عن الدولة العثمانية . ولكن الروح الجديدة التى دبت فى الشعب من زيادة الوعى واليقظة هى التى دفعته الى مقاومة الظلم بالاصرار على تغيير شخص الحاكم . وحـــال الولاء الدينى للسلطان دون مطالبة الشعب بالانفصال عنه .

ويلاحظ أيضا أن أحداث حركة على بك الكبير (١٧٦٨ ـ ١٧٧٣) كانت لا تزال عالقة فى أذهان المصريين بل ان كثيرين ممن شاركوا فى ثورة مايو ١٨٠٥ قد عاصروا تلك الحركة . وكانوا يعـلمون أن على بك لم يجرؤ على قطـع جميـع الروابط التى كانت تربط مصر بسلطان الدولة العثمـانية ، على الرغم من أنه عزل الوالى العثمانى وحدد اقامته حتى جاز الى ربه ، ولم يسمح بدخول الولاة العثمانيين الى مصر وقطع الجزية عن السلطان ، ومد فتوحاته الى الحجاز والشام. ولكنه لم يذهب الى أبعد من ذلك ، فلم يتخذ لنفسه لقب سلطان ، أو أى لقب آخر ينم عن أنه غدا حاكما مستقلا تمام الاستقلال عن سلطان الدولة العثمانية ، سلطان الاسلام والمسلمين ، وقنع بلقب قائمقام مصر المحروسة . وأمر بأن يستمر الدعاء فى خطبة الجمعة لسلطان الدولة العثمانية بل انه أمر بأن يبطح أرضا أمام مسجد الداودية ويضرب بالعصى لأنه دعا لعلى بك فى خطبة الجمعة . (١) وأهم من ذلك كله أمر بسك عملة فضية وأخرى ذهبية بعد انفراده

---

(١) يقول الجبرتى : « اتفق أن على بك صـــلى الجمعة فى أوائل شهـــر رمضان ١١٨٣ (٢٩ من ديسمبر ١٧٦٩ ـ ٢٧ من يناير ١٧٧٠) بجامع الداودية، فخطب الشيخ عبد ربه ، ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك . فلما انقضت الصلاة =

بحكم مصر · وكانت هذه العملة تحمل على أحد وجهيها طغراء باسم مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، وتحمل على الوجه الآخر اسم « على » بطريقة تنطوى على التحايل ، اذ نقشت على هذا الوجه عبارة ضرب فى مصر سنة ١١٨٥ هـ واستخدم حرف الباء فى لفظة ضرب كحرف ياء لكلمة على (١) ·

ومع ذلك فان حركة على بك لم تستهو أفئدة الشعب ولم يتجاوب معها ، لأنها لم تكن حركة شعبية ، بل كانت فى لحمتها وسداها حركة مملوكية استهدف منها على بك الانفراد بحكم مصر · فوضع مواهبه ونشاطه الجم فى خدمة هذا الغرض الشخصى · ولم يصرف اهتمامه لرفع المظالم عن كاهل الشعب ، ولعل وطأتها قد ازدادت ، لأنه ساق البلاد الى مغامرات حربية عقيمة دفع الشعب ثمنها باهظا فى شكل اتاوات وضرائب ومغارم ومصادرة أموال ·

واذا انتقلنا من الجيل السابق لجيل عمر مكرم الى الأجيال التالية له نجد أنه على الرغم من أن الشعب المصرى قد خطا خطوات واسعة فى شتى مجالات التقدم والتطور واشتد اتصاله بأوربا فقد ظلت الفكرة الدينية الممثلة فى الولاء للدولة العثمانية باعتبارها دولة الاسلام الكبرى مسيطرة على أذهان المصريين فىالقرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين · وكان جمال الدين الأفغانى وصفيه

= وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم ، يغلب عليه البله والصلاح ، فقال له : « من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ أقيل لك الى سلطان ؟ » فقال : « نعم أنت سلطان ، وأنا أدعو لك » فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى · فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب الى داره وهو يقول فى طريقه : « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ » ويلوح أن ضمير على بك قد تحرك فى اليوم التالى فأرسل اليه يستسمحه وبعث اليه بدراهم وكسوة · أنظر الجبرتى ج ١ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ·

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع فى :

د · محمد رفعت رمضان : على بك الكبير · دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص ٥٧ ـ ٦٤ ·

محمد عبده يدعوان الى تأكيد الروابط الروحية والثقافية والسياسية مع الدولة العثمانية على أساس أنها دولة الخلافة ، وأوضحا أن فى تمزق هذه الدولة أمام الزحف الأوربى قضاء على دولة الاسلام الكبرى ٠

ويمكن تشبيه الزعيم عمر مكرم ـ فى هذه الناحية ومن بعض الوجوه ـ بالزعيم مصطفى كامل حين التصق بتركيا فى مرحلة من مراحل كفاحه الوطنى المجيد ٠ ولما تكون حزب الأمة فى مصر فى سبتمبر ١٩٠٧ لم يفكر الأعيان من أعضاء هذا الحزب فى نبذ الولاء للدولة العثمانية ٠ أما المثقفون من أعضاء الحزب فكانوا يرون الانفصال بمصر عن الروابط العثمانية وعملوا على تسفيه فكرة السيادة العثمانية على أساس أنها تعوق تحقيق الكيان القومى لمصر واستقلالها التام ، ونادوا بأنه يجب النظر الى المسائل السياسية من زاوية المصالح المصرية وحدها ٠ ولذلك لم تستسغ الجماهير هذه الآراء التى نادى بها أحمد لطفى السيد فى جرأة على صفحات « الجريدة » ٠ وليس أدل على ذلك أنه لما أغارت ايطاليا على طرابلس الغرب وقامت الحرب بينها وبين تركيا فى سنة ١٩١١ برزت عاطفة الولاء للسلطان العثمانى بروزا واضحا قويا بين الجماهير التى اندفعت تقدم التبرعات المالية والعينية لمساعدة تركيا فى الحرب مما جعل أحمد لطفى السيد يصرح « بأن الأمة وهى بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها لا يمكن أن تريد الانفصال عنها » (١) ٠ وكان لطفى السيد قد شن حملة صحفية تحت عنوان « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » واعتقد أن نشوب الحرب التركية الايطالية فرصة لتحقيق «ماكنت أدعو اليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ٠ وقد أخذت أنبه ـ على استحياء ـ الى واجب مصر من هذه الحرب وهو أن تكون على الحياد ، وأن سيادة

---

(١) أحمد لطفى السيد ـ قصة حياتى ص ١٣٢ ٠

تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ... وقد أغضب هذا الموقف بعض الناس ولكنى لم ألتفت الى غضبهم . »

نخرج من هذه المناقشة الموضوعية بأن النزعة السياسية التى سيطرت على عقول الغالبية الساحقة من المصريين حتى مطلع القرن العشرين كانت نزعة ذات صبغة اسلامية عثمانية واضحة جعلت الشعب نهبا لتيارات مختلفة وعرضة لمؤثرات قوية حالت دون نمو فكرة القومية بمفهومها المعاصر الواضح ، مما جعل أحمد لطفى السيد يشعر بالأسى المرير حين لمس أن الشعب لم يستطع أن يتخلص من رواسب الماضى ممثلة فى تشبع الجماهير بفكرة الوطن الاسلامى والولاء للسلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين . فاذا رجعنا الى الوراء قرنا وبعض قرن حين قام عمر مكرم بثورته الشعبية عام ١٨٠٥ نجد أن مطالبة هذا الزعيم ومن ورائه الشعب باختيار أحد العثمانيين واليا على مصر كان أمرا طبيعيا فى ضوء المفاهيم السياسية والدينية فى ذلك العصر ، فمفهوم الانفصال عن الدولة العثمانية لم يكن من الأمور التى تخطر بالبال أو تتطرق الى الذهن .

***

بقى السؤال الثانى ، وهو ، لماذا اتجه اختيار عمر مكرم الى محمد على بالذات ليكون واليا على مصر ؟ كانت هناك عدة اعتبارات أملت على عمر مكرم هذا الاختيار . أولها أن محمد على كان قد رقى الى مرتبة مماثلة أو قريبة من ذلك المنصب . ولتفسير ذلك نقول ان أحمد خورشيد باشا كان قد سعى لدى الباب العالى لتعيين محمد على واليا على احدى الولايات العثمانية وذلك ابان الصراع السافر الذى احتدم بين ذلك الوالى وبين محمد على . وقد أراد أن يتخلص من غريمه ومنافسه بنقله نهائيا من مصر الى منصب مرموق يجعله يترك الميدان خاليا لخورشيد . وقد نجح فى مسعاه . فصدر مرسوم من السلطان بتعيين محمد على واليا على جده . ولما أبلغ خورشيد هذا المرسوم الى محمد على وطلب منه الصعود الى القلعة لحضور الحفل التقليدى رفض

الذهاب اليه خشية غدر خورشيد به ، وأظهر استعداده لتلقى المرسوم فى أى مكان آخر يقع عليه اختيار الوالى ، فرفض خورشيد بدوره . وتوسط المشايخ الذين كانوا حريصين على اقامة الحفل رفعا لشأن محمد على وتعزيزا لمركزه وكيدا لخورشيد . وتم الاتفاق حسب رغبتهم على اختيار منزل سعيد أغا مكانا لتقليده شارات الوالى . وفعلا نزل خورشيد من القلعة فى ١٠ من مايو ١٨٠٤ الى ذلك المنزل حيث كان محمد على والمشايخ والقاضى والأعيان مجتمعين . وبدأت مراسم الاحتفال وقرىء المرسوم وارتدي محمد على الفروة والقاووق ، وهما من شارات الحكم ، وانفض المجلس . وذهب محمد على الى داره بالأزبكية وهو فى حلة الوالى الرسمية ، وأخذ ينثر الذهب على الأهالى الذين وقفوا على طول الطريق لتحيته .

يهمنا من هذا التعيين أن محمد على ارتفع الى مرتبة الولاة العثمانيين ، وأصبح فى عدادهم ومرتبتهم ودرجتهم ، وهو وان لم ينفذ هذا المرسوم ويرحل عن مصر فهو حق كسبه ولا يلحقه البطلان، وأصبحت لديه الصلاحية والأهلية لشغل منصب والى مصر . وقد جرت العادة ابان الحكم العثمانى على أن يصدر السلطان حركة تنقلات ينقل فيها والى جدة واليا على مصر . فاذا جاء عمر مكرم ونادى بمحمد على واليا على مصر فان هذا الاختيار يكون مقبولا من الناحية الشكلية .

وهناك الناحية الموضوعية التى جعلت عمر مكرم يؤثر محمد على بترشيحه والمناداة به واليا على مصر . فقد كان هذا الألبانى يظهر عطفا مصطنعا على الشعب ومناصرة زائفة له ، ويبدى مواساة له ابان المحن التى تلاحقت على الجماهير على يد الأمير المملوكى عثمان بك البرديسى ثم الوالى العثمانى أحمد باشا خورشيد . ولم يدر بخلد أحد من الشعب فى ذلك الوقت أن هذه المواساة وذلك العطف كانا وسيلة لغاية أبعد هى وصوله الى الحكم ، لان محمد على كان قد أدخل

فى حسابه القوة الشعبية يتخذ منها ركيزة قوية للوثوب الى منصب الوالى • ولهذا كان محمد على فى قرارة نفسه يبتهج بتوالى المظالم على الشعب لسبب بسيط ، هو أنه بقدر ماكانت هذه المظالم تباعد بين الشعب وبين حاكميه ، كانت هذه المظالم تعطيه مزيدا من الفرص للتودد الى الشعب واظهار عطفه عليه ، فغدا محمد على فى نظر الشعب القائد المثالى الكامل العطوف على الجماهير العزوف عن الظلم الذى يمشى على الأرض هونا الى آخر هذه الصفات التى نجح محمد على فى اضفائها على نفسه ، ونجح فى اقناع الشعب وزعمائه بها •

كان محمد على كلما جن عليه الليل اتخذ طريقه سربا الى دار عمر مكرم يتملقه باعتباره كبير زعماء الشعب ، ويتحدث اليه حديثا يفيض بأرقى مشاعر العطف على الشعب ويبدى فيه نفوره من أساليب الجور والتعسف التى يتبعها خورشيد ، ويبذل لعمر مكرم الوعود الخلابة بأنه اذا أتيح له حكم مصر فسيكون حريصا على التزام العدل والبعد عن المظالم والاقــلاع عن ابتزاز الأموال ، وأنه يضع نفسه تحت رقابة صـــارمة دقيقة من زعمـــاء الشـعب فلا يتخذ قرارا الا بموافقتهم ، وأنه اذا حاد عن الطريق السوى كان لهم أن يعزلوه ، وانهم على ذلك لقديرون • يقول الجبرتى وهو يترجم لمحمد بك الألفى « ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ويتملق اليه ، ويأتيه ويراسله ، ويأتى اليه فى أواخر الليـــل وفى أوساطه مترددا عليه فى غالب أوقاته حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل واقامة الأحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم ، ولا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه ، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن • » (١) وقد اطمأن عمر مكرم الى هذه الوعود وتوسم فيه الخير والتزام العدل ، فكان أن اقترح اسمه على المشايخ والأعيان ، وأخذوا باقتراحه أو ترشيحه •

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٣٢ •

كان فى تقـدير عمــر مكرم أن فى هذا الاجراء انهاء للفوضى السياسية واراحة للشعب من أعمال السلب والنهب والجرائم الخلقية والركود الاقتصادى وغير ذلك من مساوىء رانت على قلوب الجماهير أمدا طويلا • واعتقد عمر مكرم أن محمد على هو الأمل المرتجى ليحقق آمال الشعب فى الاستقرار والأمن والهدوء وسيادة القانون والكف عن فرض الضرائب الجزافية • ولكنه كان فى اعتقـاده من الواهمين • وقد تبين لعمر مكرم خطأ اعتقاده واتضح له أن محمد على لا يقل جشعا واســتبدادا وظلمــا عن أحمد خورشـــيد وغيره من الولاة العثمانيين • وتنبأ بأنه اذا طال بحكمه الأمد فسيرهق المصريين من أمرهم عسرا وستتضاعف المظالم على يديه • وكان ادراك عمر مكرم لهذه الحقيقة بعد فوات الأوان ، اذ كان محمد على قد توطدت أقدامه فى مصر ورسخ حكمه فيها •

الفصل الحادى عشر

إسطارة فرنسية تجرد الزعيم من دوره القيادى

مزاعم الإسطارة

ابتدع الفرنسيون أسطورة تاريخية تجرد السيد عمر مكرم من دوره القيادى فى تنصيب محمد على واليا على مصر ، وتنسب الفضل كله فى تقلده هذا المنصب الى فرنسا ورجالات فرنسا وعلى رأسهم الامبراطور نابليون الاول • وقد لقيت هذه الاسطارة قبولا ورواجا لدى المؤرخين والكتاب الأوربيين الذين كتبوا فى تاريخ مصر الحديث وبوجه خاص من الفرنسيين ، بحيث غدت هذه الاسطارة فى مؤلفاتهم حقيقة تاريخية لا مراء فيها • وندر أن صدر عنهم كتاب تناول هذه الحقبة من تاريخ مصر الحديث دون أن تذكر فيه الاسطارة الفرنسية •

تقول هذه الاسطارة ان بونابرت ـ وقد غدا على رأس الجمهورية الفرنسية بعد أن قام بانقلاب برومير Brumaire الذى أطاح بحكومة الادارة ـ رأى أن الفوضى السياسية سادت مصر منذ أن تم جلاء الفرنسيين عنها ، وأن الاضطراب يزداد حدة وعنفا يوما بعد يوم ، فالحروب الداخلية لا تنقطع بين القوات العثمانية وبين المماليك ، وأن المماليك يبدون شعورا طيبا نحو الانجليز تحدوهم رغبة قوية فى التعاون معهم وخدمة المصالح البريطانية فى مصر فى مقابل مساعدة الانجليز لهم على استعادة نفوذهم الذى ذوى منذ مجىء الحملة الفرنسية فى سنة

١٧٩٨ ، وان المماليك ينظرون الى الفرنسيين نظرة ملؤها الحقد والكراهية ، لأنهم هم السبب المباشر ، بل الأوحد ، فى سقوط حكومتهم التى كانت قائمة فى مصر قبل عدوانهم . وقد خرج بونابرت من تقديره للموقف الداخلى فى مصر بأن هذا الموقف ملىء بشتى الاحتمالات ، وقد تكون فى غير مصلحة فرنسا ، ولهذا استقر رأيه على ايفاد أحد أعضاء السلك القنصلى الى مصر ليدرس الموقف على الطبيعة ويتعرف على الشخصيات التى تتصارع على النفوذ والحكم فيها ، ويختار من بينها شخصية تمتاز برجاحة العقل وقوة الشكيمة ومضاء العزم والمقدرة على اعادة الاستقرار والنظام الى البلاد والاستعداد لخدمة المصالح الفرنسية ، ثم يبعث باسم هذه الشخصية الى بونابرت فى باريس ، فيقوم الأخير ببذل مساع دبلوماسية لدى سلطان الدولة العثمانية كى يصدر مرسوما بتعيين الشخصية المختارة واليا على مصر . وتمضى الاسطارة فتقول ان بونابرت وقع اختياره على ماتيو لسبس **Mathieu Lesseps** — والد فرديناند دى لسبس الذى ظفر من محمد سعيد والى مصر بعقد الامتياز لانشاء قناة السويس — لهذه المهمة السرية فجاء الى مصر واتصل عن كثب بالشخصيات المتصارعة على الحكم واستشف ببصيرته النافذة ان محمد على هو سيد الغد فرشحه لحكومته وأخذت الحكومة الفرنسية بهذا الترشيح ، وبذلت مساعيها الدبلوماسية فى الآستانة حتى صدر فرمان أى مرسوم من السلطان بتعيين محمد على واليا على مصر . وتخرج الاسطارة من هذا السرد التاريخى الخيالى بأن فرنسا أسدت الى محمد على وأسرة محمد على صنيعا يذكر فيشكر .

الباعث عليها :

وقبل أن نمضى فى تفنيد هذه الفرية التاريخية نذكر الباعث

عليها فنقول انه أريد بها اغراء ولاة مصر من أسرة محمد على باشا على خدمة المصالح الفرنسية والتمكين لها فى مصر . فالعملاء الفرنسيون يسكبون هذه الفرية فى أذهان أفراد أسرة محمد على حتى يعمل الأخيرون على فتح آفاق رحبة فسيحة للفرنسيين يمارسون فيها ألوانا شتى من النشاط السياسى والاقتصادى والثقافى فى مصر ، واستهدفوا من ذلك تحويل مصر الى منطقة نفوذ فرنسى ، وبعبارة أخرى ، أراد رجال السياسة والاقتصاد فى فرنسا فى القرن التاسع عشر أن يعوضوا بالتغلغل السلمى عن طريق تلك الاسطارة بعض ما فشل فيه بونابرت بالغزو الحربى عن طريق الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ . واذا كان محمد على قد عمل على رعاية المصالح الفرنسية فى مصر ، فانه لم يكن فى نظر الفرنسيين سوى رجل شريف أمين كان يشعر فى أعماق نفسه أن فى عنقه دينا يجب أن يؤديه للفرنسيين فأداه أحسن ما يكون الأداء . ولكن كان محمد على قد جاز الى ربه وطويت صفحته فى الحكم . وتولى حكم مصر من بعده حفيده عباس الأول وقد أعلن فى صراحة تامة مقته الشديد للسياسة الفرنسية واضطهد الرعايا الفرنسيين فى مصر ، وهى سياسة أزعجت فرنسا الى حد بعيد وأخذت تكيد له فى الاستانة . ثم جاء من بعده محمد سعيد وهو ابن محمد على ، وما لبث أن منح وهو فى مستهل حكمه فرديناند دى لسبس عقد امتياز لانشاء قناة السويس والترخيص له فى تكوين وادارة شركة تقوم بحفر القناة واستغلالها مع الأراضى الشاسعة التى منحت لهـا فى مديريتى القليوبية والشرقية ومنطقة برزخ السويس . ولم يكن هذا المشروع — فى نظر المعاصرين المحايدين — سوى عملية ظاهرها الغرض التجارى وباطنها الاستعمار الفرنسى المقنع ينشر لواءه على مصر . وهكذا اذا كان محمد سعيد قد أسدى صنيعا لأحد الفرنسيين — وهو فرديناند دى لسبس — بمنحه عقد امتياز لانشاء قناة السويس ، فان والد هذا الفرنسى

ـ وهو ماتيو لسبس ـ كان أسبق فى اسداء صنيع الى محمد على والد محمد سعيد ، اذ كان الوالد الفرنسى هو السبب فى تعيين الأب الألبانى واليا على مصر . وكان هذا التعيين هو الخطوة الأولى فى تقرير حكم مصر وراثيا فى أصلاب محمد على . وتطلعت فرنسا الى مزيد من الامتيازات والاحتكارات تظفر بها على يد ذلك الوالى وخلفائه . وكان من بين ما نجحت فيه الحصول على عقد امتياز بانشاء حوض لاصلاح السفن فى ميناء السويس، وهو مشروع ظلت بريطانيا ثلاثين عاما تسعى للحصول على امتيازه وظفرت به فرنسا بجرة قلم من الوالى الأبله محمد سعيد، وتوالت عقود الامتياز تمنح تباعا للفرنسيين وتفتح لهم أبواب مصر بحثا عن المكاسب الخيالية ، وكأن مصر قد غدت كاليفورنيا جديدة تزخر بمناجم الذهب . وها هو الخديو اسماعيل يصرح لكرستيان شيفر Christian Schefer السكرتير الشرقى للامبراطور نابليون الثالث بقوله فى بلاهة الحاكم الذى تعوزه تجارب الحكم وحصافة الرجل السياسى « انى أنتمى الى أسرة محمد على ، ونعلم جميعا ما ندين به لمعاضدة فرنسا وللرعاية التى خصتنا بها دائما . » (١)

موقف المصادر والمراجع التاريخية من الاسطارة

والمصادر والمراجع التاريخية لا تشير على الاطلاق الى هذه الرواية التى ابتدعها خيال الفرنسيين ، ولو كان لها ظل من الحقيقة لما أغفلتها تلك المصادر وهذه المراجع وبخاصة لانها فرنسية ولانها معاصرة للاحداث التى تتكلم عنها .

ولنبدأ أولا بالمصادر التاريخية ، وهى فى هذا المجال ،

(1) «Je suis de la famille de Mohamed Ali et nous tous nous savons ce que nous devons a l'appui de la France et à la protection qu'elle nous a toujours accordée.» George Guindi et Jacques Tagher. Ismail d'après les Documents Officiels, le Caire. 1946, p. 41.

الوثائق الدبلوماسية التى تبودلت بين وزارة الخارجيــة الفرنسية فى باريس وبين السفارة الفرنسية فى الآستانة وبين القنصــلية الفرنسية فى مصر . وقد نشرت هذه الوثائق فى خمسة أجزاء . يتناول الجزء الاول الوثائق التى صدرت فى الفترة من ســـنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٤ (١) والجزء الثــانى يتناول الوثائق من سنة ١٨٠٤ الى ســنة ١٨٠٧ • (٢) فنجـد فيما يختص بماتيو لسبس الذى تدور حوله تلك الاسطارة أنه قد صدر فى ٧ من مارس ١٨٠٣ قرار من بونابرت قنصل أول الجمهورية الفرنسية بتعيين ماتيو لسبس فى منصب نائب مندوب العلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية فى دمياط (٣) sous Commissaire des Relatious Commerciales de la Republique Française

ونص فى نفس القرار على أن يشغل مؤقتا وبطريق الانابة منصب المندوب العام للعلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية بالقاهرة • وهذه الوظيفة تعــادل فى اختصاصاتها منصب القنصل العام فى القانون الدولى العام ، ولكن كانت الحكومة الفرنسية تتجنب وقتذاك استعمال ألفاظ نائب قنصل ، وقنصل ، وقنصل عام ، فقد كانت السلطة التنفيذية العليا فى فرنسا تتمثل فى ثلاثة قناصل على رأسهم بونابرت بلقب قنصل أول •

وبعد مضى أسبوعين من صدور هذا القرار نجد أنه صدرت الى ماتيو لسبس تعليمات من وزارة الخارجية الفرنسية فى ٢٢ من مارس ١٨٠٣ (٤) تحدد فيها مهمته تحديدا دقيقا • فاذا بلغ

---

(١) L'Egypte de 1802 à 1804. Correspondance des Consuls de France en Egypte, Recueillie et publiée par Douin G. le Caire 1925.

(٢) Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805-1807) Correspondance des Consuls de France en Egypte, Recueillie et publiée par Douin G. le Caire 1926.

(٣) وثيقة رقم ١٩ فى Douin : L'Egypte de 1802 à 1804

(٤) وثيقة رقم ٢١ فى المصدر السابق

القاهرة كان عليه أن يؤكد للسلطات القائمة اخلاص الحكومة الفرنسية ونواياها الطيبة . ثم استطردت هذه التعليمات فقالت ما نصه حرفيا « ان حالة عدم الاستقرار التى توجد فيها مصر فى هذه الآونة ، سواء بسبب أطالة الانجليز اقامتهم بها ، أو بسبب حالة الحرب الناشبة بين الفرق العثمانية وبين المماليك ، تحتم على المواطن لسبس ان يتذرع فى مسلكه وفى اتصالاته مع الرؤساء النائبين عن الباب العالى بكل أسباب الحكمة والحذر والتحفظ ، وهى صفات لا تعوزه ، فيعمل على الظفر بتقديرهم وكسب ثقتهم وذلك **بتجنبه الزج بنفسه فى المنازعات السائدة بين الفريقين »** ثم تمضى التعليمات فتقصر نشاطه على رعاية المصالح التجارية الفرنسية · ونخرج من هاتين الوثيقتين بأن بونابرت اعتبر مهمة ماتيو لسبس تجارية بحتة · وجاءت التعليمات الرسمية التى صدرت اليه خلوا من تكليفه البحث عن شخص قوى ذى ميول فرنسية يعين واليا على مصر .

فاذا انتقلنا من هذه المصادر الى المراجع نجد أن اصحاب « التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر » (١) قد أفردوا الجزءين التاسع والعاشر لتاريخ مصر بعد جلاء الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ حتى أواخر حكم محمد على وانفرد بكتابة هذين الجزءين اكيل دى فولابل وهو أحد رجال السياسة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الذين اشتهروا بوضع مؤلفات محترمة فى التاريخ الاوربى ، ولم يشر هذا المؤلف والسياسى الى تلك الاسطارة من قريب أو من بعيد ، بل كانت كتابته تدور حول الدور القيادى والحاسم الذى قام به عمر مكرم ابان الثورة الشعبية فى مايو ١٨٠٥ وفى تعبئة الجماهير وفى تدبير المقاومة الشعبية وفى تولية محمد على حكم مصر · ولو كان لتلك الفرية

---

(١) Histoire Scientifique et Militaire de l'expédition française en Egypte. 10 vols Paris 1832

ظل من الحقيقـــــة لما أغفلها فولابل فى كتابه فهو فرنسى متعصب يهتم بابراز أثر الفرنسيين فى مصر فى جميع القطاعات . وقد طبع هذا السجل التاريخى من سنة ١٨٣٠ الى ســـــنة ١٨٣٧ ورفعه واضعوه ـ وهم صفوة علماء فرنســـــا ـ الى لوى فيليب ملك فرنسا فى ذلك الوقت ، كمـــا تولى جوفروى ســـان ايلير Geoffray Sainte Hilaire تقديم اللاتاب بأجزائه العشرة الى المجمع العلمى الفرنسى .

ونجد أيضا فرنسيين عاشا فى مصر والتصـــقا بمحمد على التصاقا شديدا ، أولهما مانجا وكان موظفا سياسيا فى القنصلية الفرنسية العامة فى مصر وقد وضع كتابا يقع فى جزءين فى تاريخ مصر الســــياسى والحربى منـــذ جـــلاء الفرنسيين الى ســــنة ١٨٢٣ . (١) أما الفرنسى الثانى فهو الطبيب كولت بك وقد وضع كتابا تناول تاريخ مصر على عهد محمد على أطلق عليه « لمحة عامة الى مصر » (٢) ولم يذكر أحد من هذين الفرنسيين شيئا على الاطلاق عن الدور المزعوم لما تيو لسبس فى تولية محمد على حكم مصر .

وقد تعرض ثلاثة أساتذة أجلاء ، هم : محمد شفيق غربال ومحمد فؤاد شكرى وعبد الرحمن الرافعى لتفنيد هذه الفرية . وقد

---

(١) Mengin Félix: Histoire de l'Egypte sous le gouvernment de Mohammed Aly. 2 vols Paris 1823

كما وضع كتابا آخر فى جزء واحد يعتبر مكملا لكتابه الاول ويتناول تاريخ مصر من سنة ١٨٢٣ حتى ١٨٣٨ .

Histoire Sommaire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Aly. Paris. 1839

(٢) Clot Bey A. B. Aperçu Général sur L'Egypte, Paris. 1840

قرر الاستاذ غربال فى كتابه القيم الذى وضعه باللغة الانجيلزية (١) أنه لم يعثر فى محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس فى القسم الخاص بأوراق السفارة الفرنسية فى الآستانة على أية وثيقة يشتم منها أن قام أحد السفيرين اللذين تعاقبا على دار السفارة الفرنسية فى الاستانة ابان تلك الفترة بأية خطوة أو مسعى لدى دوائر الباب العالى لتأييد هذا الألبانى أو تدعيم مركزه أو التوصية بتعيينه واليا على مصر . وكان هذان السفيران هما برين Guillaume Brune وسبستيانى Horace Séqastiani . ونعى الاستاذ غربال على ماتيولسبس سوء خلقه ، وأنه اتخذ من منزله حانة يبيع فيها بأسعار مخفضة النبيذ وغيره من أنواع الخمور مستغلا الاعفاءات الجمركية التى تمنح لأعضاء السلك القنصلى . وكان يقدم بعض الكميات من الخمور الى الرؤساء الألبانيين بمثابة هدايا لقاء وعدهم بعدم الاعتداء عليه وعلى الرعايا الفرنسيين . ثم تعرض الاستاذ غربال لهذه الاسطارة بعد ذلك فى كتاب وضعه باللغة العربية (٢) وكان مما جاء فيه « كان من شأن انهماك كل من فرنسا وأعدائها فيما وصفنا (الحروب) أن انعدم التأثير الأوربى انعداما يكاد يكون تاما فى الحوادث التى جرت فى مصر فيما بين سنة ١٨٠١ و ١٨٠٥ والتى انتهت ببلوغ محمد على ولاية الأمر . ولا صحة لما اختلقوه من بحث القنصل الفرنسى عن رجل جدير بعطف الحكومة الفرنسية واهتدائه الى محمد على وكتابته لحكومته بهذا « الترشيح » وتأييد فرنسا لذلك لدى الباب

---

(١) Shafik Ghorbal. The Beginings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. London. 1928. pp 213-216,222-223 and 226

(٢) محمد شفيق غربال : محمد على الكبير . أعلام الاسلام القاهرة ، اكتوبر ١٩٤٤ ،

العالى ـ لم يحدث شىء من هذا قطعا ، ولم يتجاوز هم القنصل الفرنسى حماية نفسه ومواطنيه فى الاضطراب السائد فى القاهرة ، وقد ضعف النفوذ الفرنسى فى القسطنطينية فى تلك السنوات لدرجة أن حكومة الباب العالى رفضت الاعتراف بنابليون امبراطورا على الفرنسيين ، وكان ذلك تحت املاء الروسيا • وانسحب السفير الفرنسى وانقطعت العلاقات بين الدولتين زمنا • ولكن انتصار نابليون فى أوسترلتز قرب نهاية سنة ١٨٠٥ وتمزيقه التألب الأوربى باخراج النمسا من الحرب • غير الموقف للدولة العثمانية لمصر تغييرا كبيرا ، وواجه محمد على بعد ١٨٠٥ نتائج ذلك التغيير • » (١)

أما الأستاذ شكرى (٢) فقد سجل نشاط ماتيولسبس وتحركاته فى مصر منذ قدومه اليها حتى رحيله عنها وخرج من دراسته الضافية بقوله « انه لم يكن له يد أو فضل فيما وقع من حوادث ، ولم يول محمد على تلك الثقة أو يسد اليه تلك المعاونة التى توهمها كثيرون وعزوا بسببها خطأ الفضل فى توجيه محمد على ومساعدته فى آخر الأمر على الوصول الى منصب الباشوية • »

ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى « ويقينا ان هذه رواية خيالية لا أصل لها ولا يؤيدها منطق الحوادث ، ولم تستند الى مصدر موثوق بصحته ، ولم ترد فى المصادر المعتمدة ••• على أن تسلسل الحوادث التى بسطناها تدل على أن محمد على لم يصل الى منصب الولاية الا بفضل تحببه الى الشعب المصرى وزعمائه واختيارهم اياه

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٣٧ ـ ٣٨ •

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ ـ ١٨١١ ـ القاهرة ١٩٥٨ ثلاثة أجزاء • ج ١ ص ص ٤٨ ـ ٨٣ •

واليا . أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد على بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الانجليزية فهذه مسألة أخرى (١) » .

وأخيرا فقد ظهر فى سنة ١٩٥٠ بحث للعالم الفرنسى جاستون فييت بعنوان « احتضار التسلط العثمانى فى مصر » لم يشر فيه من قريب أو من بعيد الى الدور المزعوم لفرنسا ولماتيولسبس بل قرر صراحة أن تولية محمد على حكم مصر قد تمت بفضل المشـــايخ والشعب (٢) .

مناقشة الاسطارة موضوعيا وتفنيدها :

واذا تركنا جانبا المصادر والمراجع الى المناقشة الموضوعية نجد ان ماتيو لسبس قد وصل الى مصر فى أواخر شــهر مايو ١٨٠٣ ، وأقام بها حتى شهر نوفمبر ١٨٠٤ ومعنى هذا أنه ارتحل عن مصر قبل أن تقوم الثورة الشعبية بزعامة عمر مكرم فى مايو ١٨٠٥ والتى كان من نتائجها أن أصدر السلطان مرسوما بتعيين محمد على واليا على مصر .

وقــد ازدحمت فترة اقامته فى مصر بالاحداث المروعة تلاحقت فى سرعة مذهلة . كانت قد بدأت هذه الاحداث قبيل وصوله بثورة الجنود الألبانيين بقيادة أحمد طاهر باشا على الوالى العثمانى محمد خسرو باشا واحراق منزله واضطراره الى الهرب من القــاهرة فى ٢ من مايو ١٨٠٣ الى المنصورة فدمياط. ثم قيام الجنود الانكشارية بذبح أحمد طاهر باشا نفسه فى ٢٦ من مايو ١٨٠٣ وطرد أحمدباشا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . الجزء الثانى . الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨ ص ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

(٢) Gaston Wiet l'Agonie de la domination ottomane en Egypte. Cahiers d'histoire égyptienne Série II No. 5-6

والى جده والمدينة المنورة الذى نادى به الجنود الانكشارية واليا على مصر بالنيابة ، وقيام حكومة ثلاثية فى القاهرة تتكون من ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد على ، واقتياد خسرو من دمياط الى القاهرة واعتقاله فى سجن القلعة ووصول على باشا برغل – ويسمى أيضا الطرابلسى أو الجزائرلى ، الوالى العثمانى الجديد الى الاسكندرية فى ٨ من يوليو ١٨٠٣ واستدراجه الى قرب القاهرة ثم ذبحه فى صحراء الشرقية فى ينساير ١٨٠٤ وما تلا ذلك من وقوع انقلاب مارس ١٨٠٤ الذى أطاح بالحكومة الثلاثية والمناداة بمحمد خسرو واليا على مصر من جديد ثم عزله وتوليه أحمد خورشيد مكانه.

وفى غمار هذه الاضطرابات المتلاحقة فشل ماتيولسبس فى مهمته فى مصر سواء فى رعاية المصالح التجارية الفرنسية ، أو فى اقناع السلطات الحاكمة بتنفيذ معاهدة الامتيازات الاجنبية لصالح الفرنسيين، أو فى وقف اعتداءات الجنود على الرعايا الفرنسيين(١). وأثارت تصرفاته شكوك العثمانيين والمماليك على السواء . وتعددت رسائله لحكومته منذ ٢٠ من سبتمبر ١٨٠٣ يلتمس نقله من مصر الى أى ثغر أو بلد آخر فى أوربا متعللا بمرضه وحرارة الجو فى مصر(٢) . واستجابت الحكومة الفرنسية لالتماسه فقررت نقله وأبحر من الاسكندرية فى ١٩ من نوفمبر ١٨٠٤ على عهد ولاية أحمد خورشيد .

---

(١) كان من أهم أسباب فشل ماتيولسبس فى مهمته السياسة السلبية التى انتهجها بونابرت ازاء مصر ، اذ كان حريصا على الابقاء على علاقات ودية مع الباب العالى حتى لا ينضم السلطان الى انجلترا ، واهتم بونابرت أيضا بمداراة الامراء المماليك وجذبهم الى فرنسا لخدمة مصالحها التجارية . وكان استرضاء مندوبى الباب العالى والامراء المماليك معا أمرا متعذرا ان لم يكن مستحيلا لاختلاف أهداف كل من الفريقين .

(٢) أنظر الوثائق الفرنسية رقم ٤٦ بتاريخ ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٠٣ ، ورقم ١٣٦ بتاريخ ١١ مايو ١٨٠٤ فى

Douin G. L'Egypte de 1802 à 1804,ouvr. cit, docs. nos. 46 et 136

وفى أعاصير هذه الفوضى السياسية التى كانت تموج بها البلاد لم يكن ماتيو لسبس يأمن على حياته ، ولم يكن فى مركز يسمح له بنصرة حزب على حزب آخر من الاحزاب المتكالبة على الحكم فى مصر، وعلى ذلك لم يكن له يد أو توجيه أو اسهام فيما وقع فى مصر من تلك الاحداث الدامية • وكان ماتيو لسبس فى حالة نفسية سيئة وتعذر عليه السفر الى دمياط طبقا لتعليمات حكومته • وكان الالبانيون والمماليك قد نهبوا منزل الوكيل الفرنسى فى دمياط واسمه فخرى باسيلى • ولما تحرجت الامور فى القاهرة وأصبح الصدام بين محمد على والمماليك وشيك الوقوع خاف ماتيو لسبس على حياته فغادر القاهرة لاجئا الى الاسكندرية فى ٤ من مارس ١٨٠٤ قبل أن يقوم محمد على بانقلابه ليلة ١٢ ـ ١٣ مارس ١٨٠٤ وهو الانقلاب الذى أطاح فيه بحليفيه ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى، فاذا كانت العلاقات وثيقة بين محمد على وبين ماتيو لسبس الذى نظر اليه ـ كما تزعم الاسطارة الفرنسية ـ على أنه رجل الموقف وسيد الغد ، فهل كان من المعقول أن يترك لسبس صفيه ومختاره محمد على فى الساعة الحرجة التى قام فيها بانقلابه ؟ لقد عاد لسبس بعد ذلك الى القاهرة تنفيذا لتعليمات بونابرت ، ولكن لم تطل اقامته بها فرجع الى الاسكندرية بعد أن أشرف على ترحيل الرعايا الفرنسيين من العاصمة الى الثغر كاجراء أمن وقائى بسبب الاضطرابات ، فبلغ بهم الاسكندرية فى ١٧ من سبتمبر ١٨٠٤ وارتحل هو من مصر فى ١٩ من نوفمبر ١٨٠٤

وتدل تقارير ماتيو لسبس التى بعث بها الى وزارة الخارجية الفرنسية أثناء اقامته فى مصر على أنه كان قليل الثقة فى مقدرة محمد على ، فقد قرر أن هذا الالبانى لا يتمتع بعبقرية أو نبوغ يمكنانه من ابتكار خطة واسعة ووضع برنامج شامل وتدبير الوسائل اللازمة لتنفيذه(١) • ووصفه فى رسالة أخرى وهو يتكلم عن أقطاب

(١) أنظر الوثيقة رقم ١١٠ فى المصدر السابق •

الحكومة الثلاثية فى القاهرة ــ ابراهيم بك والبرديسي ومحمد علي ـ بأنه لص وأنه على شاكلة قطاع الطرق · وقال متهكما فى نفس الرسالة انه يشعر بسعادة اذ يعيش فى وكر هؤلاء القتلة العصاة المشاغبين الذين يتظاهرون بالحيدة الكاذبة المزيفة بينما هم جميعا قد باعوا أنفسهم للانجليز(١) وقبل أن يغادر مصر كانت مكانة محمد على قد هبطت فى عينى ماتيو لسبس بدلا من أن تعلو فقد ذكر أن المال هو المحرك الاول لتصرفاته ·

ونضيف الى هذه النقاط حقيقة هامة هى الخطوة الاولى والاخيرة التى اتخذها نابليون وسط السياسة السلبية التى اتبعها ازاء مصر · وكانت هذه الخطوة فى لحمتها وسداها تعبيرا عن اتجاه نابليون الى التعاون مع الامراء المماليك وليس مع محمد على لاقامة حكومة ثابتة الدعائم تقضى على الفوضى السائدة فى مصر ، وترعى المصالح الفرنسية فيها ، وتقف فى وجه انجلترا اذا حاولت غزو مصر · فقد أوفد الامبراطور نابليون الى مصر فراميرى Frameri بلغ القاهرة فى ٣٠ من ابريل ١٨٠٤ يحمل رسالة بالشفرة الى ماتيولسبس يطلب فيها الاتصال بالامراء المماليك والوقوف منهم على المساعدة التى ينشدونها من فرنسا · وقد بعث لسبس برسالتين بهذا المعنى الى ابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى عن طريق السيدة نفيسة أرملة مراد بك · ولكن أبدى هذان الاميران نوعا من التحفظ خشية أن يقع ردهما فى أيدى العثمانيين بسبب الرقابة الصارمة التى كان يفرضها العثمانيون على تحركات المماليك · فلجأ لسبس الى يوسف دوكلوس Joseph Duclos أحد رجال الحملة الفرنسية الذين آثروا البقاء فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ودخل فى خدمة عثمان بك البرديسى واكتسب ثقته · وقد ذكر له البرديسى أنه فى حاجة الى نجدة عسكرية فرنسية قوامها ثلاثة آلاف جندى

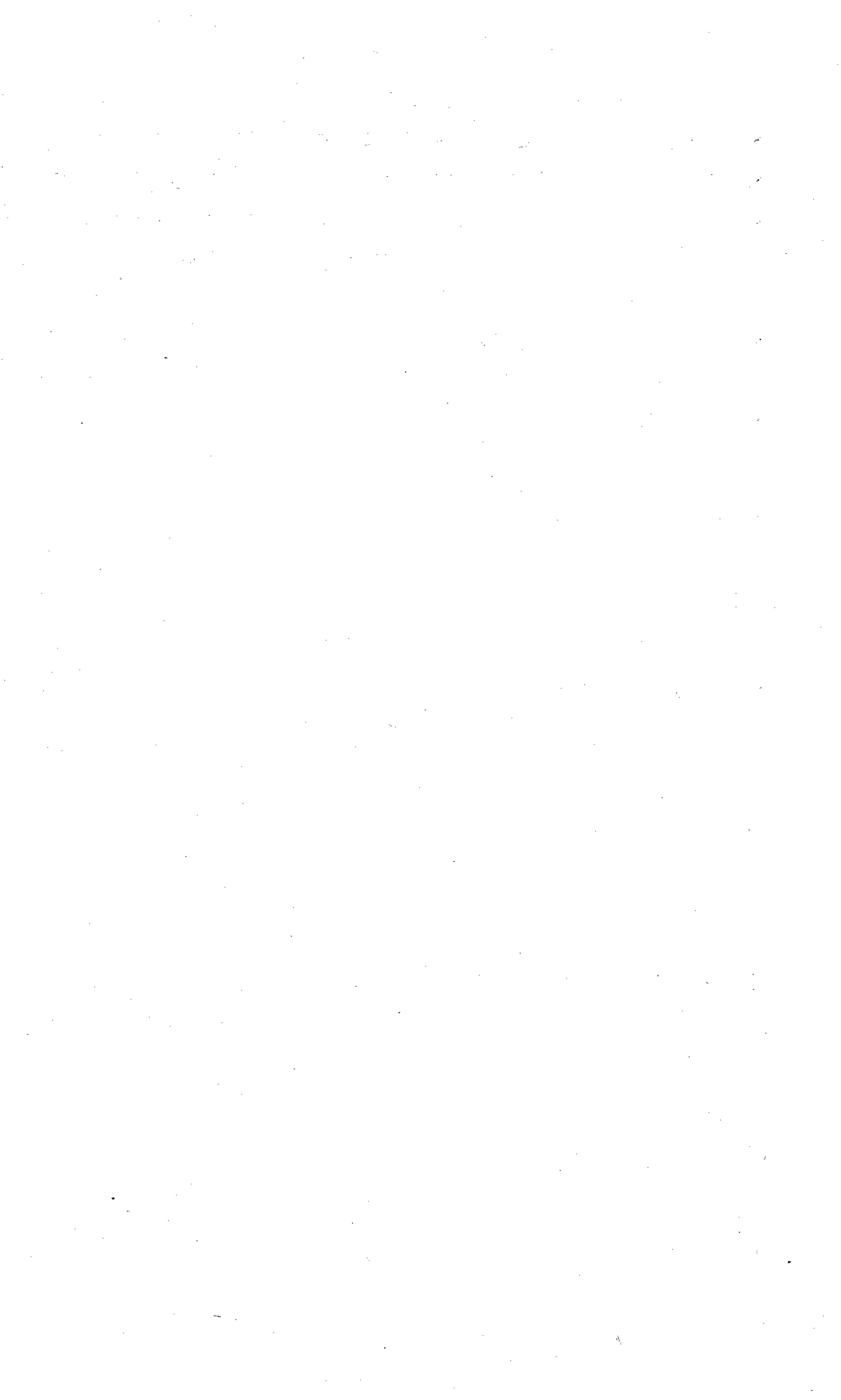
(١) أنظر الوثيقة رقم ٦٠ فى المصدر السابق ·

وخمسة آلاف بندقية بالسونكي وعشرة مدافع ميدان تسحبها الخيل وخمسة مدافع هاون وألف سيف وذخائر حربية أخرى فضلا عن قرض قدره مائتا مليون فرنك · واتفق على أن تكون دمياط هى الميناء الذى تفرغ فيه هذه الاسلحة (١) · واذا كانت خطوة نابليون قد وقفت عند هذا الحد فانه يهمنا هنا أن نقرر أن تفكير امبراطور فرنسا لم يتجه الى محمد على لقيام مثل هذا التعاون ووضعه على رأس الحكومة التى تبغى الحكومة الفرنسية اقامتها فى مصر · وبذلك ينتفى قيام نابليون بأى مسعى لدى دوائر الباب العالى لمساعدة محمد على بتعيينه واليا على مصر ·

لقد أدرك محمد على بدهائه أنه ليس فى مقدور قنصل فرنسا ولا فى استطاعة قنصل انجلترا أن يعملا شيئا سواء لمصلحته أو ضد مصلحته ، ولكنه أدرك أن القوة التى يعتمد عليها تتمثل فى حلفاء جدد لم يفطن لهم من سبقه من الولاة · وكان هؤلاء الحلفاء هم الشعب وزعماؤه المشايخ علماء الأزهر واعتمد بوجه خاص على السيد عمر مكرم كبير زعماء مصر ·

---

(١) أنظر تفاصيل وافية عن هذه الاتصالات فى الوثيقة رقم ١٤٨ فى المصدر السابق ·



البَابُ الخامِسُ

مساندة الزعيم لمحمد على في الأزمات

الفصل الثانى عشر

أزمتا الحركة المملوكية والنقل من مصر

لم تمض أربعة أيام على رحيل خورشــــيد من القاهرة حتى واجه محمد على موقفا عســكريا دقيقــا كاد يعصف به لولا أن نجح عمر مكرم فى تخفيف حدته واستطاع محمد على اجتياز الازمة بسلام • فكر المماليك فى تدبير هجوم غادر على القــاهرة ليستولوا عنوة على الحكم واختاروا يوم ١٦ من أغسطس ١٨٠٥ موعدا لتنفيذ الهجــوم ، وكان هو اليوم المحدد للاحتفــال بوفاء النيــل حيث يخرج محمد على وجنــوده الى مصر القديمــة للاشتراك فى الحفل ، وتكون القــاهرة خاليــة من المــدافعين • وأراد الممــاليك اســتمالة عمر مكرم ليقف الى جانبهم ضد محمد على ولكنه رفض التعاون معهم • واتفق الاثنان على استدراج المماليك الى داخل القاهرة ، وطلب عمر مكرم من الأهالى الذين يحرسون باب الفتوح أن يتركوا المماليك يدخلون المدينة • وفى اليوم المحدد لم يذهب محمد على ولا عمر مكرم الى مصر القديمة، اذ تم كسر السد وفتح الخليج ليلا دون أن يشعر أحد بهــذه الحركة •

ومع شروق شمس اليوم المحدد دخل المــاليك من باب الفتوح وساروا بأسلحتهم مخترقين شوارع العاصمة فى حشود عسكرية وتسير أمامهم موسيقاهم • وبلغت بهم الغفلة ان اعتقدوا أن الشعب تجاوب معهم واتجه رؤســاؤهم الى دار عمر مكرم فرفض مقابلتهم فذهبوا الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ

الازهر . وهناك وافاهم عمر مكرم وطلبوا تأليب الشعب على محمد على . فأوضح لهم عمر مكرم ألا ينتظروا منه عونا أو تأييدا، وأنكر عليهم حركتهم . فادركوا أن الزعامة الشعبية لا تؤيدهم وهبطت روحهم المعنوية . ودار القتال رهيبا فى شوارع القاهرة بين المماليك وبين جنود محمد على . وعمل عمر مكرم على تجنيب الشعب ويلات هذا القتال الذى انتهى بهزيمة منكرة لقيها المماليك . وسيق الأسرى وحملت رءوس القتلى الى محمد على الذى أمر باستدعاء الجزارين فسلخوا الرءوس امام الأسرى ثم أحضر « جماعة من الاسكافية فحشوها تبنا وخيطوها » ثم قتل جميع الاسرى وفعل برءوسهم ما فعله برءوس القتلى ووضعها فى صناديق وشحنت الى الآستانة .

ولا ريب أن الدور الذى قام به عمر مكرم فى التخلى عن قضية المماليك كان له أثره فى فشل الحركة المملوكية اذ لو كان الشعب قد انضم الى المماليك لتعذر على جنود محمد على الحرب فى جبهتين فى وقت واحد . وكان المصريون فى نشوة الانتصار على الباشا السابق أحمد خورشيد وروح النضال متأججة فيهم ، فقد تم هجوم المماليك بعد أربعة أيام من ترحيل خورشيد . وكانت الاسلحة لا تزال فى أيدى القاهريين تنفيذا للأمر الذى كان عمر مكرم أصدره « باستمرار الناس على التحذر والسهر وضبط الجهات . »

أزمة النقل من مصر :

وما لبث أن واجه محمد على أزمة عنيفة حين أصدر السلطان فى يونيو ١٨٠٦ عدة فرمانات بنقل محمد على الى سالونيك ونقل موسى باشا والى سالونيك الى مصر والعفو عن الأمراء المماليك . وأرسل الباب العالى أسطولا بقيادة صالح باشا قبودان الذى بلغ الاسكندرية فى ٢٧ من يونيو ١٨٠٦ للاشراف على تنفيذ الوضع

السياسى الجديد فى مصر • وكانت هذه هى أخطر أزمة تهددت محمد على منذ أن عين واليا على مصر ولم تجر العادة أن يكون استبدال وال بوال مقرونا بمثل هذه المظاهرة الحربية •

ولما وصل صالح باشا الى الاسكندرية أرسل – كاجراء تمهيدى – خطابا الى عمر مكرم فيه دعوة صريحة لأهل القاهرة وعلمائها بطاعة أمر السلطان وحمل السلاح فى وجه محمد على وجنوده اذا رفضوا مغادرة القاهرة . كما تلقى عمر مكرم خطابا بهذا المعنى من محمد بك الألفى . أما محمد على فكان قد وقف على تفاصيل هذا التغيير السياسى وعول على التمسك ببقائه فى مصر ولو أدى الأمر الى محاربة السلطان واتجه فكره منذ ظهور الأزمة الى عمر مكرم وأفضى اليه برغبته فى عدم تنفيذ الفرمان والاستعانة بالزعامة الشعبية وتعبئة الرأى العام للوقوف الى جانبه واتخاذ اجراءات عسكرية لمواجهة تطورات الموقف وفى نفس الوقت يتظاهر محمد على بالامتثال لأوامر السلطان وطلب محمد على من عمر مكرم مساندته فى هذه الازمة فلقى استجابة سريعة .

أرسل صالح باشا الفرمان الى محمد على فتظاهر بأنه مستعد لتنفيذ أمر النقل فورا ، ولكنه انتحل العذر التقليدى وهو ضرورة دفع المرتبات المتأخرة للجنود قبل رحيله عن مصر وتبلغ عشرين ألف كيس ، وقرر أن موارد الحكومة تعجز عن تدبير هذا المبلغ فى أمد وجيز واستدعى محمد على بعد ذلك عمر مكرم والمشايخ اليه وأطلعهم على الفرمانات وفيها ان الامراء المماليك تعهدوا للسلطان بخدمة الدولة والحرمين الشريفين وارسال غلالها ودفع الجزية وتأمين البلاد وان السلطان عفا عنهم وفق هذه الشروط وبشرط أن يضمن المشايخ والعلماء عهدهم . وانهى محمد على الاجتماع بمطالبة العلماء بالتفكير مليا فى هذا الموضوع.

كانت الفقرة الاخيرة هى الثغرة التى اســتطاع محمد على أن ينفذ منها الى عقــول الزعماء وهى أن الباب العالى يعتبرهم ضامنين وكافلين للماليك عندما تصير اليهم مقاليد الحكم فى مصر. وكان محمد على مطمئنا كل الاطمئنان الى أن عمر مكرم سينجح فى اقناع المشايخ بأن يقفــوا موقفا ايجابيا فى هذه الأزمة فيعلنوا معارضتهم صريحة فى عودة الامراء المماليك الى الحكم تأسيسا على أنهم لا يستطيعون ضمان سلوك المماليك ويسجلون تمسكهم ببقاء محمد على واليا على مصر .

كان الطريق أمام عمر مكرم ميسرا معبدا لسببين أحــدهما اقتصادى والآخر ســياسى اجتماعى · أما السبب الاقتصادى فان محمد على كان قد أغدق نعمه ظاهرة وباطنة على المشايخ علماء الأزهــر فــوزع التزام القرى التى كانت فى أيدى المـــاليك على المشايخ وأصبح الرزق يأتيهم رغدا من كل مكان ، وكان محمد على لا يزال فى حاجة الى تأييد المشايخ له فاستكثر لهم من حصص الالتزام . ونجم عن ذلك أن تلاقت مصلحتهم مع بقاء محمد على فى مصر خوفا من أن يعصف المماليك بهذه الامتيازات . وكان محمد على قد دأب لمصلحته على طلب المشورة من المشايخ فى شــئون الحكم وظفر هؤلاء فى أعين الجمــاهير بمركز ســياسى واجتماعى مرموق .

وعقد عمر مكرم اجتماعا فى داره شهده ديوان افنـــدى ــ السكرتير الخاص لمحمد على ــ ومترجم تركى واشترك الثــلاثة فى وضع وصياغة مذكرة تكتب باسم المشايخ الى الســلطان . وفى اليوم التالى أرسل محمد على هذه المذكرة الى الشيخ الشرقاوى شيخ الازهر وطلب منه توقيع المشايخ عليها « فلم تسعهم المخالفة»

وانطوت هذه المذكرة على التماس من العلماء باعفائهم من كفالتهم للأمراء المماليك « لان شرط الكفيل قــدرته على المكفول

ونحن لا قدرة لنا على ذلك » وأخذت المذكرة تسرد أمثلة من مظالم المماليك فى مصر ثم قالت « ولا يمكننا التكفل والتعهد ، لاننا لا نطلع على ما فى السرائر ، وما هو مستكن فى الضمائر ، فنرجو عدم المؤاخذة فى الامور التى لا قدرة لنا عليها ، لاننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة المتمردين الذين اهلكوا الرعايا ودمروهم » ودافعت المذكرة عن محمد على وسياسته فى مصر ويلاحظ أن المذكرة كانت حريصة على اعلان ولاء المشايخ للسلطان على أساس أنه خليفة المسلمين وانصب الالتماس على الاعتراض على نقل محمد على وأعادة المماليك الى حكم مصر ورفض العلماء كفالة المماليك . وقد كتبت نسختان من هذه المذكرة أرسلت احداهما الى السلطان والاخرى الى صالح باشا قبودان فى الاسكندرية .

لم يكترث صالح باشا بهذه المذكرة واعتقد ان فى مقدوره تنفيذ الفرمانات التى حملها معه بتغيير الوضع السياسى فى مصر وكان مسرفا فى تفاؤله على أساس أن محمد على لا يجرؤ على أن يكون للسلطان عصيا ، وأن المماليك سيستفيدون من هذه الفرصة الذهبية التى اتيحت لهم لاستعادة سلطتهم فيوحدون صفوفهم واعتقد ان مماليك الوجه القبلى سوف ينفرون خفافا وثقالا الى محمد بك الالفى ويشكلون جبهة متحدة ضد محمد على .

تأسيسا على هذا الاعتقاد أرسل صالح باشا قبودان خطابا الى السيد عمر مكرم وخطابا ثانيا الى الشيخ محمد السادات وخطابا ثالثا الى المشايخ عامة . وكلها على نسق واحد وباللغة العربية « ومضمون الكل الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته سالونيك ، وولاية السيد موسى باشا المنفصل عنها مصر ، وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر والاجتهاد فى المعاونة ، وتشهيل محمد على باشا فيما يحتاج اليه من السفن ولوازم السفر ليتوجه هو وحسن باشا والى جرجا من طريق

دمياط بالاعزاز ، وصحبتهما جميع العساكر من غير تأخير حسب الأوامر السلطانية » وقد جاء بهذه الخطابات من الاسكندرية رسول خاص . وقد وصل القاهرة فى ١٤ من يوليو ١٨٠٦ وكان يحمل ايضا خطابا بهذا المعنى مكتوبا باللغة التركية الى محمد على .

ولم يكد يتلقى المشايخ الخطاب المرسل اليهم حتى توافدوا على دار عمر مكرم ، وعقدوا اجتماعا طارئا ورأوا أن ينتقلوا بكامل هيئتهم الى محمد على ولما استقروا بمجلسه دارت مناقشة أورد الجبرتى طرفا منها على النحو الآتى :

محمد على : هل وصلت اليكم المراسلات الواردة صحبة السلحدار ؟

المشايخ : نعم

محمد على : وما رأيكم فى ذلك ؟

الشيخ عبد الله الشرقاوى : ليس لنا رأى ، والرأى ما تراه . ونحن الجميع على رأيك .

محمد على : فى غد ابعث اليكم صورة تكتبونها فى رد الجواب .

وفى اليوم التالى بعث محمد على لهم بصورة عريضة نشر الجبرتى مضمونها فقال « ان الأوامر الشريفة وصلت الينا ، وتلقيناها بالطاعة والامتثال ، الا أن أهل مصر ورعيتها قوم ضعاف ، وربما عصت العساكر عن الخروج ، فيحصل لأهل البلد الضرر وخراب الدور وهتك الحرمات وانتم أهل للشفقة والرحمة والتلطف » وقد نسخ المشايخ صورة من هذه المذكرة لترسل الى صالح باشا قبطان ، وكانت هذه هى العريضة الثانية التى

أرسلوها اليه وقد سافر بها شاكر أغا السلحدار الى الاسكندرية ومحملا بهدايا من محمد على الى صالح باشا . والواقع ان هذه المذكرة تخفى وراءها ما بيته محمد على من نزوع الى العصيان وتمسك بالبقاء واليا على مصر مستندا الى تأييد الزعامة الشعبية له ومشركا اياها معه فى موقف المعارضة • وقد أفصح محمد على فى احدى المرات عن مكنون نفسه فى حديث له مع فيلكس مانجان Felix Mengin وهو موظف دبلوماسى فى القنصلية العامة لفرنسا بمصر يقرر انه كان بصفته الدبلوماسية يتصل بمحمد على كل يوم ابان هذه الازمة فقال « لقد استوليت على القاهرة بحد السيف ، ولن اتركها الا بحد السيف . ان القاهرة ليست حماما عاما يدخله أى فرد بسهولة » (١) •

غير أن القبطان باشا كان لا يزال عند رأيه وجشعه : فقبل الهدايا من ناحية ، ورفض الأخذ بما جاء فى عريضة العلماء الثانية من ناحية ثانية ، وأرسل رسولا الى القاهرة يحمل رده على عريضة المشايخ ، واذا به يقول « ان القبودان لم يقبل هذه الأعذار ولا ما نمقوه من التمويهات التى لا أصل لها ، ولابد من تنفيذ الأوامر وسفر الباشا ونزوله هو وحسن باشا وعساكرهم وخروجهم من مصر . وذهابهم الى ناحية دمياط وسفرهم الى الجهة المأمورين بالذهاب اليها ، ولا شيء غير ذلك أبدا • »

لم يكن أمام قائد الاسطول وموسى باشا الوالى الجديد الا أن يعلقا آمالهما على الصراع الذى احتدم بين محمد على وبين محمد بك الالفى . واعتقد ان القوات المملوكية سوف تحرز انتصارا خاطفا تسحق به قوات محمد على وترغمه مع بنى جنسه من الجنود الالبانيين على الرحيل عن مصر • وأخذ صالح

---

(١) Mengin, ouvr. eit, t I p. 221

باشا وموسى باشا يراقبان الموقف الحربى وتطـوراته ، وطفق الثانى يتلقى الهدايا وهى تنهال عليه من يمين وشـمال : من الطرفين المتحاربين محمد على والالفى . ولكن اغفل قبـودان باشا من حسابه عاملا هاما هو الدور الذى قام به عمر مكرم فى تحريض سكان دمنهور على الاستبسال فى مقاومة قوات الألفى.

كاد الالفى حين علم بتحرك الاسطول العثمانى الى الاسكندرية قد انتقل بقواته من حوش عيسى بالبحيرة الى دمنهـور يروم الاستيلاء عليها لاتخاذها قاعدة له فحاصر دمنهور ووجه نداء الى سكانها قال فيه .. « لقد علمت أن فرمانا صـدر من البـاب العالى باعطائى حكومة مصر ، وسوف اذهب الى القاهرة فور تسلمى له لتنفيذ الأوامر التى يتضمنها ، واقوم حينئذ بتصريف الأمور ، ولذلك فانى أطلب منـكم أن تفتحوا لى ابواب مدينتكم حتى يكون هذا العمل من جـانبكم دليـلا على ولائكم وطاعتكم للسلطان وتنفيذكم لاوامره وعندما اتسلم مقاليد الحكم سـوف تكافئون على مسلككم . » والكن بدلا من التسليم اسرع اهل دمنهور بارسال هذا النداء الى عمر مكرم الذى اعطاه بدوره الى محمد على وبعث عمر مكرم يطلب منهم عدم تسـليم المدينـة ويشجعهم على المضى فى محاربة الالفى الذى تعذر عليه اقتحـام المدينة .

وتلاقت قوات محمد على مع قوات الالفى فى معركة داميـة فى النجيلة ـ على الشاطىء الغربى لفرع رشيد جنوبى الرحمانية ـ وانتصر المماليك انتصارا ساحقـا وألقوا بجنود محمد على فى النيل ويقول الجبرتى ان نهر النيل امتلأ سطحه بطراطير الدلاة اذ كان من عادة هؤلاء الجنود أن يضع كل منهم فوق رأسـه طرطورا . وكان لهذه الهزيمة وقع اليم فى نفس محمـد على وزادت هواجسه حين علم بتسـلل جواسيس الالفى والقبطان

باشا الى القاهرة يحرضون أهلها على الثورة فى وجه محمد على وعمل عمر مكرم على توعية الجماهير فى ذلك الوقت العصيب .

وتوالت مساعدات عمر مكرم لمحمد على فى مراحل الازمة فقد واجهت الاخير مشكلة طارئة ساعده عمر مكرم فى تسويتها بعد ان بدت بوادر استفحالها . تخاصم عرب الحويطات والعبابدة واحتشد الفريقان حول القاهرة ونشب القتال بينهما عنيفا جامحا هادرا وتعذر السفر بين القاهرة والبلاد المحيطة بها ، وانضم محمد على الى عرب الحويطات . وتدخل عمر مكرم فجمع زعماء الفريقين فى داره وأصلح بينهم وفاءوا الى أمر الله . واستطاع عمر مكرم ان يقضى على عامل من عوامل الاضطراب كان فى مقدور جواسيس الاتراك والمماليك استغلاله لمصلحتهم ومن جهة اخرى اراح عمر مكرم سكان القاهرة من مضايقات قتال العربان وعادت وسائل الاتصال بين العاصمة وما جاورها من الريف لتأخذ مواد التموين طريقها الى اهل القاهرة فى يسر وأمن

واتجه الالفى بعد انتصاره فى معركة النجيلة لمحاصرة دمنهور مرة اخرى واستمع أهلها لتوجيه عمر مكرم وكانت المدينة داخلة فى دائرة التزامه وصمموا على الدفاع عن مدينتهم حتى النهاية وامتد حصارها ثلاثة أشهر وفشل الالفى فى الاستيلاء عليها .

رأى صالح باشا اخفاق المماليك العسكرى أمام دمنهور وادرك انهم لا يزالون يعيشون بعقليتهم القديمة من الانقسام والتنافس ، فقد ظل الامراء القبليون مرابطين فى معاقلهم فى الصعيد ولم ينضموا الى الالفى وكان محمد على قد عرف نقط الضعف فى القبطان باشا وهى شراهته لجمع المال لنفسه فأغدق عليه الكثير من الرشا والهدايا . وفى نفس الوقت كان رسل محمد على

فى الاستانة يبدون استعداده لدفع مزيد من الاموال ثمنا لشراء موافقة السلطان على ابقائه فى مصر وأصبح واضحا ان القبطان باشا عاجز عن اقامة الوضع السياسى الجديد بالطرق السلمية ولم يكن أمام الباب العالى سوى احدى وسيلتين اما تعزيز الحملة عسكريا حتى تستطيع طرد محمد على وجنوده من مصر واما التسليم بالامر الواقع وابقاء محمد على فى منصبه • ودارت اتصالات بين القبطان باشا وبين الباب العالى اسفرت عن تثبيت محمد على فى منصبه بشروط ثلاثة هى ان يضع المشايخ عريضة جديدة يقررون فيها تمسكهم بمحمد على تأكيدا لما ورد فى عريضتيهم السابقتين وكان الغرض من هذا الشرط هو تغطية موقف السلطان واخفاء فشله فى نقل محمد على . اما الشرط الثانى فقيام محمد على بدفع أربعة آلاف كيس أى عشرين ألف جنيه ، وكان الشرط الثالث هو أن يقيم ابنه ابراهيم رهينة فى الآستانة حتى يتم دفع المبلغ • وقبل محمد على هذه الشروط •

كتب المشايخ عريضة ثالثة ومن بين ثنايا السطور التى كتبها الجبرتى يتضح دور عمر مكرم فى هذه المذكرة فهو يقول ان هذا العرضحال « لم يطلع عليه الا بعض الافراد المتصدرين » وكان عمر مكرم هو رأس المتصدرين وأكثر زعماء الشعب التصاقا بمحمد على • وصدر الفرمان بتثبيت محمد على واليا على مصر وتلى هذا المرسوم فى حفل كبير وكان مما جاء به « ابقاء محمد على باشا واستمراره على ولاية مصر حيث ان الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس ، وقبلنا رجاءهم وشهادتهم ... »

والحق أن محمد على اعتمد على ثلاث وسائل لمواجهة أزمة نقله من مصر . كانت الوسيلة الاولى علنية تمثلت فى الزعامة الشعبية وعلى رأسها عمر مكرم الذى كان لمحمد على نعم العضد

الأمين . أما الوسيلة الثانية فكانت مستترة ونعنى بها الرشوة قدمها محمد على بسخاء من أموال الشعب الى السلطان ورجالاته . أما الوسيلة الثالثة فهى القوة العسكرية وبينما نجحت الوسيلتان الاوليان : الزعامة الشعبية والرشوة من أموال الشعب فقد أخفقت الوسيلة الثالثة وكانت آية هذا الفشل الهزيمة المنكرة التى لقيتها قواته فى معركة النجيلة حتى امتلأ سطح النيل بطراطير جنوده الدلاة .

الفصل الثالث عشر

دور الزعيم ابان العدوان البريطانى على مصر سنة ١٨٠٧

بواعث الحملة البريطانية :

تعرضت مصر فى ربيع ١٨٠٧ لحملة عسكرية بريطانية كانت تضم أخلاطا شتى من الانجليز ومن الجنود المرتزقة فى شبه الجزيرة الايطالية ومن المهاجرين الفرنسيين الذين اتخذوا موقفا عدائيا من الثورة الفرنسية . وقد تحركت هذه الحملة من جزيرة صقلية التى اتخذتها انجلترا احدى القواعد العسكرية فى البحر المتوسط فى حروبها ضد نابليون .

ولم يكن هدف الحملة غزو مصر واحتلالها ولكن احتلال الاسكندرية فحسب (١) لعدة أغراض ، منها : منع نزول حملة فرنسية فى هذه البلاد ، اذ سيطرت على عقول رجال السياسة والحرب فى انجلترا أن فرنسا ستحاول لا محالة انفاذ حملة عسكرية مرة أخرى الى مصر . واعتقدت الحكومة البريطانية أنها ارتكبت حماقة كبرى بجلاء القوات البريطانية عن مصر فى مارس ١٨٠٣ تنفيذا لصلح أميان Amiens الذى عقد بينها وبين فرنسا بتاريخ ٢٧ مارس ١٨٠٢ ، لأن الحرب سرعان ما استؤنفت بين الدولتين بعد شهرين من جلاء القوات البريطانية عن مصر ، ورأت

---

(١) أنظر الوثيقتين رقم ١ ، ورقم ٩ فى مجموعة الوثائق الانجليزية .
Douin G. et Mme Fawtier Jones, L'Angleterre et l'Egypte. La campagne de 1807 Le Caire 1928.

الحكومة البريطانية أنه كان يجدر بها التمسك ببقاء قواتهــا فى مصر على غرار ما فعلت فى جزيرة مالطة على الرغم من أن صلح أميان قد نص على جلاء الانجليز عن مصر ومالطة ، ومما زاد فى قلق الحكومة البريطانية أن ميست Misset القنصل البريطانى العام فى مصر أخذ يردد فى رسائله العديدة لحكومتــه أن مصر قد مزقتها فوضى سياسية عارمة ، وأن العثمانيين عاجزون عن دعم نفوذهم فيها ، وأن الامراء المماليك منقسمون متناحرون ، وأن الوكــلاء الفرنسيين يبذلون مساع متصلة لدى محمد على وبعض الامراء المماليك لبسط النفوذ الفرنسى فى ربوعها . وخرج القنصل العام من هذه الصورة القاتمة التى رسمها لحكومته بأن مصر ســتكون فريسة سهلة للفرنسيين . فكان العامل الحاسم فى ارسال الحملة هو تصحيح الخطأ الذى اعتقدت الحكومة البريطانية انها وقعت فيه بتنفيذ الجلاء عن مصر فى مارس ١٨٠٣ . وكان من بين أغراض الحملة أيضا تأييد البيوت المملوكية الصديقة لبريطانيا أى جماعة محمد الالفى بك تمهيدا لانشاء حكومة مملوكية ذات ميول ودية نحو انجلترا ، وتقوم على أنقاض حكومة محمد على وتعمل على اقصاء النفوذ الفرنسى وبسط النفوذ البريطانى فى سائر البلاد ، ووضع نظام للدفاع عن مصر بمعاونة المماليك الموالين لها يحول بين الفرنسيين وبين ما يشتهون من امتلاك مصر اذا جاءوا بحملتهم المرتقبة اليها . واستهدفت انجلترا من هذه الحملة أيضا الضغط على الباب العالى وازعاجه لحمله على نبذ صداقة فرنسا والوقوف الى جانب انجلترا وروسيا .

كانت الحملة بقيادة فريزر Major General Mackenzie Fraser وظهرت تجاه الاسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧ وبدأ انزال الجنود فى اليوم التالى . ولقى الغزاة مقاومة من أهل الاسكندرية الذين وقفوا بأسلحتهم خلف أسوار المدينة ، ولم يكن حاكمها الى ذلك

الوقت تابعا لحكومة القاهرة ، بل كان خاضعا مباشرة للباب العالى وكان رجلا تركيا يسمى أمين أغا استطاع قنصل بريطانيا العام رشـــوته فسلم الاسكندرية ودخلها جنود الحملة فى ٢٠ من مارس ١٨٠٧ .

أهل دمنهور يتصلون بعمر مكرم

تلقى السيد عمر مكرم فى ٢ من أبريل ١٨٠٧ رسالة من أهل دمنهور قالوا فيها ان أفراد حامية الاســكندرية قد ولوا الأدبار بمجرد وصول البريطانيين اليها ، وانهم قد حضروا الى دمنهور، واستولى الذعر على كاشف المدينة (١) وامتد هذا الذعر الى جنود حامية دمنهور وعزموا على الهرب منها فناشدهم ســكان المدينة الثبات فى مواقعهم والانضمام اليهم للوقوف فى وجه المعتدين ، وقالوا لهم ـ كما جاء فى خطابهم الى عمر مكرم ـ « كيف تتركونا وتذهبون ؟ ولم تروا منا خلافا . وقد كنا فيما تقدم من حروب الالفى من أعظم المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا فى حروب الانكليز ؟ » ولكنهم لم يستمعوا لصوت الضمير ، وأعمى الفزع والجبن بصائرهم فجمعوا أمتعتهم وأثقالا مع أثقالهم وخرجوا ليلا من دمنهور الى فوه . وفى اليوم التالى أرسل كاشف دمنهور قوة من رجاله أخذت مدافع وذخائر وأسلحة الحامية من مواقعها وهكذا لم يكتف كاشف دمنهور بالهروب منها بل حال بين سكانها وبين استخدام أسلحة الحامية فى الدفاع عن المدينة . وقد سجل سكان دمنهور كل هذه الوقائع فى خطابهم الى عمر مكرم وكان

---

(١) الكاشف لقب يطلق على حاكم اقليم أقل مساحة ومرتبة وأهمية من المديرية . وكان يطلق على الاقليم الذى يحكمه الكاشف : كشوفية . أما المديرية فكان يطلق عليها صنجقية يحكمها صنجق . وقد تغيرت هذه الاسماء بعـــد أن استقر محمد على فى حكم مصر .

خطابهم يفيض بالأسى والألم من تصرفات هذا الحاكم (١) • وكان الاعتقـاد السائد لديهم أن الحملة البريطانية ستسير على نفس الخطة الحربية التى انتهجتها الحملة الفرنسية بمعنى أنهم كانوا يتوقعون أن يزحف البريطانيون على دمنهور وهم فى طريقهم الى القاهرة على غرار ما فعل بونابرت •

دور الزعيم فى استنفار الشعب لرد العدوان البريطانى

حمل الشعب المصرى عبء الكفاح لصد العدوان بصورة رائعة تجلت فيها روح البذل والتضحية والفداء ، وأعادت الى الأذهان ذكرى نضاله المجيد ابان العدوان الفرنسى • يقول الجبرتى ان اهالى الاسكندرية حين ترامت اليهم انباء الغزو البريطانى المحتمل شرعوا فى أواخر فبراير ١٨٠٧ فى تحصين القلاع والأبراج المقامة فى الاسكندرية وأبى قير • ولكن لم تجد نفعا هذه الاستعدادات الحربية أمام الخيانة التى حمل لواءها أمين أغا حاكم الاسكندرية المرتشى •

فلما بلغت القاهرة أنباء الحملة واحتلالها الاسكندرية عقدت عدة اجتماعات كان بعضها فى منزل عمر مكرم والبعض الآخر فى منزل نائب محمد على ـ وحضر هذه الاجتماعات كبار المشايخ وكتبوا الى محمد على ـ وكان فى الصعيد يقاتل المماليك ـ يطلبون منه العودة ومن معه من الجنود «ليستعد لما هو أولى وأحق بالاهتمام» ولكن محمد على تملكه فزع شديد يصفه الجبرتى فى أكثر من موضع فيقول « داخله وهم كبير ، ارتبك فى أمره ، انحلت عزائمه » وعزم على العودة متثاقلا متباطئا فى السير ظنا منه أن البريطانيين يسبقونه الى القاهرة فيسير مشرقا الى الشام ، ويكون غيابه عن القاهرة والوجه البحرى مبررا له أمام الباب العالى فى عدم اشتباكه مع

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ص ٤٦ ـ ٤٧ حوادث ٢٣ من محرم ١٢٢٢ •

البريطانيين (١) ، ولكنه فى نفس الوقت لم يستسلم تماما لليأس، فظلت تراوده الآمال فى أن تساعده الظروف على اجتياز هذه الأزمة ويظل متربعا فى حكم مصر . فأرسل الى المشايخ يطلب اليهم القيام بدور الوساطة فى الصلح بينه وبين الأمراء المماليك وأنه يقبل كل ما يشترطونه « ولا يخالفهم فى شىء يطلبونه أبدا »

لم ينتظر عمر مكرم قدوم محمد على بل تولى قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها ، فطلب من الجماهير التأهب لقتال الانجليز وأمرهم بحمل السلاح ، كما أمر تتعطيل الدراسة فى الازهر كى يتفرغ المشايخ المدرسون والمجاورون — وهم طلاب الازهر — للجهاد (٢) • وكانت دعوة عمر مكرم رجال الازهر الى المشاركة فى القتال دليلا على أن الشعب لم يكن ينظر اليهم على أنهم رجال دين وعلم فحسب بل رجال قتال وجهاد ودفاع عن الذمار أيضا (٣) •

اما الضباط والجنود العثمانيون الذين كانوا فى القاهرة فقد عزم أكثرهم على الفرار الى الشام عن طريق البر واسرعوا فى تصفية أعمالهم المدنية التى كانوا يزاولونها وأهمها اقراض المصريين بالربا واستبدلوا بنقودهم عملات ذهبية حتى يسهل حملها معهم فارتفعت أسعار الذهب ارتفاعا فاحشا كما طلقوا نساءهم وباعوا أمتعتهم واشتروا أدوات الارتحال اللازمة للسفر برا .

وعقد زعماء الشعب اجتماعا كبيرا فى ٧ من ابريل ١٨٠٧ فى بيت القاضى حضره عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير وغيرهم من كبار المشايخ والدفتردار — مدير الشئون المالية — وبعض الضباط العثمانيين مثل عمر بك رئيس الجنود

---

(١) ص ٥٤ من المصدر السابق •

(٢) Dr Sabry M., ouvr. cit., p. 28

(٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على • الطبعة الثانية ١٩٤٧ ص ٤٦ •

الأرناؤود • فى هذا الاجتماع طلب عمر مكرم أن يمتنع الجنـــود العثمانيون الذين آثروا البقاء فى القاهرة عن أعمال النهب والسلب وايذاء الشعب وأن يقف الجنود مع الشعب كتلة واحدة متراصة أمام البريطانيين وأن يستعد الجميع « لحربهم وقتالهم وطردهم فانهم أعداء الدين والملة ، وقد صاروا أيضا أخصاما للسلطان ، فيجب على المســـــلمين دفعهم » واتفقوا فى هذا الاجتماع على الشروع فى حفر خندق فى أطراف المدينة واقامة اســتحكامات شماليها لتحصينها ومنع الانجليز من دخولها اذا زحفوا عليها من طريق شبرا .

وفى اليوم التالى اجتمع عمر مكرم بالقاضى والمشايخ ومن اليهم من أعيان القاهرة وركبوا جميعا البغال والحمير الى بولاق لترتيب العمل فى حفر الخندق، وذهب معهم دروفتى Drovette قنصل فرنســا العام (١) كما صحبتهم جموع غفيرة من الأهلين والكل بالأسلحة . وبدت فى هذا الوقت العصيب روح التعاون والتســاند رائعة قوية بين أفراد الشعب على اختــلاف طبقاته ودياناته . ونســـتدل على هذا الشـــعور الدافق من التكافل الاجتماعى مما سطره الجبرتى اذ قال « وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات

---

(١) كان دروفتى فىالاسكندرية وقت وصول الحملة البريطانية اليها فغادرها خشية أن يقع أسيرا فى يد جنود الحملة واتجه الى رشيد وأعلن أنه يعتـــزم السفر الى بلاد الشام ولكنه أبحر فى النيل الى القاهرة حيث أقام بها واشترك فى تنظيم وسائل الدفاع عنها • وكان الذراع الايمن لمحمد على بعد أن عاد الاخير من الصعيد وتعتبر تقاريره التى أرسلها تباعا الى وزارة الخارجية الفرنسية فى هذه الفترة مصدرا هاما للحملة البريطانية على مصر • وقد نشر دوا هذه التقارير فى مجلد باسم

Douin G. Mohamed Aly Pacha du Caire (1805-1807) Le Caire 1926
Dr. M. Sahy, ouvr. cit. p. 28

والتجـــار وأرباب الحرف والروزنامجى (١) ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض أجرة خمسين وعشرين ، وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس (٢) والنصارى والأروام والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والغلقان والفئوس والقزم وآلات الحفر ، وشرعوا فى بناء حائط مســـتدير بأسفل تل قلعة السبتية . » ويقول مانجا Mengin وهو شـــاهد عيـــان لما كان يحدث فى القاهرة وقتذاك « كان السيد عمر مكرم يذهب فى صبيحة كل يوم تتبعه جماهير كثيفة العدد من الشـــعب الى حيث يشتغل العمال فى اقامة الاستحكامات حيث اعدت له خيمة وكان فى بعض الاحيان يظل هناك طوال النهار . وكان حضوره يثير الحماس والشجاعة فى نفوس الناس جميعا . وقد بذل كل شخص ما فى وسعه لاقامة الاستحكامات » (٣)

قام عمر مكرم بهذا الدور القيادى ومحمد على لا يزال فى الصعيد يتلكأ فى العودة الى القاهرة ودون أن يكون له أثر فى توجيه الشعب أو استنفاره للقتال . والتصق المصريون بزعيمهم عمر مكرم واســـتجابوا لندائه ونفروا خفافا وثقالا للجهـاد فمنهم من تطوع لحفر الخندق حول القاهرة ومنهم من تطوع بالسفر الى رشيد .

انتصار الشعب فى معركة رشيد :

كان ميست القنصل البريطانى العام فى مصر على درجـــة

---

(١) رئيس ديوان الروزنامة وهو الديوان المختص بجمع الاموال الاميرية وصرفها فى الاغراض المخصصة لها تحت اشراف الديوان الدفترى (ديوان المالية) .

(٢) الجمارك

(٣) Mengin Felix, ouvr. cit., t. pp. 278-279

كبيرة من الحمق والغرور . كان من غلاة المستعمرين ويتوق الى ضم مصر الى الممتلكات البريطانية . اعتقد لحمقه وللانتصار الرخيص الذى أحرزته الحملة باحتلال الاسكندرية أن فى مقدور هذه الحملة ـ وقوامها ستة آلاف مقاتل ـ احتلال مصر كلها فجاشت فى نفسه رغبة قوية فى أن يمد قائد الحملة عملياته الحربية الى داخل البلاد ، وأوضح القنصل لقائد الحملة خطورة موقفها اذا ظلت قابعة فى الاسكندرية لأن المدينة تعتمد فى تموينها بالمواد الغذائية على داخل البلاد ، وقرر له أن كميات القمح الموجودة فى الثغر لا تفى بحاجة سكانه أكثر من أسبوعين ، كما أن مواصلات الاسكندرية مع داخل البلاد تعتمد على طريق النيل عند رشيد ، فلا أقل من احتلال رشيد والرحمانية لكى يضمن سلامة مركز الحملة البريطانية فى الاسكندرية (١) . ونجح القنصل فى أن يدخل فى روع قائد الحملة أن الاستيلاء على هاتين المدينتين لن يكون سوى نزهة حربية .

وفى نفس الوقت بذل القنصل العام جهوده لضم المماليك الى جانب الانجليز . وكان محمد الألفى بك زعيم الأمراء الألفية ومن صنائع الانجليز قد جاز الى ربه قبل وصول الحملة بأربعين يوما . فأرسل القنصل العام خطابا الى خليفته شاهين بك الألفى يخطره بوصول الجيش البريطانى الى الاسكندرية وأن انجلترا تزمع تمكين المماليك من حكم البلاد (٢) وطلب منه أن يرسل على جناح السرعة وفدا منهم اليه لتنسيق التعاون بينهم . واعتقد ميست فضلا عن ذلك

---

(١) الوثيقتان رقم ٣٠ ورقم ٣٦ من وثائق الحملة فى
Douin G. et Mme Fautier Jones. ouvr cit.

(٢) أنظر بخصوص الجهود التى بذلها القنصل العام لاغراء المماليك على الانضمام الى الانجليز الوثائق الآتية وهى على سبيل المثال لا الحصر : ١٠ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٨ ـ ٤٩ فى المصدر السابق .

أن احتلال الانجليز لرشيد وقيامهم بعمليات حربية نشيطة يكون حافزا للأمراء المماليك على التعجل بالحضور من الصعيد والانضمام اليهم .

وعلى ذلك جرد فريزر للضرورة الحربية التي نجح القنصل العام فى تصويرها له قوة حربية لاحتلال رشيد بلغت مشارف المدينة فى ٣٠ من مارس ١٨٠٧ ، ولم تجد اثرا للمقاومة خارج المدينة ، فدخلها البريطانيون وجاسوا خلال شوارعها وأزقتها وأسواقها . واعتقدوا أن رشيد قد دانت لهم بدون قتال كما حدث فى الاسكندرية . ولكن كان حاكم رشيد ويسمى على بك السلانكلى من طراز آخر غير طراز أمين أغا المرتشي وقد قرر المقاومة معتمدا على الشعب وعلى حامية المدينة وكان عدد أفراد هذه الحامية يتراوح بين ٤٥٠ وبين ٥٥٠ جنديا وأسلحتهم قديمة رديئة . وطلب من الأهالى والجنود أن يلوذوا بالمنازل ويختفوا عن أنظار البريطانيين وألا يبدءوا فى اطلاق النار الا عند صدور الاشارة بالضرب . كما أمر حاكم رشيد بابعاد السفن التى يستخدمها الأهالي فى عبور النيل الى الضفة الشرقية حتى لا يفكر أحد من الجنود أو الاهالي فى الانسحاب من رشيد كما فعل جنود حامية الاسكندرية . وأدرك سكان رشيد ـ العسكريون والمدنيون على السواء ـ أن نهر النيل من ورائهم وأن البريطانيين من أمامهم فكان هذا التدبير المحكم حافزا لهم على الاستبسال فى القتال الى النهاية .

فلما احتوت المدينة الغزاة واطمأنت نفوسهم تراخوا فى اتخاذ تدابير الأمن واستلقى فريق منهم على الارض بجوار الجدران فى الظل مستسلمين للدعة ينشدون الراحة من عناء السفر مشيا على الرمال الى رشيد . عند ذلك صدرت الاوامر باطلاق النار عليهم فكانت معركة رشيد التى يصفها الجبرتى بقوله « ودخلوا (البريطانيون) الى البلد ، وكان أهل البلدة ومن معهم

من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين » . وكان من بين القتلى قائد القوة وهو الجنرال ووكوب Wauchope وعدد من المهاجرين الفرنسيين . وبلغت خسائر البريطانيين ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحا ، وأسر المصريون ١٢٠ بينما خسرت حامية رشيد وأهلها أربعين قتيلا وأسرع السعاة الى القاهرة ، يحملون نبأ الانتصار فأطلقت المدافع ابتهاجا والناس بين مصدق ومكذب حتى اذا أرسل على بك السلانكلى حاكم رشيد رءوس القتلى الى القاهرة تأكد خبر الانتصار ، وهرع الاهالى زرافات ووحدانا لمشاهدة موكب الاسرى ورءوس القتلى . اذ نظمت سلطات المدينة موكبا سار فيه أسرى الفوج الاول .

أهالى رشيد يستنجدون بعمر مكرم

أطاحت معركة رشيد بهيبة الانجليز التى كانوا قد اكتسبوها فى أعين المصريين من انتصارهم الساحق على الاسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية وفى نجاحهم فى اجلاء الفرنسيين عن مصر . وقد قرر فريزر قائد عام الحملة فى تقرير رفعه الى وزارة الحرب أن هذه الهزيمة كانت بلا شك ضربة قاسية غير متوقعة أصابت الانجليز (١) . أما ميست قنصل بريطانيا العام فقد قرر تعليقا على انتصار المصريين فى معركة رشيد أن العالم بأسره ستعتريه دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوربى حديث (٢) .

---

(١) الوثيقة رقم ٤٠ تقرير أرسله فريزر الى وندهام وزير الحربية البريطانية ومؤرخ فى ٦ من ابريل ١٨٠٧ فى :
Douin G. et Fautier-Jones, ouvr. cit., pp. 40—43

(٢) الوثيقة رقم ٥١ فى المصدر السابق

ألهبت معركة رشيد وبطولة أهلها الشعور القومى فى مصر وعمقت ثقة الشعب بنفسه وازداد تصميما على المضى فى قتال الانجليز • وتدفق المتطوعون على رشيد من المناطق المحيطة بها ومن القاهرة ، اذ أدرك الشعب بفطرته السليمة أن الانجليز لن يسكتوا عن الهزيمة المنكرة التى نزلت بهم وانهم سيعاودون الهجوم على رشيد • يقول الشيخ الجبرتى تعليقا على انتصار الشعب فى معركة رشيد ان « أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء • »

كانت الحملة الانتقامية التى وجهها الانجليز الى رشيد مجهزة بالمدافع الثقيلة ، واحتلت قرية الحماد التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وبحيرة ادكو لتطويق المدينة ومنع وصول المدد اليها ، كما احتلت الحملة ربوة أبى مندور فى ضواحى رشيد لضرب المدينة بالمدافع •

دعا السيد عمر مكرم أهالى القاهرة الى اجتماع عام عقد فى القاهرة فى ٩ من ابريل ١٨٠٧ وقرأ عليهم خطابا أرسله السيد حسن كريت نقيب الاشراف برشيد وكبير أهلها جاء فيه « ان الانكليز لما وقع لهم ماوقع برشيد ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية استعدوا وحضروا الى ناحية الحماد قبلى رشيد ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر الى الجبل عرضا ، وذلك ليلة الثلاثاء ثان وعشرين من محرم ١٢٢٢ (٧ من ابريل ١٨٠٧) فهذا ما حصل أخبرناكم به • ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال والجبخانة والعدة والعدد وعدم التأنى والاهمال » وعلق السيد عمر مكرم على هذا الخطاب وصور لهم خطورة موقف اخوانهم فى رشيد وحثهم على التأهب للسفر لنصرتهم فاستجابوا لدعوته وحملوا الأسلحة وجمع اليه « طائفة من

المغاربة وأتراك خان الخليلي وكثير من العدوية والأسيوطية وأولاد البلد • » وسار عمر مكرم على رأس هذه الحشود الى نائب محمد على يستأذنه فى سفر المتطوعين الى رشيد ، فرفض حتى يصل محمد على من الصعيد ويعرض عليه موضوع سفرهم ، فلم يأبه عمر مكرم لهذا الرفض ، وسافر المتطوعون جماعات وأفرادا لقتال جنود الحملة البريطانية •

محمد على يصدم عمر مكرم وكبار المشايخ

ذكرنا أن محمد على قد استولى عليه فزع شديد حين علم بنبأ استيلاء البريطانيين على الاسكندرية وأنه أخذ يتلكأ فى الحضور الى القاهرة من الصعيد • فلما حمل اليه المبشرون نبأ الانتصار فى معركة رشيد ارتفعت روحه المعنوية أو كما يقول الجبرتى « تراجعت اليه نفسه » وأسرع بالحضور وكذلك تراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك فى الانجليز وتجاسروا عليهم •

وبلغ محمد على القاهرة فى ١١ من ابريل ١٨٠٧ وذهب للسلام عليه السيد عمر مكرم وكبار المشايخ والسيد أحمد المحروقى • ودار الحديث بطبيعة الحال حول الموضوع الذى استحوذ على تفكير الجميع وأقلق بالهم وهو العدوان البريطانى المسلح على مصر • وأعلن له الزعماء عن استعدادهم للخروج جميعا مع الشعب والجنود الى رشيد للمشاركة فى الدفاع عن البلاد • وكان مما قالوه لمحمد على « انا نخرج جميعا للجهاد مع الرعية والعسكر » فكانت اجابته رهيبة مفزعة اذ قال لهم « ليس على رعية البلد خروج وانما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر • » (١) وكانت هذه الاجابة اعلانا صريحا منه بأنه لا يريد من الشعب تدخلا فى شئون الحكم أو قياما بواجب

(١) علائف جمع علوفه وهى مقررات مالية للعسكريين •

الدفاع عن البلاد وان على أفراد الشعب ـ أو الرعية على حد تعبيره وهو تعبير يدل على الاستعلاء ـ أن يدفعوا مايطلب منهم من أموال الى خزانة الحكومة ، والحكومة هى التى تقوم بالدفاع عن البلاد . وهكذا أظهر محمد على ماكانت تجيش به نفسه من رغبة جامحة فى الاستبداد واقصاء المصريين عن الاشتراك فى شئون وطنهم والدفاع عن بلادهم مكتفيا بأن يكون دورهم مقصورا على تقديم الأموال الى الحكومة (١) .

ولاشك أن الزعيم عمر مكرم قد صـــدم صدمة شديدة بهذه الاجابة ولكنه أسرها فى نفسه ولم يبدها له . والزعيم الذى يؤتى حظا موفورا من الحصافة السياسية لا يبادر الى مخاصمة غيره من أول وهلة . ومن الأمور المسلم بها أن الزعامة الرشيدة تتطلب من صاحبها رصيدا ضخما من الصبر والمصابرة والقدرة على كبح جماح النفس . وكذلك كانت زعامة عمر مكرم . فلعل التصريح الذى أدلى به محمد على كان زلفة لسان ، أو لعل الأحداث والأيام تقنع محمد على بخطأ تقديره لموقفه من الشعب . فاذا استبان للزعيم بعد ذلك اصرار محمد على باشا على المضى فى سياسته فان عمر مكرم يكون وقتئذ فى حل من الانفصال عنه بل ومخاصمته .

لقد رأى محمد على ما أثار مخاوفه من عمر مكرم . فالجمـاهير فى القاهرة تلتف حول عمر مكــرم ولا تلتف حول محمد على ، والجماهير فى الأقاليم تكتب الى عمر مكرم ولا تكتب الى محمد على ،

---

(١) أورد مانجا الاجابة التى فاجأ بها محمد على المشايخ على النحو التالى :
« ان قواتى من الشجاعة والكثرة العددية ما يجعلنى على ثقة من النصر . ويكفى أن يؤدى الشعب الضرائب

«Mes troupes sont assez braves et assez nombreuses pour que je sois sûr de la victoire, il suffit que le peuple paye les impôts.»
voir Mengin, ouvr. cit., t I p. 278

وهكذا رأى فى عمر مكرم شخصية قيادية تسيطر على الشعب ويكن لها الشعب كل تقدير وما كان محمد على وهو الحاكم المستبد ليطيق أن يرى منافسا يتبوأ هذه المكانة الشعبية الواسعة العريضة • ومن ثم أفهمه أن قيادته فى الجماهير قد آذنت الى زوال، وعليه أن يلزم حده ، ففى البلاد قوات عسكرية مدربة • وليس على الشعب الا أن يدفع مايطلب منه للانفاق على التسليح •

ولما جن الليل فى ١١ من ابريل ١٨٠٧ــوهو اليوم الذى وصل فيه محمد على الى القاهرة وأدلى فيه بتصريحه المشئوم ــ بعث فى طلب السيد عمر مكرم ليقابله فى منزله بالأزبكية ، وأبدى له حاجته الى ألف كيس أى خمسة آلاف جنيه لتغطية نفقات الجنود الذين يعتزم ارسالهم الى رشيد لمقاتلة البريطانيين • وعهد الى السيد عمر مكرم بأن يقوم بتحصيل هذا المبلغ بعد أن يحدد نصيب كل طائفة منه • وقبل عمر مكرم القيام بهذه المهمة •

ولا جدال فى أن هذا الاتفاق الذى تم بين عمر مكرم ومحمد على ليلا انما هو تنفيذ عملى للتصريح الذى أدلى به محمد على فى صبيحة ذلك اليوم أمام المشايخ والذى قال فيه ان « على الرعية المساعدة بالمال لعلائف العسكر » وتأسيسا على هذا التصريح وذلك الاتفاق بين عمر مكرم ومحمد على يرى البعض أن الزعيم قد غدا أداة طيعة لينة فى يد محمد على يستخدمه أو يستغل مكانته الشعبية العريضة ــ فى جمع الضرائب من الشعب وأن عمر مكرم قد ارتضى لنفسه هذا الوضع ولم يجد عنه حولا •

تحليل موقف عمر مكرم

ولنحلل موقف عمر مكرم تحليلا موضوعيا لا أثر فيه للعواطف وينأى بنا عن مظنة التحيز • فنقول ان مصر كانت تواجه فى ذلك الوقت عدوانا بريطانيا مسلحا • وقد نجح البريطانيون فى الاستيلاء

على الاسكندرية ومدوا عملياتهم الحربية الى رشيد يرومون الاستيلاء عليها • وقد صدهم الشعب المصرى الباسل عن رشيد ، ولكن كان البريطانيون يستعدون لمعاودة الهجوم على المدينة الباسلة انتقاما واصرارا • وقد مر بنا كيف استغاث أهل رشيد بالسيد عمر مكرم لارسال نجدات لهم على وجه السرعة ، ومن المسلم به أن الامكانيات العسكرية لدى السيد عمر مكرم محدودة فهو لا يملك سوى ارسال متطوعين يستجيبون لدعـــوته ولكن كانت فى القاهرة فى نفس الوقت قوات حكومية عسكرية كانت مع محمد على فى حرب الصعيد وجاءت معه أو فى اثره الى القـــاهرة وهذه القوات يعوزها المال لتجهيزها واعدادها للتحرك لقتال الغزاة •

كان فى استطاعة السيد عمر مكرم أن يتخلى عن المهمة التى عهد بها اليه محمد على وهى توزيع المبلغ المطلوب على أفراد الشعب وتحصيله للحكومة • بل كان فى مقدوره أن يفعل أكثر من هذا الموقف السلبى فينضم الى خصوم محمد على فى ذلك الوقت وما كان أكثرهم • فالمماليك منتشرون فى الوجه القبلى ولكنهم كانوا فى ريبهم يترددون : هل ينحازون الى الانجليز ؟ هل ينضمون الى محمد على ؟ هل يلتزمون موقف الحيدة ؟ وهذا التردد الذى وقفه المماليك جعل الصورة العـامة فى مصر تبدو أقـــرب الى تماسك العناصر السياسية منها الى تفككها • حقيقة كان المماليك لا يثقون فى وعود محمد على • ولا يطمئن الأخير الى مسلكهم • وكأن قول الله سبحانه وتعالى ينطبق عليهم « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » وكان فى انضمام السيد عمر مكرم الى جبهة المماليك تدعيم كبير لمركزهم وباعث على تأييد الجماهير لهم ، اذ يرى الشعب أن زعيمه قد انضم الى صفوفهم فترجح كفتهم كفة محمد على ويعلنون الحرب عليه • ولكن ماذا تكون النتيجة ؟ تصدع فى الجبهة الداخلية ، وانتصار المماليك وتدعيم مركز الحملة البريطانية ، والاطاحة بحكم محمد على،

وقيام حكومة مملوكية موالية للانجليز ويكون عمر مكرم قد كاد لمحمد على كيدا عظيما • وسيقدر المماليك والانجليز لعمر مكرم موقفه تقديرا عميقا وتكون له فى دوائر الحكومة الجديدة الكلمة المسموعة والمكانة المرموقة ويتمتع بجانب نفوذه الشعبى بنفوذ حكومى نافذ • ولكن التجارب المروعة التى مر بها الشعب المصرى أحقابا طويلة تؤكد أن الحكومة المملوكية لن تكون خيرا من حكومة محمد على •

وآثر السيد عمر مكرم المصلحة العامة على مصلحته الشخصية وفضل أن يضع نفسه فى هذا الموقف الحرج أمام الشعب فيتصدى لجمع الاتاوة المطلوبة طالما أن حصيلتها ستوجه للانفاق على قوات مسلحة تأخذطريقها الى رشيد لمحاربة البريطانيين دفاعا عن الوطن • ولم يتكرر هذا الموقف من عمر مكرم بعد ذلك الا مرة واحدة وكان هدفه فى هذه المرة حماية الشعب من الاعتداءات المنكرة التى ارتكبها الجنود العثمانيون بعد جلاء الحملة البريطانية عن مصر وفى وقت عجز فيه محمد على عن تطويع هؤلاء الجنود • وفيما عدا ذلك لم يساير السيد عمر مكرم محمد على فى سياسته اذ أيقن الزعيم أن محمد على لا يبغى الا ابتزاز الأموال من الشعب وانه يتخذ من العدوان البريطانى ستارا لاشباع نهمه الى المال فقد أعلن محمد على فى أواخر يوليو ١٨٠٧ عن حاجته الى ألفى كيس أى عشرة آلاف جنيه من تجار البن والصابون وغيرهم وكانت الحملة البريطانية قابعة فى الاسكندرية والمفاوضات تدور فى الخفاء منذ مايو ١٨٠٧ بين محمد على وقائد الحملة على أساس الجلاء عن الاسكندرية فى مقابل تسليم الأسرى البريطانيين • وتدل ملابسات الأحوال على أن محمد على التمس وساطة السيد عمر مكرم فى جمع هذا المبلغ فاعتذر الأخير وأبى أن يزج بنفسه فى هذا الموقف واضطر محمد على أن يلجأ الى الحيلة فزعم للتجار أن المبلغ المطلوب انما هو

قرض يسدد لدافعيه بعد فترة من الزمن ولم تنطل عليهم الحيلة ولم يسعه الا الالتجاء الى الوسائل التعسفية لجمع المبلغ المطلوب وأرسل جنوده يرابطون عند أبواب الوكائل والمخازن يمنعون اخراج البضائع منها الا اذا دفع التاجر المبلغ المفروض عليه من القرض المزعوم • ثم أردف ذلك بوسائل ارهابية فكان يرسل قوة عسكرية تداهم الأعيان فى منازلهم وكان رئيس القـــوة يحمل أمرا كتابيا بتحصيل خمسة أكياس أو عشرة أكياس أى خمسة وعشرين جنيها أو خمسين جنيها من كل ثرى فاذا تأخر فى دفعها سيق الى السجن ولا يطلق سراحه الا بعد دفع المبلغ المطلوب • كما فرض على البنادر والقرى فى الأقاليم اتاوات بحجة اعداد حملة لمحاربة البريطانيين فنزل بالشعب كرب جسيم ويقول الجبرتى « وتوالى مرور العساكر آناء الليل وأطراف النهار بطلب الكلف واللوازم وأشياء يكل القلم عن تسطيرها ويستحى الانسان من ذكرها »

نخرج من هذا العرض التحليلى لموقف السيد عمر مكرم من محمد على بأنه ليس صحيحا مايقرره بعض الباحثين من أن الزعيم قد استحال آداة طيعة فى يد محمد على يوجهه أنى شاء لجمع الضرائب والاتاوات والمغارم من المصريين • لقد كانت هذه الأزمة بداية النهاية فى العلاقات الطيبة التى كانت تربط عمر مكرم بمحمد على فقد قل الاتصال وفتر التعاون بينهما حتى اذا استيأس عمر مكرم واعتقد أن محمد على قد أسرف اسرافا بعيدا فى سياسته الضريبية تطورت العلاقات الى معارضة سافرة فقطيعة ثم خصومة علنية •

اهل رشيد يعاودون الاتصال بعمر مكرم

وفى ذلك الوقت توالت على السيد عمر مكرم الاستغاثات من أهل رشيد يطلبون نجدات عسكرية•وتلقى الزعيم فى ١٤ من أبريل ١٨٠٧ خطابا جديدا من السيد حسن كريت نقيب الاشراف فى رشيد

مؤرخا فى ١١ ابريل كان مما جاء فيه «ان الانكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون على البلد بالمدافع والقنابر (١) ، وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية • ومات كثير من الناس وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الاغاثة والنجدة ، فلم تسعفونا بارسال شيء ، وما عرفنا لأى شيء هذا الحال وما هذا الاهمال • فالله الله فى الاسعاف • فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس • »

اتصل عمر مكرم بمحمد على ليطلعه على هذه الاستغاثة • وكان الموقف جد خطير لا يتحمل تسويفا أو تأخيرا فى اتخاذ اجراءات حربية سريعة • وأظهر محمد على اهتماما بنجدة أهل رشيد وتظاهر بأنه يعتزم السفر بنفسه الى مسرح العمليات الحربية فذهب الى بولاق ولكنه لم يبرح القاهرة ثم طلب من الزعيم عمر مكرم والمشايخ أن يكتبوا الى الأمراء المماليك فى الوجه القبلى يستحثونهم على الحضور الى الجيزة لاتمام الصلح النهائى • ولكن رأى المماليك التريث حتى ينكشف الموقف الحربى ومن ثم يحددون موقفهم النهائى • وكانت مساندة عمر مكرم لمحمد على بجمع الألف كيس فى مقدمة الاسباب التى ساعدته على تجهيز فرقة من الجنود الألبانيين تتكون من أربعمائة من المشاة وألف وخمسمائة من الفرسان تحركوا الى ميدان المعركة •

الدور البطولى للمصريين والترابط العربى فى معركة الحماد

غير أن الأمر الجدير بالذكر هو أن هؤلاء الجنود الألبانيين الذين أرسلهم محمد على لم يكونوا وحدهم الذين واجهوا القوات البريطانية فى المعركة التى دارت فى ٢١ من أبريل ١٨٠٧ وتسمى معركة الحماد

(١) القنابر يقصد بها القنابل •

بالقرب من رشيد . اذ كانت هذه المعركة تضم كما يقرر الجبرتى « الجم الكثير من أهالى بلاد البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهــور » وكان من جملة المتطوعين تاجران من أهل مكة يقيمان فى القاهرة استقدما معهمـا مائة من البدو والمغاربة وغيرهم . وكان هذان التاجران يتفقان على المصريين الذين اشتركوا فى القتال . وعلى ذلك كان للشعب النصيب الأوفى فى تحمل أعباء القتال . وعلى الرغم من الخسائر التى أنزلتها مدفعية البريطانيين فى أرواح وممتلكات أهل رشـيد الا أن أفراد الشعب استهانوا بالموت وألقوا بأنفسهم أمام نيران البريطانيين وهجموا عليهم وأدهشوهم بالتكبير والصياح وحمى وطيس القتال ووقع الارتبـاك فى صفوف البريطانيين وطلبوا الأمان ، ولكن الشعب الثائر المنتصر رفض أن يستمع لطلب الأمان واعتقد أنها خدعة حربية وأبى الا أن تمضى الموقعة الى نهايتها المحتومة فقبض على البريطانيين وذبح الكثيرين منهم وأسر بعضا منهم وفر الباقون الى الاسكندرية بعد أن غنم الشعب مدافعهم وأسلحتهم ، وبلغت خسائر العدو ألفا بين قتيل وجريح وأسير . ولما وصلت الى القاهرة أنبـاء هذا الانتصار الرائع أطلقت المدافع من القلعة والازبكية وبولاق والجيزة . ويذكر الجبرتى عبارة تفيض بالحسرة على انكار فضل الشعب فى هزيمة الحملة البريطانية فيقول « **وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب اليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك .** » (١)

« **وهكذا تفعل المجاهدون** » !!

ولكى تكتمل أمامنا عناصر الموقف نضع فى الصورة بقية جنود

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٥٥ .

محد على الذين كانوا معه فى الوجه القبلى يقاتل بهم المماليك فقد جاءوا فى اثره الى القاهرة وانتهزوا الفرصـــة كى يمارسوا عمليات السلب والنهب على أوســـع نطاق بحجة التأهب لصد العـدوان البريطانى وشهدت البلاد حلقة مفزعة من حلقات الجور واغتصـاب الاموال • فكان الجنود الألبانيون يخرجون من ديارهم فى القاهرة بطرا ورئاء الناس : يذهبون الى بولاق ليوهموا الشعب أنهم ماضون في سفرهم لمحاربة البريطانيين فاذا وصلوا الى بولاق تفرق بعضهم وعادوا الى بيوتهم ويراهم النـــــاس فى اليوم التالى فى المدينة • أما البعض الآخر ممن واصل سفره فقد ذهب الى المنوفية والغربية وجمعوا من أهل البلاد ماوصلت اليه قدرة عسفهم من المال والمغارم ؛ وكانوا يخطفون النساء والبنات ويستولون على الماشية والحاصلات ودواب الحمل قهرا من أصحابها • وهكذا بدلا من أن يتفرغ الجنود الألبانيون لرد العـــدوان البريطانى على مصر انصرفوا الى ارتكاب الآثام وكانوا حربا عوانا على الشعب المصرى • ويعلق الجبرتى على مسلكهم تعليقا يفيض بالتهكم فيقول « وهكذا تفعل المجاهدون » •

أهالى رشيد يلتمسون من عمر مكرم السعى لوقف جرائم العثمانيين

وفى أعقاب معركة الحماد انتشر الجنود العثمانيون فى هذه المنطقة وما جاورها واستباحوا نساءها وأموالها وماشيتها زاعمين أنها أصبحت دار حرب بنزول البريطانيين فيها ثم انتقلوا الى رشيد وفرضوا على أهلها الاتاوات وصادروا محصول الأرز فخرج اليهم السيد حسن كريت نقيب الاشراف بها وكبير البلدة وتحدث مع رؤساء الجند وقال لهم « أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العساكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم ، وما قاسيناه من التعب والسهر وانفاق المال ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل، فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ، ولا نأخذ معنا شـيئا ، ونترك لكم

البلدة ، افعلوا بها ما شئتم » • وهكذا هان على أهل رشيد أن يتركوا مدينتهم من ظلم الجنود العثمانيين وهم الذين لم يتركوها فرارا من مدافع البريطانيين وقنابلهم • وكتبوا الى السيد عمر مكرم يلتمسون منه السعي لوقف عمليات النهب والسلب • وتدخل الزعيم لدى محمد على فأصدر أمرا الى الجنود بايقاف اعتداءاتهم على الأهالى • ولم يكن لهذا الأمر أى أثر فى النفوس الشريرة التى جبل عليها الجنود الدلاة والألبانيون وأصبحت رشيد ومنطقتها مسرحا لحركات التمرد والشغب والسلب وارتكاب الآثام • وارتحل كثير من أهل رشيد الى القاهرة ومعهم نساؤهم وأطفالهم فبلغوها لاجئين فى ٧ من مايو ١٨٠٧ •

مواكب أسرى البريطانيين وقتلاهم فى القاهرة

كانت سلطات رشيد تبعث تباعا أسرى البريطانيين ورءوس قتلاهم الى القاهرة بطريق النيل فى حراسة مشددة ويذهب الى ساحل بولاق كبار الضباط العثمانيين على رأس قوات عسكرية لتسلم الشحنات الآدمية ، وتحتشد الجماهير على جانبى الطريق لمشاهدة مواكب الأسرى • وقد ذكرنا أن على بك السلانكلى حاكم رشيد أرسل أول شحنة آدمية من أولئك الأسرى ورءوس القتلى بعد معركة رشيد مباشرة •وشهدت القاهرة أول موكب فى ٥ من ابريل ١٨٠٧، وسيق الأسرى الى سجن القلعة زمرا ، فكانوا يدخلون بهم من بولاق الى باب النصر ثم يشقون وسط المدينة مارين بحديقة الأزبكية•وكان الفوج الأول يضم فسيالا (١) كبيرا وآخر طاعنا فى السن ، وكل منهما

---

(١) معناها ضابط فى جيش أوربى وهى مأخوذة من الكلمة الايطالية uffiziale ويجمعها الجبرتى فسيالات ويجمعها المعلم نقولا ترك فى مذكراته فسيالية •

يركب حمارا • أما بقية الأسرى فقد ساروا وسط الحرس ، وحمل الجنـود العثمانيون نبابيت ثبتوا فى كل نبوت منها رأس قتيل • وكانت رءوس القتلى « قد تغيرت وانتنت رائحتها • » وتتابع وصول أفواج الأسرى ورءوس القتلى ، فكان يطاف بهم فى شـوارع القاهرة بنفس النظام • وحدث أن مات أحد الجرحى الانجليز أثناء مسيرة الموكب ، فقطعت رأسه ورشقت مع باقى الرءوس على النبابيت • وبعد انتهاء كل موكب كانت تعاد النبابيت التى تحمل رءوس القتلى الى حديقة الأزبكية حيث تغرس هذه النبابيت فى صفين متوازيين على يمين الداخل من باب الهواء الى وسط البركة • وقد أمر محمد على بعد ذلك بقطع آذان القتلى ودبغها وتمليحها ثم وضعت فى صناديق أرسلت الى الآستانة عن طريق الشام تأكيدا لخبر نجاحه فى انزال الهزيمة بالحملة البريطانية • ودفنت بعد ذلك الأجزاء المتبقية من جماجم القتلى •

الزعيم يطالب محمد على بالكف عن المصادرات وفرض المغارم

جمع محمد على قوة حربية من الارناؤود والدلاة بلغ عددهـم ثلاثة آلاف جندى من المشاة والفا من الفرسان وعبر بهم النيل وأقام معسكره فى امبابة تجاه القاهرة فى ٧ من أغسطس ١٨٠٧ واعتقد الشعب أنه يعتزم الزحف على الاسكندرية لانتزاعها من البريطانيين • ولكن الشعب كان واهما فى هذا الاعتقاد ، فان محمد على أراد أن يتخذ من تلك الحشود العسكرية دعاية لنفسه أمام الباب العـالى حتى يعتقد السلطان ورجالاته أن محمد على جاهد البريطانيين جهادا كبيرا ، وأنه اعد لهم ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل لاجلائهم عن الاسكندرية • ولو كان محمد على جادا فى محاربة البريطانيين لداهمهم فى موقفهـم الحرج وقتذاك ولانزل بهم هزيمة محققة فادحة • وكان فريزر قد صارح رؤساءه بأن الحملة سـتعجز عن

الدفاع عن مواقعها فى الاسكندرية اذا تعرضت لهجوم قوى . ولكن محمد على كان يعلم أنه لن يشتبك فى قتال مع البريطانيين ، اذ كانت هناك اتصالات تتم فى الخفاء بينه وبينهم على اساس الجلاء عن الاسكندرية فى مقابل تسليم الاسرى البريطانيين .

وتعرضت جموع الشعب فى القاهرة الى ألوان شتى من المظالم على يد محمد على وجنوده ابان الفترة التى خرج فيها الى امبابة متظاهرا بسفره لمحاربة البريطانيين . ويعطى الشيخ الجبرتى صورة قاتمة عن هذه المظالم نشير هنا الى بعض ملامحها « ركب الباشا الى بولاق وعدى الى ناحية بر انبابه ونصبوا وطاقة (١) هناك . وخرجت طوائف العسكر الى ناحية بولاق وساحل البحر (اى النيل) ، وطفقوا يأخذون ما يجدونه من البغال والحمير والجمال ، واستمروا على الدخول والخروج والذهاب والمجىء والرجوع والتعدية أياما ، وهم على ذلك النسق من خطف البهائم ، وامتنع السقاءون عن نقل الماء من البحر حتى شح الماء وغلا سعره وعطشت الناس وامتنع حمل البضائع ... وطلبوا أيضا دراهم من طائفة القبانية والحطابة وباعة السمك القديد المعروف بالفسيخ فكان القدر المطلوب من طائفة القبانية مائة وخمسين كيسا فأغلقوا خوانيتهم وهربوا والتجئوا الى الجامع الازهر ، وكذلك الحطابة وغيرهم » وتوقفت مطاحن الغلال عن العمل لأن الجنود استولوا على الخيول التى تستخدم فى تسيير آلات المطاحن . وهكذا تعرضت القاهرة لازمة تموينية فى الخبز وفى ماء الشرب ، واستمرت اعمال المصادرات وفرض المغارم على طوائف الشعب عدة أيام ولاذت جموع الشعب بالسيد عمر مكرم تطلب اليه التدخل لدى محمد على لوقف هذه المظالم ، فكان الزعيم عند حسن ظن الشعب به . استجاب

---

(١) الوطاق لفظة معناها الخيمة .

لطلبه وذهب الى امبابة حيث قابل محمد على وتحدث معه فى رفع الاتاوات التى فرضها على شتى طوائف الشعب ، وقبل محمد على وساطته ، وكتب أمانا بذلك الى تلك الطوائف ٠

وقد دلت الاحداث التى تتابعت منذ انتقال محمد على الى امبابة على ثلاث حقائق لا مراء فيها ٠

اولا : ان اقامته فى معسكر امبابة ٠٠ وهى الاقامة التى امتدت من ٧ أغسطس ١٨٠٧ الى ١٩ من اغسطس ٠٠ كان الهدف منها استئناف المفاوضات بينه وبين مندوبى قيادة الحملة البريطانية فى جو هادىء بعيد عن صخب القاهرة ، وبعيد عن تجسس الفرنسيين على مراحل المفاوضات ٠ وكانت هذه المفاوضات قد بدأت مرحلتها الاستطلاعية فى شهر مايو ١٨٠٧ عقب هزيمة البريطانيين فى معركة الحماد (٢١ من ابريل ١٨٠٧) ولذلك لم تكد تمضى ثلاثة أيام على انتقاله الى امبابه حتى أعلن فى المعسكر عن قدوم مندوب من الجنرال فريزر فى مهمة رسمية ، فأطلقت المدفعية احدى عشرة طلقة تحية له ٠ وكان هذا المندوب ضابطا برتبة مقدم ريفارولا Rivarola تنعته الوثائق الفرنسية بأنه كان مفاوضا بارعا كما كان محاربا ممتازا ٠ ومن طريف ما يذكر أن جنود محمد على من الارناؤود والدلاة سطوا على وفد المفاوضات البريطانى فى أول ليلة قضوها فى معسكر محمد على ووصف الجبرتى حادث السطو وصفا طريفا فيقول «فى خامس جمادى الثانية ١٢٢٢ (١٠ من أغسطس ١٨٠٧) حضر قابجى (١) من طرف الانجليز وصحبته أشخاص فأنزلهم الباشا فى خيمة بمخيمه بانبابة، فرقدوا بها ليأخذوا لهم راحة وناموا ، فلما استيقظوا فلم يجدوا

(١) قابجى لفظة تركية معناها ضابط او مبعوث أو احد رجال التشريفات ويجمع الجبرتى هذه اللفظة قابجية ٠

ثيابهم وسطا عليهم السراق فشلحوهم ، فأرسلوا الى حارة الفرنساوية فأتوا لهم بثياب وقفوات لبسوها »

ثانيا : ان سفر محمد على من امبابة فى ١٩ من اغسطس ١٨٠٧ الى دمنهور كان الغرض منه التوقيع على اتفاقية الجلاء • وقد تم التوقيع فى ١٤ من سبتمبر على اساس الجلاء عن الاسكندرية وتسليمها لمحمد على فى مقابل اطلاق سراح الاسرى البريطانيين واصدار عفو عام من جانب محمد على عن اهل الاسكندرية وغيرهم الذين تعاونوا مع البريطانيين ولم يشرع محمد على فى السفر من امبابة الا بعد ان اطمأن الى زوال الخطر •

ثالثا : ان انتقاله من دمنهور الى الاسكندرية كان لتسلم المدينة بعد جلاء البريطانيين عنها ففى ٢٥ من سبتمبر ١٨٠٧ كانت آخر ناقلة جنود تغادر خليج ابى قير عائدة الى مسينا فى جزيرة صقلية •

نجح محمد على فى اضفاء هالة كاذبة من المجد حول نفسه لدى دوائر الباب العالى فى الآستانة (١) فاعتقدت هذه الدوائر أن محمد على هو الذى تصدى للحملة البريطانية وأنه صاحب الفضل فى ايقاع الهزيمة بها • ولعل هذه الصورة المزيفة التى استقرت فى ذهن السلطان هى التى أوحت اليه أن يغدق ألوانا من التكريم على الوالى محمد على ، فقد أمر السلطان بأن تصبح الاسكندرية تابعة من الناحية الادارية لحكومة القاهرة بعد أن كانت تتبع الباب العالى مباشرة وبذلك دخلت الاسكندرية فى حوزته وكان الباب العالى

---

(١) عهد محمد على الى اسماعيل الخشاب وضع تقرير مبالغ فيه عن دور محمد على وجنوده فى الانتصار الرائع على الانجليز • وقد أرسل هذا التقرير مع رسول خاص حمل معه الصندوق الذى يضم آذان القتلى البريطانيين على نحو ما ذكرنا من قبل ، كما أرسل معه ضابطين من الاسرى الانجليز تأكيدا لنبأ الانتصار ، وغادر الرسول القاهرة فى ٥ من مايو ١٨٠٧ ومعه هاتان الشحنتان الآدميتان •

يتخذها قاعدة عسكرية وسياسية يحيك فيهـــا المؤامرات ضده ثم أرسل السلطان اليه هدية تتكون من سيف وقفطان وشلنج (١) » ، كما أنعم على قادة الاســـلحة العثمانية بخلع ثمينة وأذن السلطان لابراهيم بن محمد على فى العودة الى مصر ، وكان رهينـة بالاستانة حتى يؤدى محمد على الاربعة آلاف كيس التى التزم بأدائها فى مقابل ســـحب السلطان للفرمان الذى كان قد أصدره فى يونيو ١٨٠٦ بنقل محمد على الى سالونيك وتعيين موسى باشا واليا على مصر ٠

وقد رأينا كيف أن الجبرتى كان يتحسر على تجاهل فضـــل الشعب المصرى فى رد العدوان البريطانى على مصر وعلى اغماط حق الجماهير فى هذا الصدد فقد سطر العبارة اللاذعة التى سبق أن أشرنا اليها وهى « وليت العامة شكروا على ذلك (ايقاع الهزيمـــة بالبريطانيين) أو نسب اليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للباشـــا وعساكره » ثم يلخص الجبرتى الموقف العام فى مصر بعد انتهـــاء الاحتلال البريطانى الثانى وقد استمر ستة اشهر فيقول « انقضى هذا الامر واستقر الباشا واطمأن خاطره وخلا له الاقليم المصرى »

وهذه المكاسب التى ظفر بهـــا محمد على جعلت دوا Douin وهو أحد الفرنسيين الذين توفروا على دراسة تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر يقرر أن محمد على هو الشخص الوحيد الذى استفاد من اخفاق الحملة البريطانية على مصر ٠ ولكننا لا نأخذ بهذا الرأى وحده بل نضيف اليه رأيا آخر هو أن فشل هذه الحملة كان فصلا هاما فى تاريخ مصر القومى كشف عن أصالة الشعب المصرى وصلابته واستعداده للنضال توكيدا لحقه فى الحياة ٠ لقد كان الشعب فى حاجة الى زعامة واعية رشيدة نزيهة حانية تستغل القوى الكامنـة فيه وتوجيه طاقاته توجيها سديدا لصد العدوان البريطانى على بلاده

---

(١) الشلنج غطاء يوضع على الرأس مرصع بالجواهر ٠

وهزيمة « أقوى دول أوربا » وقد وجد هذه الزعامة فى السيد عمر مكرم الذى برز بروزا واضحا قويا فى أحداث هذه الحملة • عاش مع الشعب والتصق به واستنفره للقتال وجعل القاهرة شـــعلة من الجهاد لا تخمد • وكان للشعب النصيب الادنى فى صـــد الغزاة واستطاع أن يحمل السلاح بنجاح دفاعا عن وطنه وعروبته وحقق انتصارا حاسما على البريطانيين ولم ترهبـــــه مدفعيتهم الثقيلة وأسلحتهم الفتاكة مما يعتبر صفحة مجد وبطولة وفدائية فى تاريخ الشعب المصرى وبخاصة اذا علمنا الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية العصيبة التى كان يعيش فيها الشعب وقتذاك بالاضافة الى افتقاره الى الاسلحة الحديثة وحرص الحكام على اقصائه عن الحياة العسكرية •



الباب السادس

الصدام بين الزعيم وبين القولى

الفصل الرابع عشر

اقصاء الزعامة الشعبية ضرورة سياسية فى نظر القولى (١)

عمر مكرم كبير الزعماء

ظلت الزعامة الشعبية عنصرا رئيسيا فى الحياة السياسية فى مصر وركيزة قوية استند اليها محمد على فى توطيد مركزه ازاء الصعاب والدسائس والأخطار التى واجهته خلال السنوات الاولى من حكمه سواء من الباب العالى أو انجلترا أو المماليك أو الجنود العثمانيين • وكانت هذه الزعامة من ناحية أخرى ظلا ظليلا للشعب تدخلت لرفع المظالم عن الأهلين ، واضطرت محمد على الى العدول عن بعض الاتاوات • وظلت الزعامة الشعبية على هذا الوضع المرموق بمثابة سلطة تراقب تصرفات محمد على وتسدى المعونة الى الجماهير •

واستقرت رياسة الزعامة الشعبية فى عمر مكرم فغدا كبير زعماء مصر وبخاصة منذ الحوادث التى تتابعت وأدت الى انقلاب مايو ١٨٠٥ ، ويقرر هذه الحقيقة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فيقول وهو يترجم للسيد محمد السادات « وارتفع شأن السيد عمر وزاد أمره

---

(١) القولى نسبة الى مدينة قوله وهى فى بلاد اليونان حاليا • وكانت هذه المدينة مسقط رأس محمد على • وكان الجبرتى يطلق عليه هذه الكنية (أنظر ج ٤ حوادث شهر محرم ١٢٣٢ ـ ٢١ نوفمبر ـ ٢٠ ديسمبر ١٨١٦) وحوادث شهر محرم ١٢٣٤ (٣١ أكتوبر ـ ٢٩ نوفمبر ١٨١٨)

بمباشرة الوقائع وولاية محمد على باشا ، وصار بيده الحل والعقد ، والامر والنهى ، والمرجع فى الامور الكلية والجزئية ، والمترجم له (السادات) يحقد عليه فى الباطن ويظهر له خلافه (١) » ثم يعود الجبرتى فيؤكد تلك الحقيقة وهو يترجم للشيخ محمد الدواخلى فيقول « ولما وقع ما وقع فى ولاية محمد على باشا وانفرد السيد عمر افندى فى الرياسة وصار بيده مقاليد الامور ازداد به الحسد فكان هو من أكبر الساعين عليه سرا مع المهدى ·· (٢) »

وكان لعمر مكرم فى نفوس الشعب أكبر مكانة وأسمى منزلة ، وكان يتقدم المشايخ والأعيان فى الاجتماعات والحفلات العامة ويجلس الى جانب محمد على · وبلغ من مكانته أن محمد على حين اعتزم الخروج الى الصعيد على رأس حملة لمحاربة محمد بك الألفى فى أبريل ١٨٠٦ عرض على عمر مكرم أن يعينه نائبا عنه أثناء غيابه ، فاعتذر عمر مكرم · ويكشف هذا الاعتذار عن جانب هام من جوانب شخصية الزعيم فمن الراجح أن اعتذاره كان راجعا الى عزوفه عن مناصب الجاه والسلطة والنفوذ مما يدل على أنه كان زعيما يعف عن الانتهازية والنفعية · وقد يكون امتناعه راجعا الى شعوره بأن العرض غير جدى ، وأن محمد على أراد مجاملته أو رغب فى أن يسبر غوره لأنه سرعان ما فترت همة الوالى عن الزحف على الصعيد واستخلاصه من المماليك ، فكان موقف عمر مكرم دليلا على حصافته السياسية · وأخيرا قد يكون رفضه راجعا الى حرصه على عدم اثارة الزعماء عليه ، وكانوا يحقدون عليه فرأى أنه اذا قبل هذه النيابة أتاح لهم الفرصة كى يبسطوا اليه ألسنتهم بالسوء ، فأراد أن ينأى بنفسه عن مثل هذا الموقف ·

---

(١) وفيات سنة ١٢٢٨ فى الجزء الرابع ص ص ١٨٥ - ١٩٧ ·

(٢) وفيات سنة ١٢٣٣ فى الجزء الرابع ص ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ·

وتمتع عمر مكرم بتقـــدير عميق من الشـــعب الذى نظر اليه على أنه الزعيم المثالى الذى لم تدنسه المطامع الشخصية ولم يخض مع الخائضين فى التكالب على انماء ثرواتهم الخاصة • فبقى عمر مكرم الملاذ الذى تلجأ اليه طوائف الشعب من مختلف بلاد القطر تطلب وساطته وشفاعته لرد المظالم التى أحاطت بها من كل جانب • وكان عمر مكرم لا يخيب لأحد رجاء ، فانصرف الى الوساطة من أجل هذه الطوائف الكادحة ينجح فى شفاعته حينا ويفشل فيها أحيانا ، لأن محمد على حرص على أن يجعل دوره فى الحياة السياسية ثانويا بعد جلاء الحملة البريطانية عن مصر فى سنة ١٨٠٧ • والأمثلة على تدخله لازالة المظالم التى لحقت بالشعب عديدة رأينا بعضا منها عند ما كتب أهل رشيد الى عمر مكرم فى مايو ١٨٠٧ يلتمسون منـــــه السعي لدى محمد على لايقاف أعمال السلب والنهب التى ارتكبها جنوده • ورأينا أيضا أن أهل القاهرة لاذوا بعمر مكرم حين خرج محمد على الى امبابة فى اغسطس ١٨٠٧ واتخذ من تظاهره بالسفر لمحاربة البريطانيين ذريعة للاسراف فى فرض المظالم ومصادرة أموال الشعب ، ثم لجأ اليه القاهريون مرة اخرى يرجون توسطه حين فرض الجنود العثمانيون على الشعب حق الايواء فى منازلهم فى شـــهرى اكتوبر ونوفمبر ١٨٠٧ • وأراد محمد على تضييق الخناق على الأمراء المماليك الذين اعتصموا فى الصعيد فشدد فى مراقبة منافذ الطرق المؤدية الى الوجه القبـــلى حتى لا تتسرب ذخائر أو ملابس أو مواد تموينية من القاهرة اليهم وارتابت الحكومة فى حراس المدافن والعمال الذين يقومون بدفن الموتى واعتقدت أن عملاء الامراء المـــــاليك يرسلون الى هؤلاء الحراس والعمال الاسلحة والملابس لاخفائها فى القبور حتى تسنح فرصة مواتية لارسالها خفية الى المـــاليك فى الصعيد فقام رجال الشرطة بحملات تفتيشية واسعة فى جهة القرافة ونبشوا القبور وانتهكوا حرمة الموتى ولم يســفر التفتيش عن شىء سوى زيادة الهوة بين الشعب وبين محمد على • وحضرت وفود جمة

من خدام الاضرحة وحراس المدافن وأهالى المـــوتى الى عمر مكرم يشكون اليه تصرفات الحكومة وانتهاك الحرمات ٠

وعمر مكرم فوق هذا كله كان بحكم كونه نقيبـــا للأشراف يحتل مركز الصدارة فى المجتمع المصرى ، وهو مجتمع كانت لاتزال سمته البارزة الطابع الدينى ٠ وكانت الجماهير تسارع طوعا واختيارا فى ابداء مشاعرها الودية نحوه ومشاركتها له فى ابتهـــاجه ابان المناسبات السعيدة ٠ يصف الجبرتى تدفق الجماهير وشيوخ الطوائف وأرباب الحرف من كل حدب وصوب بأعلامها وشاراتها وطبولهـــا وموسيقاها للاشتراك فى الحفل الذى أقامه عمر مكرم فى أول مايو ١٨٠٩ لختان ابن كريمته ٠ وقد استؤجرت الاماكن على أرصـــفة الشوارع وفى الميادين ليشاهد منها الجمهور مرور مواكب المحتفلين وكانت مظاهرة شعبية اهتزت لها القاهرة ، وكانت من المشاهد التى قل أن رأت لها العاصمة مثيلا ٠ ويبدى الجبرتى ملحوظة على هذه المظاهرة الشعبية الحافلة فيقول انها كانت آخر « طنطنة » لعمر مكرم قبل أفول نجمه السياسى « استهل شهر ربيع الاول سـنة ١٢٢٤ (١٦ من أبريل ـ ١٥ من مايو ١٨٠٩) وفيه شرع السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى عمل مهم (١) لختان ابن ابنته ، ودعا الباشا والأعيان ، وأرسلوا اليه الهدايا والتعابى ، وعمل له زفة يوم الاثنين سادس عشر ، مشى فيهـــا أرباب الحرف والمـــلاعيب وجمعيات وعصب صعايدة وخـــلافهم من أهالى بولاق ، والـكفور والحسينية وغيرها من جميع الأصناف وطبول وزمور وجموع كثيرة، فكان يوما مشهودا ، اكتريت فيه الأماكن للفرجة ، وكان هذا الفرح هو آخر طنطنة السيد عمر بمصر ، فانه حصل له عقيب ذلك ماسيتلى عليك قريبا من النفى والخروج من مصر (القاهرة) ٠ » (٢)

---

(١) مهم معناها حفلة ٠

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ٩١ ٠

ومن المصادفات العجيبة أن زوجة محمد على وصلت لأول مرة فى حياتها الى القاهرة فى ٣١ من مايو ١٨٠٩ ـ أى فى نفس الشهر الذى أقيم فيه حفل ختان ابن كريمة عمر مكرم • وقد فشل محمد على فى تنظيم استقبال شعبى لها ، فلجأ الى الوسائل التعسفية معتمدا على سلطة الحكومة • فصدرت الأوامر الى « جميع النساء والخوندات » • (١) وكل من كانت لها اسم فى الالتزام » (٢) أن يركبن الحمير ويذهبن الى بولاق « وملاقاة امرأة الباشا » عند وصول السفينة التى تقلها من الاسكندرية • وقد أرادت بعض السيدات الفضليات الاعتذار عن الاشتراك فى استقبالها • وكان من بينهن السيدة نفيسة المراديه « فلم يقبلوا لها عذرا » وسار موكب حرم محمد على من بولاق الى الأزبكية يحيط بها أكثر من خسمائة حمار ركبها النساء اللائى أكرهن على استقبالها • وأطلقت المدافع تحية واجلالا • فكان استقبالها حكوميا غير شعبى • ويعلق الجبرتى تعليقا لاذعا على قدومها هى وأفراد أسرتها فيقول « وصل الخبر بحضور زوجة الباشا أم أولاده وابنه الصغير واسمه اسماعيل وكثير من أقاربهم وأهاليهم • حضر الجميع من بلدهم قوله الى الاسكندرية فانهم لما طابت لهم مصر استوطنوها وسكنوها وتنعموا فيها ، أرسلوا الى أهاليهم وأولادهم وأقاربهم بالحضور • فكانوا فى كل وقت يأتون أفواجا نساء ورجالا وأطفالا • » (٣)

وعلى الرغم من أن محمد على مدين الى الزعامة الشعبية بوصوله الى حكم مصر ثم بالتغلب على الأخطار التى واجهته فى مستهل حكمه،

---

(١) الخوندات جمع خوند ، وهو لقب يدل على الاحترام ويخاطب به الرجال والسيدات •

(٢) أي السيدات اللاتى لهن حصص التزام •

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ص ٩٢ ـ ٩٣ •

فقد عمل على التخلص منها بعد أن استقامت له الأمور • وكان التخلص من الزعامة الشعبية ضرورة سياسية لا مناص منها فى نظره لتنفيذ المخطط السياسى الذى وضعه محمد على لنفسه ولأسرته فقد جاشت فى نفسه أطماع واسعة منذ أن تغلب على أكبر خطرين تهدداه بعد وصوله الى الحكم سنة ١٨٠٥ ، ونعنى بهما أزمة نقله من مصر فى سنة ١٨٠٦ ، ثم قدوم الحملة البريطانية الى مصر فى ربيع ١٨٠٧ • واعتقد محمد على أن الحظ حليف يسانده : جاءت به الأقدار الى مصر ضابطا عثمانيا مغمورا ، ولم تمض سنوات ذات عدد حتى أصبح على رأس الحكومة المصرية ، وشعر أن مركزه يتوطد كلما طال بحكمه الأمد ، وازداد اعتدادا بنفسه وأدرك أنه يحكم ولاية تختلف عن سائر الولايات العثمانية من حيث وفرة مواردها وكثرة عدد سكانها وموقعها الجغرافى الممتاز فوضع مخططا سياسيا هو أن يؤسس فى مصر ملكا يورثه لأبنائه وحفدته من بعده•وقد صرح بهذه الرغبة فى وقت مبكر جدا أثناء المحادثات التى سبقت رحيل الحملة البريطانية عن مصر فى خريف ١٨٠٧ اذ قرر أنه يروم انشاء حكم وراثى فى أسرته فى مصر داخل نطاق الدولة العثمانية ، فيستقل فى شئون الحكم الداخلى ويثبت وراثيا فى ولايته فى مقابل دفع الجزية السنوية للسلطان اعترافا منه بالسيادة العثمانية على مصر (١) • وأشار محمد على فى تبرير مطمحه الى أن هذا الوضع السياسى الذى ينشده لنفسه ولأسرته ليس غريبا على الدولة العثمانية ، فهو يشبه النظام الذى كان قائما فى ذلك الوقت فى الولايات العثمانية فى شمال افريقية ،

---

(١) أنظر بخصوص هذا الموضوع الهام الخاص بأطماع محمد على المبكرة فى سنة ١٨٠٧ لانشاء حكومة وراثية فى أسرته فى مصر :

مجموعة الوثائق الفرنسية فى :

Douin G•: Mohamed Aly, Pacha du Caire. 1805-1807, cuvr. cit., doc. no. 159 Drovetti à Sébastiani, Le Caire, 19 août 1807. pp. 195-199

وبخاصة فى طرابلس الغرب حيث كانت تحكمها وراثيا أسرة القرمانلى ، وفى تونس حيث كانت تحكمها الأسرة الحسينية بطريق الوراثة أيضا • وكان المعروف أن سلطان الدولة العثمانية لا يتدخل فى الشئون الداخلية لهاتين الولايتين ولا فى شئون الجزائر حيث كان يحكمها الدايات • وعلى ذلك فان محمد على كانت قد صحت عزيمته على البقاء فى مصر والتمسك بها • وهذا هو الطابع الذى طبع تصرفات محد على سواء فى سياسته الداخلية أو فى سياسته الخارجية • وأعتقد أنه اذا أحسن توجيه الطاقات البشرية للشعب المصرى وأحكم السيطرة على جميع مرافق البلاد الاقتصادية استطاع أن يمضى قدما فى تنفيذ مخططه السياسى •

وتطلب هذا المخطط السياسى من محمد على أن يقضى على القوى والأنظمة التى قد تعطل أو تهدد أو تمنع تنفيذه • وكان فى مقدمة تلك القوى وهذه الأنظمة : الزعامة الشعبية ، والمماليك وما يملكونه من قوة عسكرية ضاربة رهيبة تؤثر فى مصائر البلد ، ونظام الالتزام • وقد بدأ بنظام الالتزام وهو نظام اقتصادى درجت عليه الحكومة فى العهد العثمانى وبمقتضاه كان بعض الأفراد يلتزمون بجمع الضرائب الحكومية من الأهالى ويؤدون شطرا منها لخزانة الحكومة ويحتجزون الجزء الباقى منها لأنفسهم • وفى نفس الوقت كان الملتزمون يتمتعون ببعض الاعفاءات الضريبية • وهذا النظام يتعارض تعارضا جذريا مع سياسة محمد على الذى كان لا يطيق أن يضيع عليه قرش واحد ، ومن ثم شرع فى سنة ١٨٠٩ يلغى نظام الالتزام الغاء جزئيا تمهيدا لالغائه كلية • وقد جره هذا الالغاء الجزئى الى صدام مع الزعامة الشعبية ، لأن الملتزمين كانوا يشكلون قطاعا كثيفا من السكان ، ورأى عدد من الزعماء فى سياسته الضريبية الجديدة اجراءات تعسفية ترهق الأهلين وترهقهم هم أيضا فاعترضوا عليها • وأدى هذا الصدام فى النهاية الى اقصاء الزعامة الشعبية عن الميدان السياسى وعن الرقابة والتوجيه ، حتى اذا فرغ محمد على

من الزعامة الشعبية التفت الى المماليك فتخلص منهم بطريق الاغتيال الجماعى فى مذبحة القلعة ، ثم مضى يستكمل الغاء ما بقى من نظام الالتزام • وعلى هذا فان التخلص من الزعامة الشعبية ومن المماليك ومن نظـام الالتزام كانت كلها فى نظر محمد على خطوات طبيعيـة وضرورية للمضى فى تنفيذ مخططه السياسى حتى يخلو له الجو من كل رقابة شعبية ومن كل تهديد عسكرى ومن كل نظام اقتصادى عتيق يتعارض مع النظام الاقتصادى الذى اعتزم فرضه على المصريين ليجعل منهم أداة مسخرة لخدمة مخططه السياسى •

العوامل التى ساعدت القولى على التخلص من الزعامة :

وقد أطلت برأسها عدة عوامل ساعدت محمد على القولى على التخلص من الزعامة الشعبية وكان فى مقدمة هذه العوامل :

١ ـ انقسام الزعماء :

الانقسام الذى دب بين كبار الزعماء • وقد بدأ هـذا الانقسام فى وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٠٥ حول مسائل مالية اذ تنافسوا على منصب ناظر الجامع الأزهر ، وهو غير منصب شيخ الأزهر • وجرت العادة ابان الحكم العثمانى أن يتقلد منصب ناظر الأزهر أحد الأمراء المماليك لما تدره هذه الوظيفة على شاغلها من ايراد ضخم ، فلما جاء الفرنسيون بحملتهم سنة ١٧٩٨ وأطاحوا بحكومة المماليك شغر ذلك المنصب وألحق بمشيخة الأزهر الى أن تطلع فى سـنة ١٨٠٥ لشغله الشيخ محمد الأمير وأراد انتزاعه من الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وانقسم العلماء فريقين يناصر كل فريق مرشحه •

استمر هذا الانقسام قائما بين الزعماء يتسع مداه شهرا بعد شهر ، واستفحل أمره ، اذ لم يعد التنافس بينهم مقصورا على منصب ناظر الأزهر وأوقاف الأزهر فحسب ، بل امتد الى التنظر على أوقاف

الأمير عبد الرحمن كتخدا • وخشى بعض الفضلاء مغبة الانقسام بين الزعماء • فتدخل الشيخ عبد الرحمن السجينى لاصلاح ذات البين بين الزعماء المتنافرين ، فدعاهم الى وليمة أقامها لهم ويعلق الجبرتى على هذه الوليمة وهو يستعرض حوادث شهر صفر ١٢٢١ (٢٠ من ابريل - ١٨ من مايو ١٨٠٦) فيقول : « وفى هذه الأيام كان بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات وذلك من أوائل شهر رمضـــان وتعصبات بسبب مشـــيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا • فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجينى ابن الشيخ عبد الرءوف عمل وليمة ودعاهم اليها ، فاجتمعوا فى ذلك اليوم **وتصالحوا فى الظاهر** » والفقرة الأخيرة من عبارة الجبرتى واضحة الدلالة على أن الشيخ السجينى فشل فى تنقية الجو بين الزعماء وأن صلحهم كان رياء ونفاقا • وكان من مظاهر استمرار هـذا التصدع فى جبهة الزعماء أن أصدر محمد على أمرا فى ٢٠ من سبتمبر ١٨٠٦ بالتحجير على الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر• والتحجير فى اصطلاح ذلك الوقت معناه تحديد اقامته فكان لا يسمح له بمبارحة منزله ولو كان الخروج لأداء صلاة الجمعة • وامتثل الشيخ الشرقاوى لهذا الأمر ولم يجد ناصرا ، وأهمل أمره حتى قيض الله له قاضى القضاة العثمانى واسمه عارف أفندى فتشفع له عند محمد على الذى رد عليه بقوله : « أنا لا ذنب لى فى التحجير عليه ، وانما ذلك من تفاقمهم مع بعضهم • فاستأذنه فى مصالحتهم • فأذن له فى ذلك • فعمل القاضى لهم وليمة ودعاهم وتغدوا عنده وصالحهم وقرءوا بينهم الفاتحة وذهبوا الى دورهم **والذى فى القلب مستقر فيه (١)** • »

ولا ريب ان محمد على قد ابتهج فى قرارة نفسه بهذا الانقسام وعول على استغلاله فى الوقت المناسب ليتخلص من الزعامة الشعبية وعمل فى نفس الوقت على زيادة افسادهم وزين لهم سبل الغواية كما سنرى بعد قليل •

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ •

ومن بين العوامل التى ساعدت محمد على القول على التخلص من الزعامة الشعبية التدهور الذى أصاب معظم الزعماء . فقد استشرى فيهم الفساد وافتتنوا بالدنيا وهجروا مدارسة العلم وانصرفوا عن أمور الدين من حيث وعظ الأهالى وتلقينهم أصول العبادة وحاكوا الامراء المماليك في معيشتهم ، وملئوا بيوتهم بالخدم والأعوان ، وتطلعوا الى مزيد من الأموال والضياع والدور ، وكانت أحاديثهم تدور حول عقد الصفقات والتنظر على الأوقاف وغير ذلك من المسائل المالية واستبدت بهم فتنة المال فصاروا يتقاضون الأجور العالية فى شكل هدايا وعطايا من الجماهير فى مقابل توسطهم لدى السلطات الحاكمة بعد أن كانوا يقومون بوظيفتهم التقليدية فى المجتمع لا يبتغون جزاء ولا شكورا . وقد انتهت بهم هذه المساوىء الى النتيجة الحتمية : فتجرد معظمهم من صفات الورع والتقوى ، وانغمسوا فى الملاهى والملذات يغترفون منها بأوفى نصيب .

والجبرتى يعطى صورة قاتمة للتدهور الذى طرأ على حياة الزعماء المشايخ علماء الأزهر والذى جعلهم يؤثرون الحياة الدنيا وعرضها الزائل على الآخرة ونعيمها المقيم ويتنافسون على مناصب الزعامة والصدارة ونظارة الأوقاف وصولا الى التمتع بلذائذ الحياة وبلوغا للجاه والسلطان بين الجماهير . وعلى الرغم من أن الجبرتى جاور بالأزهر فانه كان عنيفا بالغ العنف فى حملته على المشايخ علماء الأزهر ، وصور تصويرا لاذعا الانحراف الخلقى الذى انحدروا اليه فضلا « عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور ، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية ، مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء ، وفراغ الأعين ، والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء ، والمعاتبة عليها ان لم يدعوا اليها .... » (١) .

(١) ضربنا صفحا عن بقية ما ذكره الجبرتى فى وصف العلماء مشايخ الازهر . ومن شاء فليرجع الى ج ٤ حوادث شهر شعبان ١٢٢٢ (٤ من أكتوبر ـ أول نوفمبر ١٨٠٧) .

وقد أسهم محمد على فى زيادة افساد حالة الزعماء ، فشجعهم على الاستكثار من حصص الالتزام ، وما كانت تدره عليهم من مكاسب وفيرة ، وأعفى أراضيهم من المغارم والشهريات والفرض التى كان يفرضها على القرى • وابتغى من هذه الاعفاءات الضريبية ضم الزعماء اليه وحملهم على تطويع الجماهير على استساغة الأساليب التى اتبعها فى تحصيل الأموال ، كما شمل بهذا الاعفاء أملاك من ينتمون اليهم وابتهج الزعماء بهذه الاعفاءات الضريبية فأقبلوا على شراء الحصص من أصحابها المحتاجين وعاشوا فى بذخ وترف وتهافتوا على الدنيا ونســـوا الله فأنســـاهم أنفسهم : عسفوا بالفلاحين واستبدوا بهم «وأجروا الحبس والتغرير والضرب بالفلقة والكرابيج» وكانوا يرسلون الى الفلاحين « استعجالات وتحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين » واستعانوا بجماعة من الأشرار يجمعون لهم الضرائب وفرضوا اتاوات تذهب لجيوب هؤلاء المحصلين تســمى حق الطريق ، واستخدموا كتبة من الأقباط ـ على نحو ما كان يفعل الأمراء المماليك ـ لضبط المصروفات والايرادات • وبعد أن غمر محمد على الزعماء بهذه الاعفاءات وهذا التمييز فى المعاملة عمل على اذلالهم فأخذ يمن عليهم ثم هددهم بتجريدهم من حصص الالتزام فوهنوا وضعفوا واستكانوا أمام تهديده •

٢ ـ حقد الزعماء على كبيرهم عمر مكرم :

وأخيرا كان من العوامل الحاسمة فى نجاح محمد على فى اقصاء الزعامة الشعبية عن الميدان السياسى الحقد الدفين الذى كان يتأجج فى صدور الزعماء على السيد عمر مكرم لما ظفر به هذا الزعيم من منزلة سامية تمثلت فى التفاف الشعب حوله وارتفع الى مركز الصدارة بين الزعماء (١) • وقد بلغ هذه المكانة عن جدارة واستحقاق لمـا

(١) Gouin Edouard, ouvr cit., p. 172

اجتمعت فيه من فضائل سياسية مجردة عن الأهواء والمطامع الشخصية ومبادىء سامية ظل حفيظا عليها وشجاعة صادقة لا تخبو نارها ٠
واستطاع محمد على أن يستغل ذلك الحقد ففصل الزعماء عن كبيرهم عمر مكرم ثم ضمهم اليه فى كتلة متراصة وقفوا بجانبه صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص يكيدون كيدا لعمر مكرم ٠ ولم يبخل الزعماء على الوالى محمد على القولى — فى سبيل اشفاء غليل أحقادهم على عمر مكرم — برأى أو مشورة أو تدبير تعسفى للتنكيل بالزعيم ٠
يقول على مبارك « بدت الوحشة بين محمد على وبين عمر مكرم فتولى السعى عليه سرا هو وباقى الجماعة حسدا وطمعا ليخلص لهم الأمر دونه حتى أوقعوا به » (١) ٠ ولو كان أولئك الزعماء على حظ موفور من الحصافة السياسية والأخلاق القويمة لما استجابوا لاغراء محمد على بالانضمام اليه ضد كبيرهم عمر مكرم ، اذ كان فى القضاء على هذا الزعيم قضاء عليهم جميعا وانهيار للزعامة الشعبية ٠ وهكذا هدم الزعماء أنفسهم بأنفسهم ٠

---

(١) على مبارك ج ١٧ ص ٤١ ٠

الفصل الخامس عشر

الاحتكاك بين الزعماء و بين القولى

الزعماء يطالبون القولى بالغاء بعض الاتاوات :

وقع أول احتكاك بين الزعماء وبين محمد على فى أغسطس ١٨٠٨ حين فرض ضريبة قدرها أربعة فى المائة على كافة أنواع الحبوب والمأكولات التى تباع فى الأسواق والميادين والشوارع ، فحدث هرج ومرج شديدان خصوصا فى القاهرة ، ثم ازدادت هواجس الأهلين حين جاء فيضان النيل فى نفس الشهر منخفضا للغاية « وانكشف الحجر الراقد الذى عند فم الخليج تحت الحجر القائم » وعمد الشعب الى تخزين البقول والسلع وغيرها واختفت الحبوب من الصوامع واقفرت الاسواق • واجتمع المشايخ فى ٢٠ من أغسطس وصعدوا الى القلعة لمقابلة محمد على يطلبون اليه تخفيف ضائقة الاهلين بالغاء بعض الاتاوات • فأشار عليهم محمد على بالخروج الى الصحراء ومعهم الفقراء والضعفاء والاطفال وهناك يؤدون صلاة الاستسقاء ، ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون اليه ابتغاء زيادة مياه فيضان النيل • فقال له الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الازهر « ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم » وقد أثارت هذه العبارة محمد على • فرد محتدا موجها الكلام الى الزعماء « أنا لست بظالم وحدى ، وأنتم أظلم منى • فانى رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم اكراما لكم ، وأنتم تأخذونها من الفلاحين ، وعندى دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفى كيس • ولا بد أنى أفحص عن ذلك ، وكل

من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحيه أرفع الحصة عنه • فقالوا له لك ذلك(١) » • وهكذا نرى أن محمد على يتهدد الزعماء بتجريدهم من حصص الالتزام ، ويمن عليهم بالاعفاءات الضريبية التى شملهم بها ، ثم هو يسجل عليهم فى صراحة مطلقة الظلم الذى كانوا ينزلونه بالفلاحين ، وأهم من هذا كله يوجه لهم الاتهام بأنهم أكثر ظلما وأشد قسوة على الفلاحين منه هو شخصيا • وقد لمس الزعماء خلال هذه المقابلة فى محمد على غلظة فى القول ، وامعانا فى المضى فى سياسته الضريبية ، واعراضا عن الاستماع لمشورتهم ، وتصميما على الانفراد بالحكم دون أن يسمح لصوت واحد بمعارضته • وما كان أحراهم فى هذا الوقت ـ وقد أزاح القولى النقاب عن نفسه ـ أن يتناسوا أحقادهم ومنافساتهم وانقساماتهم وأطماعهم فيوحدوا صفوفهم ويعيدوا للزعامة الشعبية قوتها ليحملوه على احترام الميثاق الذى أخذوه عليه يوم نادوا به واليا على مصر •

وقد أفلحت هذه اللهجة التهديدية ، فلم يصر الزعماء على موقفهم بمطالبة محمد على بالغاء بعض الاتاوات تخفيفا عن الشعب المثقل بالمظالم ، بل خرجوا من عنده متخاذلين ، وقد ازدادوا وهنا على وهن • واستمعوا لمشورته فذهبوا وعلى رأسهم عمر مكرم يتبعه المشايخ وأهل الازهر وسكان القاهرة الى مسجد عمرو بن العاص فى مصر القديمة • وكان مرد اختيارهم لهذا المسجد أنه أول جامع أسس فى مصر وكان مكان الصحابة والسلف الصالح واعتقدوا أن الله سبحانه وتعالى يستجيب لدعائهم فيه • ولما تكاملت جموعهم أدوا صلاة الاستسقاء وصعد الشيخ جاد المولى الى المنبر وخطب فى هذه الحشود المتراصة ودعا الله وأمن الحاضرون على دعائه وعادوا بعد

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٨٠ ويوجد تفصيلات أكثر اسهابا عن هذه المقابلة الصاخبة فى Gouin Edouard, ouvr. cit., pp 205-206

صلاة الظهر الى القاهرة • أما عمر مكرم فأمضى ليلته هناك • ولما جن الليل زادت مياه الفيضان زيادة محسوسة « واستتر الحجر الراقد بالماء » وفى اليوم التالى خرج القاهريون أيضـــا وأشاروا بخروج الطوائف غير الاسلامية معهم فذهب الاقباط وعلى رأسهم المعلم غالى كبير المباشرين « ومن يصحبه من الكتبة الاقباط وجلسوا فى ناحية من المسجد يشربون الدخان» وفى نفس الليلة زاد الماء ونودى بوفاء النيل « وطفق النصارى يقولون ان الزيادة لم تحصل الا بخروجنا» ولم يمض يومان على هذا الحادث حتى أقامت الحكومة الزينات احتفاء بوفاء النيل واطلقت المدافع وطاف المنادون يحمـــل بعضهم الاعلام الحمراء ويحمل البعض الآخر المشاعل • ولكن الشعب كان يعتريه وجوم عميق وكانت النفوس ثائرة بسبب فداحة المظالم التى أخذت تترى سنوات طوالا على يد محمد على •

أمثلة من أساليب محمد على فى ابتزاز الاموال من الشعب :

روع الشعب المصرى بســـيل متدفق من الضرائب والاتاوات والقروض الاجبارية يفرضها محمـــد على فى غير هوادة على فئـات الشعب المختلفة عدا المصادرات والاستيلاء على قوافل التجارة واجبار أصحابها على افتدائها بالمال • واستحدث أنواعا من الضرائب ابتكر لها مسميات جديدة مثل كلفة الذخيرة ، والترويجة ، والقيـاسة ، بالاضافة الى فرضة البشارة وفرضة غلال وشعير وسمن وفول على القرى • ثم غـير وزن ونسبة المعـــادن الثمينة فى العملة الذهبية والفضية المتداولة • واعتبر الشيخ الجبرتى الاجراء الاخير وسيلة من وسائل اختلاس أموال الشعب• وحدث أن علم محمد على أن الحكومة الفرنسية تحتكر تجـارة الدخان وتعتبرها مصدرا هاما من مصادر الايراد الحكومى ، فعمد الى تقليدها باحتكار تجارة التبغ • وقابل الشعب هذا الاحتكار(١) بالحد من استهلاك الدخان ، فألغى هـذا

(١) تمت هذه المحاولة الاحتكارية فى النصف الاول من سنة ١٨٠٨ وكانت تجربة قائمة بذاتها ولا علاقة لها بنظام الاحتكارات الذى استنته بعد ذلك •

النظام وفرض رسوما جمركية عالية على التبغ المستورد من تركيا • ثم احتكر النشوق وألزم الاهلين بشرائه بأسعار يحددها وسواء كان الشخص يستنشقه أو ليست له به حاجة • واحتكر النطرون وأجبر القرى على أخذ مقادير معينة منه ، وحاول اكراه الأهلين على شراء شراب العرقى بمقولة أن تعاطى هذا الشراب المسكر يبعث القوة فى أجسامهم ويجعلها أكثر تحملا على مشقات الزرع والحرث • كما فرض ضرائب عالية على الأرز والكتان والحطب والملح فارتفعت أسعار السلع عموما ارتفاعا فاحشا •

وكان من الحيل التى لجأ اليها فى ابتزاز أموال الشعب أنه كان يتظاهر بالشفقة على الفقراء وأصحاب الدخول الضعيفة، فأمر التجار بتخفيض أثمان بضائعهم الى النصف ، ويتعذر على التجار تنفيذ هذا الأمر ، فيأمر باعتقالهم ولا يتم الافراج عنهم الا بعد أن يدفعوا مبالغ جسيمة لخزانة الحكومة • وعند خروجهم من المعتقل كانوا يضيفون الى أثمان البضائع المبالغ التى دفعوها فى المصالحة على أنفسهم ليعوضوا خسارتهم • ولا يحرك محمد على ساكنا لهذا الارتفاع فى الاسعار مما يدحض تظاهره بالحدب على جمهور المستهلكين • وكانت النتيجة أن الجماهير الكادحة المكدودة هى التى تحملت عبء هذه الضريبة المقنعة التى فرضها على التجار وأصحاب الحرف •

وانتهز محمد على فرصة الطلبات المكرورة التى كان يبعث بها السلطان اليه لتجهيز حملة عسكرية لمحاربة الوهابيين فى الحجاز فجمع الديوان فى فبراير ١٨٠٨ وحضره عمر مكرم والمشايخ والدفتردار والمعلم غالى وطلب منهم تدبير مبلغ ٢٤٫٠٠٠ كيس (١٢٠٫٠٠٠ جنيه) وهو مبلغ جسيم بالنسبة لقيمة النقد فى ذلك الوقت ، « فحصل ارتباك واضطراب وشاع ذلك فى الناس وزاد بهم الوسواس » وفى نفس العام قام برحلة الى أقاليم الوجه البحرى

لجمع المال بحجة ارسال هدية الى السلطان واشتط فى وســـائل
فرض الاتاوات على الفلاحين ٠

ولفت نظر محمد على حياة البذخ والترف التى يحياها المباشرون
وهم الأقباط أصحاب الحول والطول ، المكلفون بجمع الضرائب فعمل
على « استنضاح » المال منهم ، فسيق المعلم غالى (١) والمعلم جرجس
الجوهرى والمعـــلم جرجس الطويل وأخوه وفلتاؤس وفرانسيسكو
وغيرهم من كبار المباشرين ثم عامتهم – وهم فى حالة منكرة – الى
سجون القلعة زمرا حتى اذا جاءوها حوسبوا حسابا عسيرا ، وانتزع
محمد على منهم مبالغ جسيمة « مصـــالحة على أنفسهم » وفى نظير
رضائه السامى عليهم ٠

اتجه تفكير محمد على الى مصدر هام من مصـــادر الايراد هو
الرزق الاحباســـية أى الاراضى والعقـارات التى حبست للانفاق من
ايرادها على المساجد والأسبلة والمدارس وغير ذلك من وجوه البر ،
وكانت معفاة من الضرائب ولا يستطيع الوارث أن يتصرف فيها على
أى نحو من الانحاء ٠ وكان معظم نظـار الوقف من المشايخ علمـاء
الازهر يجمعون ايرادها بمعرفتهم وينفقون جزءا من حصيلتهـا على
الاغراض التى اشترطها الواقف ، ويئول اليهم الجزء البـاقى من
ايرادها ٠ فكانت مصدر رزق وفير لهم ٠ وبدأ محمد على فى سنة
١٨٠٩ يفرض ضرائب عليها تمهيدا لاستيلائه عليها ، اذ وضع يده
عليها دون أن يمس مبدأ نظام الوقف فيتـولى هو تحصيل ايرادهـ
والصرف فى الأوجه التى خصصها الواقف ، ويضم الباقى الى خزانة

(١) المعلم لقب لشخص وجيه متعلم ، وهو مستمد من الانجيل لأن السي
المسيح عليه السلام كان يتخذ لنفسه لقب « المعلم » وكان يناديه الناس بالمعلم وق
رفض أى لقب آخر ٠

الحكومة • وفى نفس الوقت أمر بمصادرة نصف الفائض (١) الذى كان يأخذه الملتزمون ، وفرض ضرائب على أطيان الاوسية التى كان الملتزمون يحتفظون بهـــا لأنفسهم ويزرعها لهم الفـلاحون بطريق السخرة وكان الاعفاء الضريبى يشمل هذه الأطيان تمكينا للملتزم من استضافة موظفى الحكومة عند مرورهم بجهة التزامه •

ولما كان معظم الملتزمين أيضا من المشايخ علماء الازهر ، رأوا أن هذه الاجراءات تمس مصالحهم المادية وتهدد الحياة الرغيدة التى ألفوها ومن ثم تحركوا للاحتجـــاج على سياسة محمد على الضريبية وهبوا للتصدى له ومعارضة أساليبه فى الحكم •

ووقع حادثان شجعا العلماء الزعماء على القيام بحركتهم • فقد استن محمد على فى نفس الوقت ضريبة تمغة على المصوغات الذهبية والفضية وضرائب على سائر أنواع السلع حتى «النعالات التى هى الصرم والبلغ» وكانت السلع تختم بختم خاص دليلا على أن الحكومة قد استوفت الضريبة المقررة عليهـــا ، وبدون هذا الختم لا تكون السلعة صالحة للعرض فى المحلات التجارية أو الاسواق وتتعرض للمصادرة ، فأثار هذا الاجراء عامة الناس من الباعة ، وكانوا يشكلون قطاعا كثيف العدد من الشعب تأثرت مواردهم بهـــذه الســـياسة الضريبية • وازدحمت أحياء القاهرة بالساخطين ومن بينهم عدد من السيدات وأطفالهن الذين أصبحوا مهددين بالحرمان من استحقاقاتهن فى الأوقاف أو خيراتها (٢) •

وحدث أيضا من قبيل المصادفات أن ألقى رجال الشرطة القبض على أحد طلبة الازهر ، وكان يمت بصلة القرابة الى أحـد علمـائه وتدخل العلمـــاء لدى رجال الشرطة للافـراج عنه فلم يســتمعوا

---

(١) الفائض هو الفرق بين حصيلة الضرائب التى يجمعها الملتزم من الفلاحين وبين المبلغ الذى يورده لخزانة الحكومة • ويذهب هذا الفائض الى جيب الملتزم •

(2) Paton A.A., A History pf the Egyptian Revolution London 1870, 2 vols: vol. 2 p. 27

لوساطتهم واقتادوا الطالب الى القلعة حيث اعتقل بها • فكان هذا الاعتقال سببا فى ازدياد هياج النفوس •

اجتماع الزعماء بعمر مكرم

توجه الرجال والنساء وأهل الطالب المعتقل الى الجامع الازهر فى ٣٠ من يونيو ١٨٠٩ وهم يتصايحون ويستغيثون فى صياح وهتاف • وكان العلماء فى ذلك الوقت منصرفين الى القاء دروسهم• فلما احتوى المسجد هذه الحشود فض العلماء حلقات الدراسة واجتمعوا بقبلة المسجد وأرسلوا فى طلب عمر مكرم • فخف اليهم لأنه وجد الفرصة التى ينتظرها قد واتته ، واعتقد أن فى استطاعته الزام محمد على برفع المظالم عن الشعب وحمله على التشاور معه ومع الزعماء وتنفيذ الميثاق الذى أخذه عليه منذ أربع سنوات خلت • يقول أحد الفرنسيين الذين عاصروا عمر مكرم « ان السيد عمر كان يعيش منذ مدة طويلة فى عزلة عميقة • لأنه منذ أن تأيد حكم محمد على ، عمل هذا على اقصائه بصورة متزايدة عن الاسهام فى أى عمل من الاعمال العامة • ولكن لم تغير هذه العزلة شيئا من أخلاق ومبادىء ذلك الشيخ • فكان يرى وهو بداخل صومعته اضطراد زيادة النفوذ المطلق الذى انفرد به الحاكم الذى كان هو أول من ألبسه الفرو لتقليده حكم مصر • فسنحت له الفرصة الآن لينزل الى معترك السياسة متصديا للدفاع عن صالح الدين وحقوق الشعب وقبض عليها بكلتا يديه (١) » •

تداول عمر مكرم مع الزعماء فى الموقف واتفقت كلمتهم على نبذ خلافاتهم الشخصية والوقوف صفا واحدا فى وجه الطاغية ، كما استقر رأيهم على الامتناع كلية عن الذهاب اليه وعدم التباحث

---

(١) Achille de Vaulabelle، ouvr. cit., t 9 pp 413-414

معه فى رد المظالم التى تكاثرت على الشعب خشية أن يؤثر فيهم بعباراته المعسولةووعوده الكاذبة اذا اجتمعوا به فهم يريدون تجنب الانسياق العاطفي وقرروا الاكتفاء بتقديم مذكرة ترسل اليه يطلبون فيها الغاء الضرائب المستحدثة واطلاق سراح الطالب الازهرى المعتقل • فاذا استجاب محمد على لمطالب الزعماء فلا حرج عليهم اذا هم ترددوا عليه كسابق عهدهم معه • وانصرف الزعماء الى منازلهم على أن يستأنفوا اجتماعهم فى اليوم التالى لوضع المذكرة المقترحة•

وتم اجتماع الزعماء فى الموعد المحدد ـ أول يوليو ١٨٠٩ ـ وفرغوا من صياغة المذكرة وقد سجل الزعماء فى هذه المذكرة على محمد على الضرائب المستحدثة التى فرضها على التجار والملتزمين ونظار الأوقاف ومن اليهم • كما أخذوا عليه اعتقال الطالب الازهرى دون أن يرتكب جريمة أو يجرى معه تحقيق •

محمد على يوفد سكرتيره الخاص

وكان محمد على قد نما الى علمه نبأ اجتماع الزعماء ، فأوفد اليهم ديوان افندى ـ سكرتيره الخاص ـ وتحدث اليهم حديثا جمع بين المداهنة والتهديد والخبث والخداع ، وطعن فى أخلاق محمد على ورماه بالجهل والنزوع الى الظلم والتهور والغرور • وكان السكرتير الخاص يهدف من حديثه استدراج الزعماء الى الكشف عن مكنون ضمائرهم نحو محمد على ، وبذلك ينقل الى مولاه صورة حقيقية عن مشاعر كل منهم وبخاصة عمر مكرم الذى كان يحسب له حسابا أكثر من أى زعيم آخر • ولكن فوت الزعماء على السكرتير الخاص غرضه فتناسوا مؤقتا منافساتهم وبدوا أمامه فى اجماع رائع وتماسك قوى •

استهل السكرتير الخاص حديثه مع الزعماء بأنه يحمل اليهم تحيات محمد على وقال لهم ان محمد على يريد أن يقف على مطالبهم

فشرحوا له ما سطروه فى مذكرتهم • وبعـد أن استمع الى وجهة نظرهم طلب منهم الذهاب الى محمد على ومقابلته وكان مما قاله لهم « ينبغى ذهابكم اليه وتخاطبوه مشافهة بما تريدون ، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم • وانما القصد أن تلاطفوه فى الخطاب ، لانه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم • ولا تقبل نفسه التحكم ، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم انفاذ الغرض » • ولكن امتنع الزعماء جميعا عن الذهاب اليه وقالوا « لا نذهب اليه أبدا ما دام يفعل هذه الفعال • فان رجع عنهـا وامتنع عن احداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا اليه وترددنا عليه كمـا كنا فى السابق ، فاننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور » • فقال لهم ديوان افندى « وأنا قصدى أن تخاطبوه مشـافهة ويحصل انفاذ الغرض » • فأجابوا « لا نجتمع عليه أبدا ، ولا نثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا ، ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا » •

والعبارة الاخيرة تلخص موقف عمر مكرم والزعمـاء فى هذه المرحلة من الازمة : فهم مصرون على رفض الاجتماع بمحمد على الا بعد أن يلغى الضرائب المستحدثة ويفرج عن الطالب الازهرى المعتقل ، وهم لن يؤلبوا الشعب على الوالى بل سيعتكفون فى منـازلهم حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا • ولا يحمل هذا الموقف معنى السلبية ، لان الاعتكاف أمر جد خطير ، فهو بمثابة قطع علنى للعـلاقات بين زعماء الشعب وبين الحاكم ، واعلان صريح بأن محمد على قـد خان أمانة الحكم ونقض الميثاق الذى أخذوه عليه عند اختياره حاكما • وكان الزعماء فى هذا الموقف مثلا طيبا للتضامن والتماسك •

وانفض الاجتماع بعد أن أخذ ديوان أفندى معه عريضة الزعماء لعرضها على محمـد على ووعدهم بأنه سيعود اليهم يحمل رد الوالى عليهـا • ولكن محمد على المخادع تجاهل العريضة ومضت أربعة أيام وهو يرقب موقف الزعماء ويرسم الخطط لبـذر بذور التفرقة

بينهم وتحطيم وحدتهم • وكل ما فعله هو انه اطلق سراح الطالب الازهرى المعتقل •

وقع اختياره على أحد موظفيه وهو محمـد أفندى طبل وكان يشغل منصب ناظر المهمات العسكرية ، فأوفده فى اليوم الخامس الى الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى حيث عقد الثلاثة اجتماعا طويلا يمكرون السيئات • وكان يجمع بين الثلاثة ـ كما يقول الجبرتى ـ حقد دفين على عمر مكرم • ثم انفصل محمد أفندى طبل عن الشيخين ليذهبا بمفردهما الى عمر مكرم ، وأبلغاه أن ناظر المهمات قـد نفى لهما نفيا باتا الانباء التى ترددت حول تقرير الضرائب الجديدة وأنه أكد لهما أن محمد على لا يعتزم انشاء ضرائب مستحدثة ، بل انه حريص على عـدم مخـالفة أوامر المشايخ وانهم « اذا اجتمعوا به وتحدثوا معه يحصل كل المراد » • فرد عليهما عمر مكرم قائلا ان لديه الدليل القاطع على صحة الانبـاء التى استفاضت عن فرض الضرائب الجديدة وأبرز لهما أوامر مكتوبة صدرت من المباشرين(١) لبعض الملتزمين مشتملة على تقرير الضرائب الجـديدة ، وأخذ عمر مكرم يذكر أنواع هذه الضرائب واسماءها • أما عن ذهاب الزعماء الى محمد على فقال عمر مكرم « أما الذهاب اليه فلا أذهب اليه أبدا• وان كنتم تنقضون الايمان والعهد الذى وقع بيننا فالرأى لكم » •

انفض هذا الاجتماع الثلاثى الذى ضم عمر مكرم والشيخين المهدى والدواخلى وشعر عمر مكرم أن هذين الشيخين ـ وهما من كبار الزعماء ـ قد خرجا على وحدة الصف • فكان مسلكهما صدمة له • وعلم محمد على بتفاصيل ما دار فى الاجتماع من مناقشـات وأدرك أن عمر مكرم ثابت على رأيه ، لا يقبل تساهلا أو هوادة • وكان محمد على يخشى أن يؤلب عمر مكرم الشعب ضده ويقتلعه من

(١) المباشرون هم جباة الضرائب من الاقباط •

الحكم كما اقتلع أحد خورشيد من قبل . وكما يقول الجبرتى كان محمد على « يخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره ، ان شاء جمعهم ، وان شاء فرقهم ، وهو الذى قام بنصره ، وساعده وأعانه ، وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الاقليم ، ويرى أنه ان شاء فعل بنقيض ذلك . » ولذلك كان موقف عمر مكرم ومعارضته تصرفات محمد على مما أقلق باله وأقض مضجعه . ورأى أن يقرب اليه بعض الزعماء ملوحا لهم ببعض المناصب هادفا من ذلك الى الفصل بين الزعماء وبين كبيرهم عمر مكرم .

استغل محمد على المطامع الشخصية التى كانت تجيش فى نفوس غالبية الزعماء وتزاحمهم على التنظر على أوقاف الأزهر وغيره كما استغل التنافر والتحاسد فيما بينهم والحقد الذى كان يفتعل فى نفوس فريق منهم على عمر مكرم ونجح فى استمالة معظم الزعماء فكان يدعوهم الى القلعة لزيارته فرادى ويقضى مع كل منهم وقتا طيبا ويتلطف معه فى الحديث « فيغتر بذلك ويرى أنه صار من المقربين ، وسيكون له شأن ان وافق ونصح ، فيفرغ له جراب حقده ، ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة » وكانت المعاونة التى ينشدها محمد على من الزعماء هى اسهامهم فى هدم كبيرهم عمر مكرم . وبهذه الوسيلة استطاع محمد على أن يضم اليه نفرا من الزعماء طلاب المنافع ضعاف النفوس أخذ يعدهم ويمنيهم . وما كان يعدهم الا غرورا . وقد ضرب هؤلاء الزعماء بالمواثيق والعهود والقيم الخلقية عرض الحائط ، على نقيض عمر مكرم الذى كان زعيا أخلاقيا ثبت على مبدئه ووقف بفرده فى وجه الطاغية لم يرهبه وعد أو وعيد ، بل صدق ما عاهد الله عليه ، وما بدل تبديلا

وفى ١٣ يونيو ١٨٠٩ ذهب الى منزل عمر مكرم السكرتير الخاص لمحمد على وعبد الله بكتاش المترجم . وكانت الدار غاصة بالزعماء . ودارت مناقشة عاصفة ضافية حول السياسة الضريبية

التى انتهجها محمد على مؤخرا والضنك الذى نزل بالشعب نتيجة اسراف محمد على فى هذه السياسة . وطال النقاش حول ذهاب الزعماء الى محمد على أو امتناعهم عن التوجه اليه تنفيذا لاتفاقهم السابق . وأبدى الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى استعدادهما للذهاب الى محمد على « ورقرق » كل منهما لهذه المقابلة ـ على حد تعبير الجبرتى ـ ولما طلب السكرتير الخاص الى عمر مكرم أن يحذو حذوهما أبى أن يتزحزح عن موقفه وأغلظ له فى القول اغلاظا . وعندئذ طلب الشيخ المهدى الى الشيخ محمد الامير الانضمام اليهما والذهاب معهما الى القلعة لمقابلة محمد على ، ولكنه استشعر الحرج واعتذر بانحراف صحته . وخرج المهدى والدواخلى ومعهما ديوان افندى وعبد الله بكتاش المترجم وصعد الأربعة الى القلعة حيث قابلوا محمد على ، وأعلن الدواخلى أنه حضر بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر فكان هؤلاء الزعماء الثلاثة من أوائل المتآمرين على عمر مكرم ومن أول من نقضوا الايمان . وكان الشرقاوى يتوارى من القوم وراء المهدى والدواخلى من سوء فعلته شعورا منه بالخجل من هذا الانحراف وهذه الفعلة .

القولى يتنكر للشعب :

أحسن محمد على مقابلة الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى وأثنى ثناء مستطابا عليهما وعلى الزعماء الذين أبدوا استعدادا لمقابلته والتحدث معه فى شئون الحكم . وتظاهر بأنه لا يزال مقيما على عهده ، وفيا للميثاق الذى واثقه الزعماء عليه . وصرح لهما بفوله انه يقبل عن طيب خاطر نصح الزعماء له ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، فقرر أن تدخلهم لديه لتقويم أى انحراف أو عوج انما هو فرض عليهم يجب أن يقوموا به من تلقاء أنفسهم ، وسيجدون منه

رحابة صدر واستجابة سريعةلتدخلهم ووساطتهم . وكان مما قاله لضيفيه الشيخين النفعيين « أنا لا أرد شفاعتكم ولا أقطع رجاءكم . والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحونى وترشدونى » ثم صب جام غضبه على عمر مكرم لامتناعه عن الحضور معهما اليه وكانت عباراته وألفاظه تدل على أنه لا يحمــل أى ود لعمر مكرم وأنه يريد التخلص منه ، بل أنه سرعان ما عصف بهـذا التقدير الذى أظهره للزعماء فى مستهل المقابلة ، فعمد الى تهديدهم وتهديد الشعب المصرى على بكرة أبيــه . قال ان عمر مكرم دأب فى الايام الأخيرة علىمعاندته ومعارضة قراراته وتخويفه بتأليبالشعب عليه ، وأشار الى الاجتماعات التى يعقدها عمر مكـرم مع الزعمـــاء فى الأزهر ابتغاء اثارة الفتنة فى البلاد وتحريك الشعب للثـــورة على غرار ما كان يقع فى السنوات السابقة ، واضاف الى ذلك قوله ان مثل هذه التصرفات لا يليق صدورها من الزعماء ، وهى لا تقلقه . أما الشعب وقد أطلق عليه الرعية ـ من قبيل الاستعلاء ـ « فليس لهم عندى الا السيف والانتقام » (١) وهكذا تنكر محمد على للشعب الذى نادى به واليا على مصر وتحمل من أجله ويلات الحرب فى حصار القلعة لاكراه خورشيد باشا على مغادرتها وتمكين محمد على من حكم مصر ، وظهر أن العطف الذى كان يبـديه للشعب أيام عســـف البرديسى وخورشيد انما كان رياء ونفاقا ، كما اتضح أن محمد على كان من هذه الناحية يفوق خورشيد فى ازدراء الشعب حين وصف الأخير المصريين بكلمة الفلاحين . والحق أن أحداث التاريخ الحديث والمعاصر قد دلت على أن الزراية بالشعب واغماط حقه وجحد فضله كان من أبرز الصفات فى محمد على وفى بنيه وحفدته .

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ص ٩٦ ـ ٩٧ .
وقد ورد وصف تفصيلى لهذه المقابلة وتصريحات محمد على التهديدية فى
Achille de Vaulabelle, ouvr. cit., t 9 pp 413-414

وقد ظهر الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى بمظهر الضعف والتخاذل ، فأنكرا آن الاجتماعات التى يعقدها الزعماء فى الجامع الأزهر تستهدف الدفاع عن مصالح الشعب ؛ بل ذكرا فى بلاهة وجبن أن الغرض من هذه الاجتماعات انما هو قراءة البخارى والدعاء الى الله لرفع الكروب • ثم كان هناك ما هو أفدح من ذلك كله اذ تظهر صورة غير كريمة من أخلاق الزعماء الانتهازيين وحرصهم على تملق الحاكم واسترضائه حين تبرع الشيخ المهدى بالحط من شأن عمر مكرم والتهوين من أمره ، فوصفه هذا الشيخ لمحمد على بأنه ليس فى عداد المشايخ العلماء ، وانما هو صاحب حرفة أى نقيب الأشراف أو محصل يجمع ايراد الأوقاف ويوزع هذا الايراد على المستحقين الواردة أسماؤهم فى كشوف نقابة الأشراف وخلص الشيخ المهدى من ذلك الى القول بأنه ليس لعمر مكرم منزلة اجتماعية مرموقة أو قدر ممتاز الا بفضل مؤازرة العلماء له ، واذا تخلوا عنه تهاوت منزلته ولم يعد له قدر أو قيمة أو خطر • ويعلق الأستاذ عبد الرحمن الرافعى على محاولة الشيخ المهدى تصغير شأن عمر مكرم والتهوين من أمره فيقول ان هذا الزعيم « لم ينل ما نال من المكانة لتوليه نقابة الأشراف ، بل ان مكانته ترجع الى شخصيته البارزة ، ونفسه العالية ، وشجاعته ونزاهته ، وترفعه عن الدنايا وسفاسف الأمور • ولو لم يكن نقيبا للأشراف لما نقصت مكانته عما صارت اليه من العظمة ورفعة الشأن • » (١)

وفى هذه المقابلة استبان للشيخ المهدى والشيخ الدواخلى الغرض الذى يرمى اليه محمد على وهو تحطيم نفوذ عمر مكرم • وتلاقت هذه الرغبة مع رغبة معظم الزعماء • يقول الجبرتى « فعند

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على • الطبعة الثانية • القاهرة ١٩٤٧ ص ٧٢ •

ذلك سبين قصد الباشا لهم ، ووافق ذلك ما فى نفوسهم من الحقد للسيد عمر .. وانصرف الشيخان من هذه المقابلة وهما « مذبذبان ومظهران خلاف ما هو كامن فى نفسيهما من الحقد وحظوظ النفس غير مفكرين فى العواقب » واذا كان المهدى والدواخلى قد نجحا فى الوقيعة بعمر مكرم وعملا على هدمه ، فقد كانا يهدمان نفسيهما وزملاءهما أيضا الأمر الذى ساعد محمد على فى النهاية على القضاء على الزعامة الشعبية واقصائها عن الحياة السياسية فى مصر وانتهى بها الأمر الى أن أصبحت فى خبر كان . والواقع أن المشايخ لم يفكروا فى عاقبة مسلكهم المعيب الشائن لأنهم كانوا تحت تأثير الحقد على عمر مكرم والتحاسد والتكالب على المناصب والتطلع الى الجاه « وحظوظ النفس » فكان عاقبة أمرهم خسرا .

انصرف الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى من القلعة الى دار عمر مكرم مباشرة فألفياه يتميز من الغيظ لذهابهما الى محمد على خروجا على العهد وكان عمر مكرم شديد الرغبة فى أن يقف جميع الزعماء من محمد على صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص . وقد أخبراه بما دار فى المقابلة ، وتبرعا بالدفاع عن محمد على فاذا هما يرددان نفس العبارات التى ذكرها ديوان افندى حين اجتمع بالزعماء فى الجامع الأزهر فى أول يوليو ١٨٠٩ . قال الشيخان الانتهازيان ان محمد على يكره التحكم ولكنه يقبل النصيحة تسدى اليه من المشايخ ويلتزم بها فى تصرفاته . وأضافا الى ذلك أنه قد وعد بالغاء بعض الضرائب المستحدثة وتخفيض البعض الآخر . ثم أبلغا عمر مكرم أن محمد على أراد أن يعرف منهما اسم الزعيم الذى يحمل لواء المعارضة له ويقوم بتحريض الغير عليه ولكنهما تهربا من الاجابة على سؤاله « قال (محمد على) أريد أن تخبرونى عمن انتبذ لهذا الأمر ، ومن ابتدأ بالخلف ، فغالطناه » وسياق الحديث يدل أن المهدى والدواخلى كانا غير أمينين فى ذكر هذا الجزء من الحديث

لأن معظم الحديث كان يدور فى المجال الشخصى حول عمر مكرم والطعن فى شخصه وتجريده من كل فضل · فلا بد أنهما ذكرا اسمه بصراحة · وما كان محمد على فى حاجة الى استيضاح اسم الزعيم لأنه يعرفه جيدا ، وانما كان سؤاله من قبيل التهديد والوعيد ·

استطالت الأزمة بين الزعيم والقولى أسابيع ذات عدد · ولم تبد فى الأفق بارقة أمل بانفراج الأزمة على نحو مرض للطرفين · فعمر مكرم مصر على موقفه ويطالب بأن يبادر محمد على أولا · وقبل كل شىء الى الغاء جميع الضرائب التى استحدثها الغاء فوريا وكاملا · أما محمد على فكان هو الآخر شديد الرغبة فى عدم المساس بسياسته الضريبية تنفيذا للمخطط السياسى الذى سبق أن أشرنا اليه على الرغم من تظاهره بالرغبة فى الغاء بعض الضرائب · وتدهورت العلاقات بينهما بصورة سريعة وكان للزعماء دورهم فى تفاقم الأزمة اذ « انفتح بينهم باب النفاق واستمر القيل والقال ، وكل حريص على حظ نفسه ، وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره » ·

اجتماع عاصف يدلى فيه الزعيم بتصريحات خطيرة :

وكان محمد على لا يزال يحدوه أمل قوى فى أن ينجح فى استمالة عمر مكرم اليه كما استطاع اجتذاب الزعماء نحوه · واعتقد أن عمر مكرم سوف تلين قناته بعد أن أدرك أن زملاءه الزعماء قد نكصوا على أعقابهم وتسابقوا فى الذهاب الى القلعة تزلفا لمحمد على حتى تزعزعت وحدتهم وتفرقت كلمتهم · وهذا هو وجه الخطأ فى تقدير محمد على ، اذ ظن أن عمر مكرم على شاكلة سائر الزعماء الوصوليين الانتهازيين النفعيين · ومهما يكن من أمر ، فقد أوفد محمد على فى ١٤ من يوليو ١٨٠٩ ديوان افندى وعبد الله

بكتاش المترجم الى عمر مكرم وقابلاه فيمنزله حيثعقد اجتماع هام شهده الزعماء ، وحاول الجميع أن يزحزحوا عمر مكرم عن موقفه وأن يستميلوه الى الصعود الى القلعـــه لمقابلة محمد على . فانفجر عمر مكرم فيهم ساخطا عليهم منكرا عليهم محاولتهم مذكرا اياهـم بالقسم الذى أقسموه على التضامن . ولم يستطع كبح جماح غضبه فاقسم أنه لن يسعى اليه ولن يجتمع به ولن يرى له وجها الا اذا الغى الضرائب المستحدثة . وأفاض عمر مكرم فى مهاجمة محمد على وقال عنه انه حاكم جبل على الظلم واستنزاف أموال الشـعب ، وتنبأ بأنه اذا طال بمحمد على حكم مصر فان المظالم ستشتد وطأتها على الشعب . وكان مما رواه الجبرتى عن هذا الحديث الصـاخب « فحلف السيد عمر أنه لا يطلع اليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجها الا اذا أبطل هذه الأحدوثات ، وقال ان جميع الناس يتهمونى معه ويزعمون أنه لا يتجارأ علىشىءيفعله الا باتفاقى معهويكفى ما مضى. ومهما يتقادم يتزايد فى الظلم والجور وتكلم كلاما كثيرا . » وقد التزم الجبرتى الصمت ازاء هذا الكلام الكثير ولكن ذكره المعاصرون اذ قرر مانجا ان عمر مكرم أضاف الى هذا الكلام النارى تهديده باحالة الموضوع الى الباب العالى اذا أصر محمد على على المضى فى سياسة الظلم ، كما توعد بتحريك الشعب للثورة عليه وخلعه من الولاية كما فعل مع خورشيد من قبل ، قال عمر مكرم « وكمـــا أصعدته الى الحكم فانى قدير على انزاله منه » كما سجل المؤرخ جوا العبارة الأخيرة (١) .

كانت هذه الاتهامات التى وجههـــا عمر مكرم الى محمد على والشجاعة الأدبية التى بدأها فى مواجهة مندوبى الوالى كفيلة بأن

---

(١) Mengin. ouvr. cit, t I p. 334

وانظر أيضا : Gouin Edouard, ouvr. cit., p. 206

تحمل العلماء على الثبات فى موقفهم وتنسيق خطتهم مع خطة كبيرهم عمر مكرم ، فيمتنعوا جميعا عن الذهاب الى الوالى حتى يلغى كافه الضرائب المستحدثه • ولكن كان أولئك الزعماء ـ أو مشايخ الوقت ـ أضعف من أن يقفوا مثل هذا الموقف ليملؤا ارادتهم وارادة الشعب على الوالى • فقد كان يسيطر على تصرفاتهم الحقد والتنافس والرغبة فى التقرب الى محمد على وصولا الى المناصب الكبرى • وكان محمد على من الدهاء والخداع والخبث بحيث استطاع أن يغذى هذه الفرقة فأصبح الزعماء النفعيون فى جانب وعمر مكرم الحفيظ على مبدئه فى جانب آخر ، مما جعل بعض الباحثين يصورون عمر مكرم فى صورة الزعيم الذى كان يعوزه بعد النظر والحكمة والمرونة والحصافة السياسية ، وهو أمر سوف نتعرض لمناقشته بعد قليل•

وفد من كبار المشايخ يذهب الى محمد على :

ولما أخفقت محاولات المجتمعين فى استمالة عمر مكرم للذهاب الى محمد على قرروا أن يقوموا هم بهذه الزيارة وتقرر تأليف وفد من المشايخ عبدالله الشرقاوى ومحمد المهدى ومحمد الدواخلى وسليمان الفيومى وأرسلوا مرة أخرى الى الشيخ محمد الأمير لينضم اليهم فى ذهابهم الى محمد على فاعتذر بأن صحته لا تقوى على ركوب دابته والصعود الى القلعة • ومعنى اعتذاره أنه كان واقفا على المؤامرة التى دبرها الزعماء ضد عمر مكرم وأنه رفض أن يشترك فى حلقاتها • وذهب وفد الزعماء الى محمد على ، وتمت المقابلة فى جو يسوده النفاق « وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية » وتطرق الحديث الى موضوع الضرائب المستحدثة ، فأعلن محمد على عزمه على الغاء ضريبة التمغة على السلع وضريبة الأطيان على أراضى الوسية وتخفيض ضريبة الفائض الى الربع • وعاد الزعماء الى عمر مكرم وأخبروه بهذه القرارات التى أزمع اصدارها وبما دار فى المقابلة • فسألهم عمر مكرم مستنكرا عما اذا كانوا قد اقتنعوا حقيقة بصحة ما قاله

لهم محمد على ؟ ومضى عمر مكرم يقول للزعماء ان محمد على كان قد بعث اليه يخبره بأمر تخفيض ضريبة الفائض الى الربع ، فرفض عمر مكرم وأبى الا الغاءها الغاء كليا ، لأنه فى العام السابق - ١٨٠٨ - لما أراد استحداث هذه الضريبة بمقدار الربع عارضه عمر مكرم خشية أن تكون سابقة تعتمد عليها الحكومة فى فرض هذه الضريبة فىالسنوات التالية، فأقسممحمد على أن هذه الضريبة لن تفرض الا فى ذلك العام (١٨٠٨) وذلك لمواجهة دفع المرتبات المتأخرة للجنود • وقال محمد على يومذاك انه اذا فرضها مستقبلا يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله ، وعاهد عمر مكرم على ذلك • وقال عمر مكرم للزعماء موبخا انهم يعلمون هذه الحقائق تمام العلم فلم يسعهم الا الاعتراف بهذه الوقائع • ثم انتقل عمر مكرم يجادل الزعماء فيما قرره لهم محمد على من أنه ألغى ضريبة الأطيان على الأرض الوسية ، فقال ان هذا الالغاء ليس الا زعما لا أساس له • وقال ان لديه مستندات تثبت أنه شرع يجمع هذه الضريبة من بلدان مديرية البحيرة -وهى بلاد داخلة فىدائرة التزام عمر مكرم- فقال الزعماء انهم أثاروا هذه المسألة مع محمد على فأنكرها أولا ثم عاد فاعترف بها ثانيا حين أخبروه أن لدى عمر مكرم المستندات الخاصة بها • وقد برر محمد على فرض هذه الضريبة تبريرا غريبا ، فقال ان انشاءها انما هواجراء تأديبى عقابىلأهالى البحيرة لتدليسهم على موظفى الحكومة، اذ كان أهل البحيرةيقدمون لهم معلومات مزورة فاذا كان فى البلدة خمسمائة فدان تروى ريا عاديا قالوا عنها انها مائة فدان فقط• فأجاب عمر مكرم مستنكرا هذا التبرير ومستنكرا فرضها « وهل ذلك أمر واجب فعله ؟ أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه فى العام الماضى وهى فرضة الأطيان التى ادعى لزومها لاتمام العلوفة وحلف انه لا يعود لمثلها ، فقد عاد وزاد ، وأنتم توافقونه وتسايرونه ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة ، وأنا الذى صرت وحدى مخالفا وشاذا ؟ » وهكذا أثبت لهم الزعيم أنهم فى أثناء

مقابلتهم لمحمد على لم يكونوا يمـارونه الا مراء ظاهرا غير متعمق ، وأنهم وهنوا وضعفوا واستكانوا أمامه حتى خدعهم خدعا فألقى فى آذانهم بمفتريات يعلمون جيدا كما يعلم هو أنها كاذبة فكأن محمد على كان فى قرارة نفســـه يسخر منهم ويسخر بعقولهم • وغادر الزعماء دار عمر مكرم ويصف الجبرتى حالهم بعد اجتماعهم بزعيمهم « وانفض المجلس وتفرقت الآراء ، وراج سوق النفـاق ، وتحركت حفائظ الحقد والحسد ، وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار » •

الفصل السادس عشر

عزل عمر مكرم ونفيه

القولى يحاول رشوة الزعيم :

أراد محمد على بعد أن ضاقت به الوسائل أن يجرب مع عمر مكرم سلاح المال ، فأرسل اليه كتخداه – أى وكيله – «ليترفق به» – على حد تعبير الجبرتى – ويعرض عليه عطاء غير مجذوذ ، فيرتب له كل يوم كيسا أى خمسة جنيهات ، وهو مبلغ كبير للغاية بالنسبة لقيمة النقد فى ذلك الوقت ، وان يقدم له عطاء معجلا قدره ثلاثمائة كيس أى ألف وخمسمائة جنيه . فرفض عمر مكرم ولم يطلب الا أن يرفع محمد على المظالم عن الشعب بالغاء كافة الضرائب المستحدثة . ودل عمر مكرم فى موقفه على أنه زعيم اخلاقى يتميز بالنزاهة وعلو النفس لا يستطيع الحاكم أن يشتريه بمال ولو كثر . وهذا هو خطأ آخر وقع فيه محمد على حين ظن أن عمر مكرم على غرار معظم زعماء عصره الذين استطاع أن يضمهم اليه بمجرد أن لوح لهم ببعض المناصب التى يشتهونها .

عمر مكرم يحبط مكيدة دبرها القولى :

أخذت الهوة التى تفصل بين الزعيم والقولى تزداد اتساعا وعمقا بمضى الأيام بسبب دعاة السوء الذين كانوا يترددون على القولى وينقلون اليه الآراء التى يصرح بها الزعيم فى مجالسه ويضيفون اليها ما شاء لهم الحقد من افتراءات ، فتزداد هواجس محمد على من

عمر مكرم حتى « أصبح متعلق الخاطر بسببه » وأرسل محمد على الجواسيس يحيطون بمنزل عمر مكرم لمراقبة حركاته ومعرفة اسماء زائريه ، ثم سولت له نفسه أمرا ، فأوعز الى بعض رجال حكومته بالاتصال سرا بعمر مكرم يسرون اليه بالمودة ويتظاهرون بأنهم ساخطون على الأوضاع القائمة فى مصر ، وأنهم ناقمون على حكم محمد على، ويبدون استعدادهم التام لتأييد عمر مكرم فى أية حركة يقوم بها للاطاحة بمحمد على وحكمه ، ولكن عمر مكرم رابته هذه الاتصالات ، ولم يطمئن الى اخلاص القائمين بها ، فأعرض عنها ٠ وكانت تصريحاته لهم هى نفس التصريحات التى كان يدلى بها للزعماء ومندوبى محمد على ٠ فهو لا يزال على موقفه ممتنعا عن الاجتماع به ، مبديا سخطه العميق على أسلوبه الباغى فى حكم الشعب ٠

الزعيم يتهم محمد على بالاختلاس والتزوير :

وحدث أثناء الأزمة أن طالبت الحكومة العثمانية بأربعة آلاف كيس كانت متبقية لها على مصر من المبلغ الذى خصصه القبطان باشا ٠ وأراد محمد على أن يتهرب من دفع هذاالمبلغ فعقد مجلسا حضره المشايخ ورفض عمر مكرم حضور هذاالاجتماع ، وقد وضعت فيه مذكرة تحتوى على معلومات كاذبة ليرسلها محمد على الى الآستانة ٠ وبلغت به الجرأة علىالحق أنه قرر فى هذه المذكرة أن خزانة الحكومة أصبحت خاوية نتيجة انفاق اعتمادات مالية ضخمة خصصت لمشروعات التعمير فى مصر مثل سد ترعةالفرعونية واقامة منشآت عسكرية فى القلعة وانشاء مجراة الماء التى تنقل الماء اليها وترميم القناطر وحفر الترع وانه أنفق ثمانمائة كيس – أى أربعة آلاف جنيه – على تجهيز الحملات العسكرية التى وجهها ضد الأمراء المماليك وقرر أيضا فى المذكرة أن ضريبة الأطيان قد نقصت حصيلتها بسبب انخفاض فيضان النيل فى العام السابق ٠ وقد

وقع المشايخ على هـذه المذكرة ووضعوا عليهـا أختامهم (١) . ثم أرسلت المذكرة الى عمر مكرم بصفته نقيبا للأشراف للتوقيع عليها ووضع ختمه عليها قبل ارسالها الى الباب العالى . فامتنع عمر مكرم، ولم يتشكك فى صحة الأرقام فحسب بل انه اتهم محمد على صراحة باختلاس الأموال العـامة والتدليس على الحـكومة العثمانية ، وقال للرسول الذى حمل اليـه المذكرة ان الأموال التى جمعها محمد على من الشـعب تزيد أضعافا مضـاعفة على ما أنفقه على سـد ترعة الفرعونية وهو المشروع الوحيد الذى نفذه ، أما سائر المشروعات التى جاء ذكرها فى المذكرة فكلها من نسج الخيال ، وكلها كذب ، وكلها اختلاق ، ثم قال للرسول « ان وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر » (٢) .

عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه :

اشتد حنق محمد على حين نقل اليه الرسول هذه الاتهـامات الخطيرة ، وخشى أن تسمع بها دوائر الباب العـالى فى الآستانة ، فعول على تسوية النزاع وديا ، وطلب أن يجتمع بعمر مكرم ولكن الزعيم اشترط ــ قبل أن يتم الاجتماع ــ أن يلغى محمد على فورا جميع الضرائب التى فرضها مؤخرا على الشعب . ولـما أكثر محمد على من التراسل قال عمر مكرم اذا كان لا منـاص من الاجتماع به فانى أقابله فى منزل الشيخ السادات لتكون المقابلة على سواء ، « أما طلوعى اليه فلا يكون » . وبلغت الأزمة منتهاها اذ اعتبر محمد على هذا الشرط تحقيرا من شـأنه وقال « انه بلغ به (بعمر مكرم) أن يزدرينى ويرذلنى ويأمرنى بالنزول من محل حكمى الى بيـوت الناس » .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦٨ .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ٩٨ .

صحت عزيمة محمد على على القولى على التخلص من عمر مكرم باعتباره ثائرا على السلطة الشرعية فى البلاد (١) ولجأ الى طريقة ظاهرها التمسك بقواعد الشرع وباطنها استغلال النفوذ وشراء ذمم الزعماء ضعاف النفوس ، واطمأن الى أن هذه الطريقة لن تثير عليه الشعب ، لأنه أشرك معه قاضى القضاة والزعماء الوصوليين أمثال الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ السادات والشيخ الدواخلى والشيخ الفيومى وكلهم من صنائعه وطلاب منافع شخصية • فنزل محمد على من القلعة الى منزل ابنه ابراهيم بالأزبكية ، وكان ذلك فى ٩ من أغسطس ١٨٠٩ ، واستدعى القاضى والمشايخ ، وطلب عقد مجلس شرع ليفصل فى النزاع الذى شجر بينه وبين عمر مكرم ، واتخذ محمد على من المشايخ شهودا له يركن اليهم فى جولته النهائية يحسم بها النزاع • وسواء حضر عمر مكرم أمام مجلس الشرع أو امتنع عن حضوره فان محمد على كان مطمئنا الى أن الحكم سوف يصدر لصالحه تأسيسا على شهادة المشايخ • وفى هذه الحالة يكون لمحمد على الحق فى نفيه جزاء خروجه على السلطة الشرعية بدون وجه حق • أما اذا رفض عمر مكرم حضور مجلس الشرع ، فان هذا الرفض يكون خروجا على ولى الأمر ، ويكون له نفس الأثر القانونى • فالمؤامرة كانت محكمة التدبير ، ولو كان الزعماء قد تكتلوا الى جانب كبيرهم عمر مكرم لما استطاع محمد على أن ينال من خصمه منالا •

أرسل كل من محمد على وكبير القضاة رسولا الى عمر مكرم يستدعيانه للحضور الى مجلس الشرع « ليتحاقق ويتشارع معه » واشتم عمر مكرم رائحة التآمر عليه فاعتذر بمرضه عن المثول أمام مجلس الشرع وعاد الرسولان « وأخبرا بأنه شرب دواء ولا يمكنه

---

(١) Paton. ouvr. cit., t II, pp 27-28

الحضور في هذا اليوم » . وعندئذ طلب محمد على من قاضى القضاة أن يثبت امتناعه وأمر بعزله من نقابة الأشراف ونفيه فورا من القاهرة وفى نفس الوقت اصدر قرارا بتعيين الشيخ السادات نقيبا للأشراف . وكان الآخر يطمع فى هذاالمنصب من أمد بعيد . وأحضر محمد على خلعه والبسها للنقيب الجديد الذى كان حاضرا المجلس (١) .

وتظاهر الزعماء بالعطف على عمر مكرم فتشفعوا فى امهاله ثلاثة أيام حتى يرتب شئون أسرته قبل رحيله ، فأجابهم محمد على الى ذلك ، ثم سألوه أن يأذن له فى الاقامة فى أسيوط وهى مسقط رأسه لتكون منفى له ، فرفض وقال ان له الخيرة بين دمياط وبين الاسكندرية ، وانفض المجلس على ذلك .

فى هذه المحنة ظهرت أخلاق الزعيم فى جلالها وروعتها ، فلم تخذله شجاعته لحظة واحدة ، ولم يضعف أمام هذه الصدمة ، بل ظل ثابت العقيدة سليم الوجدان . ولما أبلغ بقرار محمد على قال « أما منصب النقابة فانى راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه الا التعب . وأما النفى فهو غاية مطلوبى وأرتاح من هذه الورطة » . وأظهر اباء وشمما وعلو نفس ، فلم يتقدم بمطالب شخصية أو بالتماس لتخفيف الحكم بالاقتصار مثلا على عزله من نقابة الأشراف والسماح له بالاقامة فى القاهرة مع ذويه . كان كل ما قاله بعد قرار العزل والنفى، انه اذا رفض محمد على أن يسمح له بالسفر الى أسيوط فانه يفضل أن يكون النفى الى بلدة ليست تحت حكم محمد على . واقترح عمر مكرم مدينة درنة فى طرابلس الغرب أو الطور ولكن أبى محمد على أن ينزل عن رأيه وتمسك بأن تكون دمياط منفى له .

---

(١) أمين سامى : تقويم النيل ج ٢ ، ص ٢١٨ .

استدعى عمر مكرم باشجاويش نقابة الأشراف وطلب منه أن ينصرف هو والشاويشيه المعينون للنقابة الى بيت الشيخ السادات نقيب الاشراف الجديد • وأخذ الزعيم يستعد للرحيل ، وعهد الى السيد محمد المحروقى كبير التجار بأن يكون وكيلا عنه فى ادارة أملاكه وفى رعاية شئون أفراد اسرته • وكأن محمد المحروقى خشى على نفسه ان يقبل هذه الوكالة ويستهدف لانتقام محمد على ، فعرض عليه الأمر فأذن له وتظاهر محمد على رياء ونفاقا بالعطف والتقدير لعمر مكرم فقال ان عمر مكرم (آمن من كل شىء ، وأنا لم أزل أراعى خاطره ولا أفوته) واصطحب المحروقى حفيد عمر مكرم الى محمد على ، فأحسن مقابلة الغلام ولكنه أصر على ضرورة سفر جده الى دمياط • ولما ذاع بين الجماهير نبأ صعود الغلام الى القلعة أحسنوا الظن بمحمد على • واعتقد الشعب الطيب القلب أنه عدل عن قراره• وانتشرت هذه الشائعة بسرعة البرق بين الأهالى ، واحتواهم شعور دافق بالابتهاج الشديد • وكان أفراد أسرة الزعيم أكثر الناس ابتهاجا بطبيعة الحال ، وأطلقت نساؤها الزغاريد • واستمر الجميع سادرين فى هذا الوهم والخيال حتى اذا عاد الغلام من القلعة وعرفوا الحقيقة انقلبت أفراحهم أتراحا •

عهد محمد على الى أحد الضباط وهو محمد كتخدا الألفى بحراسة عمر مكرم فى سفره الى دمياط • وتحدد يوم ١٢ من أغسطس ١٨٠٩ موعدا لرحيله من القاهرة • وفى هذا اليوم اجتمع المودعون لتحية عمر مكرم وحضر الضابط الى منزله فقام الزعيم فى الحال وركب دابته فى حراسة عسكرية وذهب الى بولاق ــ ميناء القاهرة النهرى ــ واستقل سفينة اعدتها له الحكومة وأبحرت به ليلا الى دمياط • ويصف الجبرتى وداع القاهريين له وحزنهم على فراقه لهم « وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه ، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر

(القاهرة) ، لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس ، ولتعصبه على نصرة الحق » • وفى ١٩ من أغسطس ١٨٠٩ وصل الى القاهرة محمد كتخدا الألفى « راجعا من تشـــييع السيد عمر ووصوله الى دميــاط واستقراره بها » •

الفصل السابع عشر

مناقشة موقف عمر مكرم

قد يرى البعض أن عمر مكرم أسرف اسرافا بعيدا في موقف الصلابة والعناد من محمد على حين رفض الطلبات المكرورة التي أرسلها اليه محمد على للاجتماع به ابتغاء انهاء أسباب النزاع الذي احتدم بينهما. وقد يرى البعض أيضا أنه لو كان عمر مكرم استجاب لهذه الدعوات التي ألحف محمد على في توجيهها لما تعرض لمثل هذه النهاية المؤسفة ولاحتفظ بمكانته كزعيم يتمتع بشعبية واسعة عريضة ، ولأراح الشعب المصرى من السياسة الضريبية التي أثقل بها كاهل الجماهير .

ولنناقش هذه النقاط الثلاث بادئين بالنقطة الأولى وهي اصرار عمر مكرم على رفض الاجتماع بمحمد على . كان النزاع الذي دب بينهما يدور حول مبدأ سياسى واقتصادى يتصل بنظام الحكم . وهذا المبدأ هو وجوب حصول الحاكم على موافقة الشعب ـ ممثلا في زعمائه ـ على انشاء أية ضريبة جديدة . وكان هذا المبدأ هو أحد أركان الوثيقة التي بايع الزعماء والشعب محمد على عليها يوم نادوا به واليا على مصر . وقد رأى عمر مكرم أن محمد على بعد أن توطد مركزه في مصر أطاح بهذا المبدأ الأساسى وعسف بالجماهير حتى أصبحت تعيش عيشة ضنكا . فأراد أن يلغى محمد على أولا وقبل كل شيء جميع الضرائب المستحدثة الغاء كليا وفوريا . وكان هذا هو الشرط الذي تمسك بتنفيذه قبل أن يجتمع بمحمد على . حقيقة

أن محمد على أعلن للزعماء فى مقابلاته لهم عن عزمه على الغاء بعض الضرائب وتخفيض البعض الآخر • ولكن أدرك الزعيم بثاقب نظره أن هذا الاعلان مجرد وعود استهدف منها الخداع والتمويه وتخدير الاعصاب حتى يغرى عمر مكرم على مهادنته وتمر الأزمة بسلام ، وليس أدل على ذلك من أن محمد على لم يضع هذا الوعد موضع التنفيذ قط بل مضى سائرا فى طريقه يفرض المزيد من الضرائب يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد : « ولكن السيد عمر رفض أن يذهب ليفاوض فى تفصيل الشكوى ، قبل أن يعلن الباشا الأساس الذى يفاوضهم عليه ، وكان رأيه أن الخلاف قائم على مبدأ لا يقبل جدلا ولا مناقشة فان الباشا لايصح له أن يغير ويبدل فى نظم الحكم، ولا أن يفرض مايشاء من الضرائب ، ولا أن يحكم الناس بغير قانونهم وعاداتهم وما كسبوه من قبل من ضمانات لحرماتهم • وهذا المبدأ لا يحتمل المناقشة ولا المفاوضة ، بل الواجب أن يبدأ الباشا بالتسليم به بلا قيد ولا شرط » • (١)

ويجب أن نضع فى الاعتبار المشاعر التى ازدحم بها صدر عمر مكرم ازاء محمد على • كان الزعيم قد سانده خلال السنوات الأولى من حكمه فى جمع الضرائب والاتاوات من التجار وأرباب الحرف ومن اليهم شعورا منه بأن حكومة محمد على فى حاجة ملحة الى المال لمواجهة المواقف الشائكة التى كانت تحف بها وقتذاك ، واعتقادا منه بأن هذه الأتاوات هى أمر طارىء يزول بزوال أسبابها ولكن محمد على استمرأ هذه السياسة الضريبية وأراد أن يجعل لها صفة الدوام • وأحس عمر مكرم أن مركزه قد غدا ضيقا حرجا أمام الأهلين وقد عبر عن ذلك بقوله انه فى « ورطة » و « ان جميع الناس يتهمونى معه ، ويزعمون انه لا يتجارأ على شىء يفعله الا باتفاقى معه

---

(١) محمد فريد أبو حديد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦ •

ويكفى ما مضى . » والجملة الأخيرة تجلو تماما موقف عمر مكرم
يقول أمين سامى تعليقا على اقالة عمر مكرم من نقابة الأشراف ان
« السيد عمر ارتاح لتخليه عما كان يتحمله من مهام المسئولية التى
كانت تلقى على عاتقه لاعتقاد الرعية أنه لولاه لما يتيسر للوالى الباشا
فرض كل هذه المظالم ، وكان من قبل ذلك قد حلف بأنه لا يقابل
الباشا ولا يرى وجهه الا اذا رفع كل المظالم . » (١) والواقع ان
السيد عمر مكرم كان قد يئس تماما من اصلاح محمد على ، وأيقن
بما لا يدع مجالا للشك أنه رجل ينقض الايمان وينكث العهود ،
وكان أقرب دليل على ذلك أنه ـ حين فرض ضريبة الفائض لأول
مرة فى سنة ١٨٠٨ ـ اقسم أنها مؤقتة وانه اذا فرضها بعد ذلك
« يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله . » ولكنه حنث فى يمينه وقرر
فى سنة ١٨٠٩ استمرار فرضها . وكان هذا الحادث مما أثارحنق
عمر مكرم وجعله يمتنع عن الاجتماع به ويتشدد فى مطالبته اولا
بالغاء الضرائب المستحدثة وتطبيق المبدأ الذى ارتضاه دستورا
لحكمه وهو عدم انشاء اية ضريبة الا بعد الرجوع الى زعماء الشعب
يضاف الى ذلك أن عمر مكرم لم يكن من الساسة الذين يقبلون
أنصاف الحلول ، كما أنه لم يكن فى مقدوره أن يتراجع الا اذا نزل
القولى على رغبته ، وكان من أبرز سجايا الزعيم الانفة والاباء
والشمم . وكان يرى أن كرامته وسابقة مكانته بين الجماهير تأبيان
عليه التراجع أو التقهقر أو التنازل عن شرطه الذى أعلنه على الملأ .

أما النقطة الثانية وهى القول بأنه كان فى استطاعة عمر
مكرم أن يتجنب النهاية المؤسفة التى أسفر عنها نزاعه مع محمد على
فمردود عليها بأن الزعماء هم المسئولون عن هذه المأساة التى تمثلت
فى عزله من منصبه ونفيه وأفول نجمه السياسى .

---

(١) أمين سامى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ص ٢١٨ .

ان الخطأ الذى وقع فيه عمر مكرم هو أنه كان يعتقد أن فى معظم الزعماء بقيه من أخلاق • لقد تكشفت له خلال مراحل الأزمة انهم تخلوا عنه وأنهم نكثوا العهد ، فكانوا هم ومحمد على من هذه الناحية سواء • ولكن لم يدر بخلده أن ينحدر الزعماء الى هذا الدرك الأسفل فيقبلوا الدور غـير الكريم الذى قاموا به حين جعلوا من أنفسهم شهودا على عمر مكرم فى مجلس الشرع ، واستند محمد على الى شهادتهم واصدر قرار العزل والنفى • فهـم يتقاسمون مع محمد على مسئوليه ما وقع لعمر مكرم ، بل لعل مسئوليتهم تفوق من الناحية الاخلاقية مسئولية القولى • لأن الزعماء كانوا هم أول البادئين بالدعـوة الى معارضة محمـد على والشكوى من سـياسته الضريبية حين مست هذه السياسة مصالحهم الشخصية، ودعوا عمر مكرم لينضم اليهـم ، وكان فى شبه عزلة سياسية ، ولـكن أمام الحاح الشعب عليه وتطلعهم اليه وهتافهم باسمه لم يتردد عن تلبية النداء • وأخذ عمر مكرم المواثيق على الزعماء الا يتراجعوا الا بعد أن ينزل القولى على ارادة الشعب، ثم لم يصبحوا بعد ذلك أول البادئين بالتراجع والنكوص على اعقابهم فحسب ، بل عملوا على مهـاجمته ومحاولة تجريده من كل فضل والكيد له ، والواقع أن التشجيع الذى لقيه محمد على من الزعماء ساعده على توجيه ضربته السريعة الأليمة واذا كانت هذه الضربة قد أصابت عمر مكرم أولا فانها لم تلبث أن ارتدت الى صدورهم فهوت زعامتهم ولقى بعضهم نفس المصير من النفى والتشريد كما سنرى بعد حين •

أما احتفاظ عمر مكرم بزعامتـه الشـعبية فى ظل الحـكم الاستبدادى الذى مارسه محمد على فكان أمرا مشكوكا فيه ، لأن اقصاء هذه الزعامة عن الميدان السياسى كان هدفا سياسيا سعى اليه محمد على وضرورة سياسية فى نظره لتنفيذ المخطط السياسى الذى وضعه لنفسه ولاسرته منذ سـنة ١٨٠٧ وقد سبق أن تناولنا هذا المخطط بالشرح •

بقيت النقطة الاخيرة التى تلوك بهـا بعض الألسنة وهى أن صلابة عمر مكرم قد حالت دون اجتماعه بمحمد على ووصوله الى اتفاق معه بشأن السياسة الضريبية يريح الشـعب من فداحة الضرائب التى انقل بها كاهله . وهذه النقطة مردود عليها بأنه لو تم اجتماع بين الزعيم وبين محمد على ووصل الاثنان الى اتفاق لتعديل النظام الضريبى تعديلا جذريا ـ على أحسن الفروض ـ فان مثل هذا الاتفاق ما كان ليعمر طويلا ، لأن محمد على كان مصرا كل الاصرار على أن ينفذ تنفيذا صارما البرنامج الاقتصادى الذى وضعه ، وكان هذا البرنامج حجر الزاوية فى سياسته العامة . فقـد استهدف السيطرة المحكمة على جميع موارد البـلاد ومرافقها الاقتصـادية : فألغى نظام الالتزام ووضع يده على أراضى الأوقاف وجعل من نفسه مالكا للأراضى الزراعية فى مصر وابتكر أنواعا عديدة وثقيـلة من الضرائب العينية والنقدية ، وحدد للفلاحين سياسة زراعية لا يحيدون عنها ، وانتهى به الأمر الى أن أصبح الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد فى مصر .

لم يشمت الجبرتى بعمر مكرم :

تلاقى عمر مكرم والشـيخ عبد الرحمن الجبرتى فى معارضة حكم محمد على ونقد سياسته المالية وبوجه خاص أساليبه التعسفية « والحيل » التى لجأ اليها فى ابتزاز الأموال من الجماهير الكادحة . وكان لكل من الزعيم السياسى والمؤرخ أسلوبه الخاص فى هذه المعارضة تبعا لنـوع العمل الذى اضطلع به كل منهما . كانت معارضـة عمر مكرم علنية سافرة بينما بقيت معارضـة الجبرتى صامتة . اذ أثر عدم الجهر بتذمره وسخطه ومضى يسجل الأحداث ويعلق عليها فى ضوء النظرية التى اعتنقها عن شئون الحكم وأصول السياسة وكان قوام هذه النظرية ان العلم والعدل هما اساس الحكم

الصالح ومعيار السياسة الرشيدة ٠ وان الحكام اما افراد يتسمون بالعلم والعدل واما أشخاص يتصفون بالجور والظلم والجهل ٠ وانتهى فى رأيه الى أن محمد على ليس بالحاكم العالم ولا بالحاكم العادل ٠ فقد اختل فى نظر الجبرتى ميزان العدل فى حكومة محمد على ورأى أنها استمرار لعهد المظالم والقروض الاجبارية والضرائب الجغرافية ، وأن الشعب وزعماءه المتصدرين من أشياخ وأعيان لم يلقوا الا الهوان والازدراء على الرغم من التضحيات التى بذلوها فى سبيل انزال أحمد خورشيد باشا من القلعة وتقليد محمد على الحكم ٠ وأصبح الجبرتى يرى أن من شيمة محمد على الامعان فى الظلم والاستبداد والحسد والتجسس على الناس والتطلع الى مافى أيديهم لا صديق ولا حبيب له « يحب الشوكة ونفوذ أوامره فى كل مراد ، ولا يصطفى ويحب الا من لا يعارضه ، ولو فى جزئية ، أو يفتح له بابا يهب منه ريح الدراهم والدنانير ، أو يدله على مافيه كسب أو ربح من أى طريق أو سبب ، من أى ملة كان ٠ » وكان عمر مكرم يعتنق نفس هذه الآراء ٠

هذا اللقاء الفكرى بين عمر مكرم والجبرتى كان من الأسباب التى جعلت الجبرتى يحمل تقديرا عميقا لعمر مكرم ويتجلى هذا التقدير فى اشادته بمواقف الزعيم الوطنية وسجاياه العالية سواء فى بث روح العزة والكرامة فى نفوس المواطنين مستنفرا اياهم للجهاد ومنظما المقاومة الشعبية ابان فترات الغزو الأجنبى على عهد الحملة الفرنسية والحملة البريطانية سنة ١٨٠٧ ، وسواء فى تدخله لدى الحكام لرفع المظالم عن الشعب أو لثباته على المبدأ وابائه وشممه وشجاعته ٠

ولكن على الرغم من التقدير العميق الذى كان يكنه الجبرتى لعمر مكرم ، فانه لم يتمالك نفسه من ابداء حنقه على هذا الزعيم ، لأنه كان السبب فى تولية محمد على حكم مصر ٠ فيقول ان الضيم

الذى نزل بعمر مكـــرم على يد محمـــد على هو بعض مايستحقه • ونحن نورد هنا النص الحرفى لتعليق الجبرتى على النهاية المؤسفة التى انتهت بها الحيـــاة السياسية لعمر مكرم وأما السيد عمر مكرم فان الذى وقع له بعض مايستحقه ، ومن أعان ظالما سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحدا • » فالخطأ السياسى الذى وقع فيه عمر مكرم وجعل الجبرتى يقول عنه هذه العبـــارة يتمثل فى مساندة الزعيم لمحمد على حتى ارتفع به الى منصب الولاية ثم تأييده له ابان الأزمات التى واجهته خلال السنوات الأولى من حكمه •

والواقع أن عمر مكرم والشعب كانا ضحية تمثيلية بارعة قام بها محمد على القولى وصولا الى الحكم ، فتظاهر بالعطف على الجماهير ابان الفترة الرهيبة التى مرت بها البلاد عقب خروج الفرنسيين حتى انقلاب مايو ١٨٠٥ حين مزقتها الفوضى السياسية وتعرض الشـــعب لاعتداءات منكرة على أيدى الجنـــود العثمانيين وعـــانى الأزمات الاقتصادية الخانقة • وكان محمد على هو الوحيد ـ من بين طوائف العثمانيين ـ الذى أظهر شعورا طيبا نحو الجماهير وتودد الى زعيم الشعب عمر مكرم وأكثر من التردد عليه فى منزله وأقسم له أنه لو شاءت الأقدار أن يحكم مصر فانه يلتزم العدل ويرجع الى الزعماء يستشيرهم فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحكم • وتوهم عمر مكرم فيه الصدق والاخـــلاص • وانه نموذج بشرى فريد من رجال الحكم العثمانى • وكان عمر مكرم يحويه شعور غامر بالعطف الحقيقى غير المصطنع على الشعب والرغبة الفياضة فى انقاذه من هذا الهوان الذى يلقاه من طوائف العثمانيين • فرأى أن الوسيلة المثلى لانتشال البلاد من وهدة الفوضى ولتخليص الشعب من آلامه انما تكون بالمناداة بمحمد على واليا على مصر من العنت والارهاق والمظالم • وما كان فى مقدور عمر مكرم أن يستشف شيئا من خبايا ذلك الرجل القولى الذى أوتى نصيبا موفورا من الخبث والخداع والالتواء • فقـــام عمر مكرم بدور

قيادى فى انقلاب مايو ١٨٠٥ وتزعم ثورة شعبية هادرة ولم يستهدف تحقيق مغانم شخصية له • واذا كان محمد على قد أبدع فى تمثيليته ونجح فى التظاهر بأنه الحاكم المثالى فان عمر مكرم قبل كل شيء من البشر ولا يعلم السرائر الا الله وانما الاعمال بالنيات •

ومع ذلك فان تلك العبارة القاسية التى علق بها الجبرتى على مأساة عمر مكرم لم تقلل اطلاقا من تقدير الجبرتى للزعيم • فقد جاء فى نفس السياق وقبل ذكر تلك العبارة مباشرة تقدير لعمر مكرم وابراز أفضاله على زملائه الزعماء وعلى الشعب « ان السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم (على الاشياخ والمتصدرين) وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم • ولم تقم لهم (للزعماء) بعد خروجه من مصر (القاهرة) راية ، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض • »

وعلى الرغم من أن الجبرتى حاول أن يتوخى العدالة والحيدة وهو يؤرخ لمحمد على الا أن كتابته عنه فى مجموعها كانت تفيض منها روح الموجدة الشديدة على أساليب محمد على الجائرة فى حكم الشعب • وكانت كتابته فى هذا الصدد عن اقتناع عميق بما يشعر به ويختلج فى نفسه من أحاسيس وقد تركت كراهية الجبرتى لحكم محمد على انطباعات عميقة الغور فى تفكيره جعلته يتمنى زوال حكم محمد على ، وجعلت تعليقاته لاذعة عنيفة تزخر بالسخرية والتهكم •

وكانت حفيظة الجبرتى على القولى هى التى جعلته يغلو فى حملته على الزعماء مشايخ الازهر ويرميهم بكل نقيصة لأنهم بتخاذلهم وانقساماتهم وتكالبهم على الدنيا قد ساعدوا الوالى على الايقاع بالزعيم عمر مكرم • وكان نفى الزعيم هو الخطوة الأولى

فى القضاء على الزعامة الشعبية وانفراد محمد على بالحكم دون رقيب أو حسيب ٠

نخلص من هذا التحليل السريع الى أن العبارة التى وردت فى كتابة الجبرتى تعليقا على مأساة عمر مكرم لم تكن نوعا من الشماتة بالزعيم ، بل ان تلك العبـــارة أملاها شـعور الجبرتى بالكراهية الشديدة لحكم محمد على من ناحية وبالأسى والمرارة من موقف الزعماء تجاه كبيرهم عمر مكرم من ناحية ثانية ٠



البَابُ السَّابِع

محنة أخلاق

الفصل الثامن عشر

الزعماء يتقاضون ثمن تآمرهم على كبيرهم عمر مكرم

بعد أن تمت المؤامرة وعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف وخرج منفيا من القاهرة الى دمياط اعتقد الزعماء أن « الوقت قد صفا لهم » (١) ، وسرعان ماظهرت أخلاق معظمهم على حقيقتها ، فاذا هى تنضح بالوصولية والنفعية وتتشح بالكذب والرياء • وكان الشيخ محمد المهدى أسبقهم فى هذا المضمار • ففى صبيحة اليوم الذى ارتحل فيه عمر مكرم الى منفاه فى دمياط ذهب هذا الشيخ فى غير استحياء الى محمد على ، والتمس منه المكافأة على تدبير المؤامرة ، وطلب أن يقلده وظائف عمر مكرم ، فأنعم عليه محمد على بالتنظر على أوقاف الامام الشافعي ووقف سنان باشا فى بولاق • وكان هذان الوقفان تحت يد عمر مكرم (٢) ، ولم يقنع الشيخ المهدى بذلك بل طلب مكافأة مالية معجلة لم يصعب عليه أن يجد لها تبريرا ، فقال انها المتأخر له من الغلال مدة أربع سنوات غاب فيها عن القاهرة ، كان يجوس فيها خلال الديار التى تحت التزامه مثل طنطا والمحلة الكبرى والاسكندرية •

ولا يتبادر الى الذهن أن الشيخ محمد المهدى كان غافلا عن هذه المتأخرات ، فلم يتذكرها ولم يطالب بها الا بعد رحيل عمر مكرم الى المنفى • بل ان ملابسات الموقف تدل على أن هذه المتأخرات

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٩٥ •

(٢) على مبارك الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦٨ ، ج ١٧ ص ١١ •

كانت مستحقة له فعلا ، وكان محمد على يسوف فى سدادها ، وكان معروفا عن هذا القولى أنه يماطل فى دفع الأموال لأصحابها أو مستحقيها ، فأراد الشيخ المهدى انتهاز الفرصة للمطالبة بها بعد أن تم الايقاع بعمر مكرم • وقد عرف الشيخ المهدى كيف يختار الوقت والمناسبة • وفعلا استجاب محمد على لرغبة الشيخ الانتهازى ، وأمر بأن تدفع له قيمة المتأخرات نقدا من خزانته • وقام المهدى بتقديرها بنفسه فبلغت خمسة وعشرين كيسا • فهذا الفيض من الانعامات والكرم الذى غمر محمد على به الشيخ المهدى انما كان — على حد تعبير الجبرتى — « فى نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر » (١) •

أما الشيخ محمد السادات فتولى نقابة الأشراف بعد عزل عمر مكرم منذ ٩ من أغسطس ١٨٠٩ « وبلغ مأموله » (٢) لأنه كان يتوق الى هذا المنصب الرفيع منذ أمد بعيد ، وعمل جاهدا على انتزاع النقابة من منافسه العملاق عمر مكرم • وكان يصرح بأن منصب النقيب من الوظائف القديمة المحصورة فى أسرة السادات• ويقرر الجبرتى صراحة أن الضربة الأليمة التى وجهها محمد على الى عمر مكرم كانت بتدبير الشيخ السادات ، وأن عزل الزعيم ونفيه قد صادفا هوى عميقا فى نفس الشيخ السادات « لحقده الباطن على السيد عمر مكرم وتشوقه الى النقابة » •

أما الشيخ محمد الدواخلى ، وكان أحد المتآمرين على عمر مكرم، فقد تقرب الى محمد على ، وسمح له القولى بهذا التقرب الى حين ، ومارس فى ظلال هذه الحظوة نفوذا ارتاحت اليه نفسه • ولما مات الشيخ السادات عينه محمد على نقيبا للأشراف • وعندئذ « ركب الخيول ، ولبس التاج الكبير ، ومشت أمامه الجاويشية والمقدمون

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٩٩ •
(٢) ص ٢٣٤ من المصدر السابق •

وأرباب الخدم ، وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى ، وعمر دار سكنهم القـديمة بكفر الطماعين ، وأدخل فيها دورا ، وأنشأ تجاهها مسجدا لطيفا ، وجعل فيه منبرا وخطبة ، وعمر دارا ببركة جناق ، وأسكنها احدى زوجاته ، وداخله الغرور ، وظن أن الوقت قد صفا له » ٠

هذه صور سريعة لمسلك ثلاثة من كبار الزعماء الذين اشتركوا مع محمد على فى التآمر بعمر مكرم وكيف عملوا على الافادة ماديا من هذه المأساة التى حلت بالزعيم ٠ ونذكر هنا تعليقين لاذعين ، أحدهما للأستاذ محمد شفيق غربال اذ أطلق على المكافآت التى قدمها محمد على الى المشايخ بأنها « شيء من فضلات الأرزاق » (١) ، أما التعليق الآخر فهو للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، اذ يقول « واشترك هؤلاء الزعماء فى اقتسام الغنائم بعد الايقاع بزميلهم النبيل ٠ ولعلنا لا نكون سابحين فى الخيال اذا تصورنا الباشا البعيد الغور ، وهو يبتسم لهم اذ يعطيهم ما يشاءون ، وينفذ لهم ما يريدون ، وهو فى قرارة نفسه يسخر من بخس أثمانهم وهوان أقدارهم ، اذا قاسهم بالرجل الذى نفاه وقلبه مفعم بتقديره واجلاله » (٢)

ننتقل الى صورة أخرى مفزعة رهيبة لمسلك جماعى انتهجه الزعماء ضد عمر مكرم وكأنهم لم يقنعوا بعزله ونفيه ، فآثروا أن يمضوا الى نهاية الشوط تزلفا لمحمد على وطمعا فى مزيد من المغانم يأخذونها من ناحية ، وكيدا لعمر مكرم فى محنته من ناحية ثانية ٠ فارتضوا لانفسهم أن يكونوا أداة طيعة لينة فى يد محمد على يستغلهم اسوأ استغلال فى الصاق الاراجيف والاكاذيب بكبيرهم « السابق » عمر مكرم ٠

---

(١) محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص ٥٧ ٠

(٢) محمد فريد أبو حديد ، مرجع سبق ذكره ص ١٩٧ ٠

المأساة لم تتم فصولا :

كان محمد على يشعر فى قرارة نفسه أن الاجـــراءات التى اتخذها ضد عمر مكرم انما هى اجراءات تعسفية ، وخشى أن تراجعه فيها دوائر الباب العالى فى الاستانة أو قد تطلب منه ايضـــاحا عن حقيقة المسألة ، فأراد أن يحتاط لمثل هذه الاحتمالات • ويلاحظ أن قرار تعيين عمر مكرم نقيبا للاشراف كان قد صدر فى المرة الثالثة من الاستانة بعد أن عزلت الحكومة العثمانية الافاق التركى يوسف افندى من نقابة الاشراف وأعادت عمر مكرم نقيبا فى ابريل ١٨٠٢ •

اتخذ محمد على من المشايخ المنفيين أدوات مسخرة له استخدمهم فى الكذب والتضليل • ويطلق الجبرتى على هؤلاء المشايخ تهكمـــا عليهم وسخرية بهم عبارة « مشايخ الوقت » أمر محمد على الزعمـاء النفعيين بكتابةعريضة ترسل الى البابالعالى يبرر فيها أسباب عزل عمر مكرم من منصبه ونفيه الى دمياط • وصدع المشايخ بأوامر محمد على وجاءت المذكرة حافلة بمجموعة من الأكاذيب الصارخة والاتهامات الباطلة وانحدر الزعماء فيها الى حد الاسفاف فى الخصومة الجارحة ، وقلبوا المواقف المشرفة التى امتازت بها حياة عمر مكرم السياسية الى صور من الخزىوالعار ويكفى أنهم اتهموه بالخيانة وأنه سهلللانجليز احتلال مدينة الاسكندرية ابان حملة فريزر فى سنة ١٨٠٧ مع أنه هو الذى تصدى لتنظيم المقاومة الشعبية كما مر بنا •

وقرر المشايخ فى عريضتهم أن عمر مكرم أدرج فى سجلات الاشراف أفرادا ممن أسلموا من الاقباط واليهود•ومن المعلوم أن الاشراف هم الذين ينتسبون الى البيت النبوى الـــكريم ، ثم قالوا انه استبعد فريقا من الاشراف وأوقف صرف استحقاقاتهم فى الأوقاف ووجهها الى الاقباط واليهود الذين أســلموا • ومضى المشايخ فى اتهاماتهم فقالوا ان عمر مكرم أضاف ايضا الى سجلات الاشراف عددا من أشرار الناس وانه أغرى الامراء المماليك على استدراج على باشـــا الجزائرلى الوالى العثمانى من الاسكندرية الى القاهرة ثم قتله فى صـــــحراء

الشرقية . ونسبوا الى عمر مكرم أنه استولى على رشا من محمد الألفي بك الكبير قبل موته لتمكينه من حـكم القـاهرة على عهد ولاية أحمد خورشيد باشا ، وأنه تواطأ مع المماليك وسماهم الزعماء « البغاة المصريين » ليدخلوا القاهرة على حين غفلة من أهلها يوم الاحتفـال بوفاء النيل . وكانوا يشيرون الى حادث ١٦ من اغسطس ١٨٠٥ . كما اتهم المشايخ عمر مكرم بأنه سعى لتدبير انقلاب ليعصف بحـكم محمد على وليولى أحدا غيره (١) . وهذا الاتهام يثير الباب العالى على عمر مكرم لانه يظهره فى صورة السياسى المحترف الذى أصبح خبيرا فى اسقاط الولاة وتعيين غيرهم دون استئذان السلطان بصفته صاحب السيادة الشرعية على مصر . وانتقل الزعماء في عريضتهم الى اتهـام آخر فزعموا أن عمر مكرم قام باتصالات سياسية عرضت أمن الدولة للخطر اذ تخابر مع الاعداء فى وقت الحرب حـين قدمت الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ واحتل البريطـانيون مدينـة الاسكندرية « ولكن نصر الله عليهم العساكر الاسلامية وغير ذلك من عبارات عكس القضية وتحقيق الاغراض النفسـانية . » وخلص الزعماء من هذه الاتهامات الى القول بأن عمر مكرم هو السـبب فى خراب مصر واثارة الفتنة ، وأنه يعمل على تكوين عصبيات من أهل الصعيد ومن المغاربة والعـامة ليكونوا عدته وعشيرته فى تنفيذ مخططاته السياسية ، وأرسل محمد على هذه « الفتوى الشرعية » الى الباب العالى فى الاستانة واستند اليهـا فى اقالة عمر مكرم من نقـابة الاشراف « حسما لما هو حاصل من المداخلة فى شـئون الولاية » (٢) .

وهكذا نرى أن الزعماء الحاقدين على عمر مكرم قد لجوا فى عتو ونفور وانحراف عن جادة الحق والصواب . وكان أسلافهم زعماء مصر فى القرن الثامن عشر قدوة طيبة فى الورع والتقوى والترفع عن

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠٠ .
(٢) أمين سامى ج ٢ ص ٢١٨ .

الصغائر والزهد فى الدنيا ، كما كانوا أصحاب جرأة فى الحق يعظون الحكام ويغلظون لهم فى القول ويتوعدونهم بعذاب جهنم اذا سدروا فى غوايتهم • فلا عجب اذا هوت فى نظر الشعب منزلة « مشايخ الوقت »

واذا كانت تلك المذكرة وما حوته من أراجيف وأكاذيب قد كتبت بارشاد محمد على وتوجيهاته ، فان الجبرتى يذكر صراحة أن الشيخ محمد السادات هو الذى وضع صياغتها ، فهو يقول فى ترجمته للشيخ السادات « فلما أخرج الباشا السيد عمر وتقلد المترجم النقابة وبلغ مأموله ، عند ذلك أظهر الكامن فى نفسه وصرح بالمكروه فى حق السيد عمر ومن ينتمى اليه أو يواليه ، وسطر فيه عرضا محضرا الى الدولة نسب اليه فيه أنواعا من الموبقات (١) •

وبعد أن وضعت تلك المذكرة كتبت عليها أسماء جميع المشايخ، ثم حملت اليهم ليضعوا عليها أختامهم • وقد رفض بعض المشايخ من ذوى الضمائر الاسهام فى هذا العمل ، وقالوا ان هذه الاتهامات لا سند لها من الحقيقة ، وحدث هرج ومرج بين المتحمسين لارسال المذكرة ، وهم ابواق محمد على وصنائعه ، وبين المتمنعين عن التوقيع عليها • وقال الاولون انهم لا يقلون ورعا وتقوى وتدينا عن المتمنعين !! ثم تطاولوا عليهم بالسب والضرب • وانتهى بهم الامر الى صياغة لفظية اخرى أخف فى تحاملها وأكاذيبها على عمر مكرم ،ووقع عليها بعض المتمنعين ،

وبرز شيخ واحد ضرب أروع الأمثال فى التمسك بالأخلاق والثبات على المبدأ هو السيد أحمد الطحطاوى مفتى الحنفية ، لم تخذله شجاعته ، فرفض التوقيع على العريضة واستنكر ماسطر فيها• وكان موقفه الرائع مدعاة لتحامل سائر المشايخ عليه وبخاصة الشيخ

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٩٣ ـ ٩٤ •

محمد السادات والشيخ محمد الأمير وتهدده الزعماء بعزله من منصبه. ولكنه لم يخش غضبهم ولم يرهبه جبروت محمد على . ولم يمض أسبوعان حتى اجتمعت كلمة محمد على والزعماء النفعيين على عزل السيد أحمد الطحطاوى من افتاء الحنفية وعينوا مكانه الشيخ حسين المنصورى . ولما أبلغ بقرار عزله طوى الخلع التى كانت قد قدمت له عند ما تقلد منصب الافتاء وردها الى أصحابها . وكان الشيخ السادات قد ألبسه الفروة ، فردها أيضا اليه ، فاحتد عليه وأخذ يسبه علنا ويصف عمله بأنه جرم ويقول لجلسائه : « أنظروا الى هذا الخبيث كأنه يجعلنى مثل الكلب الذى يعود فى قيئه » وما كان السيد أحمد الطحطاوى بالخبيث ولا بالمنافق فقد احتفظ لطائفة العلماء بقبس من جلالها وروعتها وسط دياجير الظلام . وقد اعتكف الشيخ الطحطاوى فى داره لا يبرحها الا الى الشيخونية بجوار منزله ، واعتزل المشايخ وآثر التباعد عنهم ، وكانوا لا ينفكون عن المبالغة فى ذمه والحط من قدره لأنه « لم يوافقهم فى شهادة الزور » ثم أكد الجبرتى هذه الحقيقة مرة ثانية وهو يترجم للسيد محمد السادات فيقول ان الزعماء أوسعوا الشيخ الطحطاوى سخطا ومقتا وعزلوه من الافتاء لأنه « تنحى عن الشرور ، وامتنع من شهادة الزور . » (١)

---

(١) أعيد الشيخ أحمد الطحطاوى الى مشيخة الحنفية فى غرة صفر ١٢٣٠ (١٣ من يناير ١٨١٥) عقب وفاة الشيخ حسين المنصورى . وكأن محمد على قد أراد أن يكفر عن فعلته معه فقلده الخلعة ، كما قدم الشيخ الشنوانى شيخ الجامع الازهر له خلعه ، « ولم يختلف فيه اثنان » .

الفصل التاسع عشر

انتهاء الزعامة الشعبية بنفي عمر مكرم

نفاق الزعماء ابان مذبحة المماليك :

مضى محمد على ينفذ مخططه السياسى . فبعد أن تخلص من عمر مكرم تهاوى مركز سائر الزعماء . وشرع يخطو الخطوة التالية وهى انزال ضربة ساحقة بالامراء المماليك حتى تصفو له الجبهة الداخلية فى مصر وينفرد بحكم البلاد آمنا مطمئنا . وكان المماليك يشكلون عنصرا هاما له خطره وقدره فى الحياة السياسية فى مصر . كانت الخصومة على ضراوتها بين المماليك وبين محمد على . فالمماليك يعتبرون أنفسهم أصحاب البلاد ويعتقدون أن محمد على رجل دخيل قد اغتصب الحكم من أيديهم . أما محمد على فكان ينظر اليهم على أنهم مصدر خطر يتهدد سلطته . وقامت الحرب سجالا بينه وبينهم . ولكن كان الزمن حليفا قويا لمحمد على . فقد طوى الموت عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى وشاهين بك المرادى وهم من زعماء المماليك الذين كانوا يطمعون فى الحكم . وغدا ابراهيم بك رجلا طاعنا فى السن بعد أن حكم مصر سنوات طوالا قبل مجىء الحملة الفرنسية الى مصر ، وهدت السنون من جبروته ، وأضعفت من قوة أتباعه . وتطرق اليأس الى نفوس الامراء الآخرين اذ كانوا أقل عددا وأضعف جندا . يضاف الى ذلك أن الحروب التى خاضها المماليك سواء ضد الفرنسيين أو العثمانيين أو قوات محمد على قد انهكت قواهم . وقد أثبتت لهم التجارب المريرة التى عاشوها خلال السنوات الاولى من ولاية محمد على أنه رجل غادر لايقيم عهدا ولايحترم

ميثاقا ، فكانت هناك أزمة عدم ثقة بين المماليك وبين محمد على . ولكنه استطاع أن يبدد أزمة عدم الثقة وان يخدع مئات منهم استمالهم من أقاليم الوجه القبلى الى الاقامة فى القاهرة فى مقابل أرزاق وفيرة أجراها عليهم . واطمأنت نفوس المماليك الى حياة الدعة والرفاهية فى العاصمة والبعد عن حياة الكفاح فعاشوا منعمين فى القاهرة تحت مراقبته المستمرة الدقيقة . وكانت هذه خطة ماكرة من محمد على لتجميعهم فى العاصمة حتى يسهل عليه ابادتهم ابادة جماعية أو كما يقول الجبرتى «كان قصده الباطنى صيدهم» وكان ابراهيم بك الكبير قد أوجس خيفة من هذه السياسة الناعمة التى اتبعها محمد على حيال المماليك واشتم رائحة الغدر اذ قال ان محمد على اتبع هذه الخطة «لغرض سوء يكنه فى نفسه وشبكة يصطاد بها غيره ، فاننا سبرنا أحواله وخيانته» وكان هذا التعليق حكما صائبا من ابراهيم بك لانه كان قد اكتسب خبرات واسعة فى أساليب الحكم والادارة والسياسة وانضم اليه عثمان بك حسن وبقيا فى الصعيد مع نفر من أتباعهما ولكنهم لم يكونوا مصدر خطر كبير .

وبعد أن نجح محمد على فى تجميع الغالبية العظمى من المماليك فى القاهرة لم يبق أمامه الا تحقيق هدفه ، فدبر مؤامرة محكمة لاغتيالهم اغتيالا جماعيا فى ضحوة يوم الجمعة ٢ من مارس ١٨١١ (١) واستمرت عمليات القتل والذبح طوال النهار وزلفا من الليل . وتطورت المذبحة من جريمة سياسية استهدفت التخلص من خصوم سياسيين الى عملية انتقامية وحشية بعد أن أصبح هؤلاء الخصوم جثثا هامدة . فصدرت الاوامر بسلخ رءوس عظماء المماليك ، وأعقبت هذه المذبحة نزول الجنود الالبانيين الى المدينة حيث اقتحموا بيوت المماليك يقتلون من فيها من الاتباع وينهبون أثاثها ونفائسها ويغتصبون نساءها ، واستمرأوا عمليات القتل

(١) يذكر الجبرتى انه كان يوم الجمعة ٦ من صفر ١٢٢٦ وهو يوافق ـ طبقا لكتاب التوفيقات الالهامية ـ ٢ من مارس ١٨١١ .

والنهب . وامتدت آثامهم الى بيوت أعيان الشعب المصرى فكانوا يدخلونها بحجة التفتيش « ويقولون عندكم مملوك أو سمعنا أن عندكم وديعة لمملوك ، وبات الناس وأصبحوا على ذلك ... ونهبت دور كثيرة من دور الاعيان الذين ليسوا من الأمراء المقصودين » .
واستمرت عمليات القتل والسلب فى القاهرة الى اليوم التالى (السبت) واشتد الكرب بالاهالى ، ونزل محمد على فى صبيحة هذا اليوم من القلعة الى المدينة لايقاف النهب ومنع اعتداءات الجنود على الشعب . وكان محمد على فى حراسة عسكرية كبيرة أحاطت به من كل جانب للمحافظة عليه . وكان يبدو على ملامح مرافقيه الابتهاج الشديد بالنكبة التى نزلت بالمماليك . وقد لحق بمحمد على ابنه طوسون . ويقول الجبرتى انه « لولا نزول الباشا وابنه فى صبح ذلك اليوم لنهب العسكر بقية المدينة وحصل منهم غاية الضرر . وأما القبض على الاجناد والمماليك فمستمر ، وكذلك كل من كان يشبههم فى الملبس والزى . » ويقدر الجبرتى عدد القتلى من المماليك ـ من أمراء وكشاف واتباع ـ بأكثر من ألف شخص فى القاهرة والاقاليم .

فى هذا اليوم ـ السبت ٣ من مارس ١٨١١ ـ أظهر المشايخ علماء الأزهر نفاقا ليس بعده نفاق ، وهانت عليهم كرامة العلم وتناسوا المواقف المشرفة التى وقفوها بزعامة عمر مكرم فى وجه محمد على للحد من مظالمه . ففى ضحوة اليوم التالى للمذبحة عقدوا اجتماعا قرروا فيه الذهاب الى محمد على « لملاقاته والسلام عليه والتهنئة بالظفر » . والحق أن الانتصار الذى ظفر به محمد على بذبح المماليك كان انتصارا رخيصا يقوم على الغدر والخسة والجبن والمجافاة لقواعد الاخلاق والانسانية ومثل هذا الانتصار لايستحق أن يتحرك له المشايخ علماء الازهر ، وكان مسلكهم بمثابة تأييد سافر لموقف محمد على من مذبحة القلعة . ولاشك أنه كان خيرا للعلماء ولسمعتهم أن يلتزموا جانب الحيدة ازاء هذا الحادث .
وسرعان ماحملت الى محمد على أنباء هذا الاجتماع الطارىء

الذى عقده العلماء ، وكان يقوم وقتئذ بجولته فى القاهرة لوقف اعتداءات الجنود الألبانيين على الشعب . فاغتبط لموقف العلماء ورأى أن يبادرهم بالزيارة فذهب اليهم فى منزل الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر وأمضى معهم ساعة من الوقت وصفها الجبرتى بأنها « ساعة لطيفة » .

محمد على يعبث بكرامة الشرقاوى

ولكن كان محمد على لايشعر فى قرارة نفسه بأى تقدير للعلماء ولم يعد يستمع لشفاعتهم أو يقبل رجاءهم ، وهذه حقيقة يقررها أحد الفرنسيين المقربين الى محمد على ممن عاشوا فى مصر ابان هذه الاحداث وهو مانجا Mengin فيقول ان الباشا أصبح لا يعير وساطة المشايخ أى اهتمام لان معظمهم قد باعوا أنفسهم له وكانوا يستجيبون لرغبة محمد على استجابة عمياء (١) .

وليس أدل على زوال مكانة العلماء من نفس محمد على من هذا الحادث الذى وقع أثناء هذه الزيارة التى قام بها للشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى منزله . كان قد التجأ اثنان من الكشاف المماليك الى منزل الشيخ الشرقاوى فتشفع الشيخ لدى محمد على كى يمنحهما الأمان ولا يقتلهما وقال له الشيخ الشرقاوى كلاما مؤثرا « لاتفضح شيبتى ياولدى ، واقبل شفاعتى ، واعطهما محرمة الامان » (٢) فتظاهر محمد على بقبول شفاعته ، ووعد بأن يرسل لهما عند عودته الى القلعة كتابا يؤمنهما على حياتهما ، وانصرف من دار الشيخ الشرقاوى مستأنفا جولته ، ولما صعد الى القلعة أرسل خطابا يطلبهما اليه . واشتم

---

(١) أنظر تقريرا ضافيا مؤرخا فى ٢٠ من يناير ١٨١٢ كتبه مانجا عند وصوله الى كورفو وبعث به الى وزير الخارجية الفرنسية .

Driault Edouard. Mohamed Aly, et Napoléon. (1807-1814)
La Caire. 1925, pp. 157-162

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٢٩

الرجلان رائحة الغدر من هذا الخطاب ، وأفصحا للشيخ الشرقاوى عن مخاوفهما . واستبعد الشيخ الشرقاوى أن يضمر محمد على لهما شرا بعد أن تشفع فيهما وقال لهما «لايصح ذلك ولايكون ، كيف أنه يأخذكم من بيتى ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتى ؟» فذهبا مع الرسول الى القلعة حيث قبض عليهما وتم قتلهما (١) .

وهكذا نكث محمد على بوعده واستهان بشيخ الازهر بعد أن كان يخفض للعلماء جناح الذل من الخوف . فكان هذا الحادث درسا قاسيا للشيخ الشرقاوى وسائر الزعماء أدركوا مغبة مسلكهم المعيب ازاء زعيمهم عمر مكرم وكيف نجح القولى فى أن يتلاعب بهم ، ففصلهم أولا عن عمر مكرم ثم أشركهم فى الايقاع به ولما بلغ مأربه استهان بهم . ولكن جاء هذا الدرس متأخرا وبعد فوات الأوان .

ولم يمتد الاجل بالشيخ الشرقاوى الا عاما وبعض عام بعد هذا الحادث اذ طواه الموت فى ٩ من اكتوبر ١٨١٢ ،

سخرية الاقدار من الزعماء المتآمرين :

لما شغر منصب شيخ الجامع الازهر بوفاة الشيخ عبد الله الشرقاوى تطلع اليه الشيخ محمد المهدى آملا فى مساعدة محمد على له فى تحقيق مطمحه . ولكن كان الاخير لايشعر فى قرارة نفسه بتقدير لهذا المهدى ، فلما تحدث المشايخ الى محمد على فى شغل المنصب ترك لهم حرية اختيار الشيخ الجديد ولكنه اشترط عليهم ضرورة توفر شرط واحد فى المرشح لمشيخة الازهر . يقول الجبرتى « ولما مات الشيخ المترجم (الشرقاوى) ومضى على موته ثلاثة أيام اجتمع المشايخ فى يوم الاحد وطلعوا الى القلعة ودخلوا الى الباشا وذكروا له موت المترجم ، ويستأذنونه فيمن يجعلونه شيخا على الازهر . فقال لهم الباشا اعملوا رأيكم ، واختاروا شخصا يكون خاليا عن الاغراض . وأنا أقلده ذلك . فقاموا من مجلسه ونزلوا الى بيوتهم » .

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

كان هناك مرشحان سلطت عليهم الاضواء من بين أربعة علماء وكان المرشح الاول شيخا اشتهر بالورع والزهد والتواضع الجم هو الشيخ محمد الشنوانى . وبلغ من زهده أنه كان يغير ملابسه عقب الفراغ من القاء دروسه فى مسجد الفاكهانى بجهة العقادين ، ثم يقوم بكنس المسجد وغسل القناديل ووضع الزيت والفتائل فيها استعدادا لاضاءة المسجد ليلا . وكان يقوم بنفسه بتنظيف دورات المياه الملحقة بالمسجد . ولما ترامت اليه أنباء ترشيحه لمشيخة الازهر اختفى فى مصر القديمة ثلاثة أيام وترك عند أهل منزله ورقة يعتذر فيها عن قبول المنصب . أما المرشح الآخر فكان الشيخ محمد المهدى استطاع أن يجتذب بوسائله الخاصة نفرا من العلماء تحمسوا لتقلده مشيخة الازهر وانطلقوا ينشرون له دعاية عريضة .

طلب محمد على من كبير القضاة أن يدعو العلماء الى الاجتماع لاختيار المرشح وفق الشرط الذى وضعه ، وانقسم الحاضرون فريقين . كل فريق يناصر مرشحه وكان أنصار الشيخ المهدى أكثر عددا وأحدثوا هرجا ومرجا فى الاجتماع الذى انتهى باختيار المهدى شيخا للازهر ، وكتبوا اعلاما شرعيا بتعيينه ورفعوه الى محمد على للتصديق عليه وصافح الحاضرون المهدى مهنئين وقرءوا الفاتحة « وانفض الجمع وركب الشيخ المهدى الى بيته فى كبكبة وحوله وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين ، وشربوا الشربات ، وأقبلت عليه الناس للتهنئة » . وانتظر أن يرسل له محمد على خطابا بالتصديق على تعيينه شيخا للازهر . ومضى يومان والموقف يزداد غموضا بالنسبة للمهدى . وفى صبيحة اليوم الثالث أصدر محمد على قرارا بتعيين الشيخ محمد الشنوانى شيخا للازهر فكان هذا القرار مفاجأة أليمة للشيخ المهدى وأنصاره « وحصل لهم كسوف وبطلت مشيخته » ولو أن الجبرتى عاد وهو يترجم للشيخ المهدى فقال انه « لم يظهر الا الانشراح وعدم التأثر من الانكساف » .

وأول معنى يتبادر الى الذهن لعزوف محمد على عن التصديق على تعيين الشيخ المهدى شيخا للأزهر هو أنه لم يكن مستوفيا

للشرط الذى اشترطه محمد على فيمن يشغل هذا المنصب وهو أن يكون المرشح « خاليا عن الأغراض » وكان محمد على يعرفه حق المعرفة فاذا هو رجل استبد به حب المال حتى طغى على تفكيره ومنهاجه فى الحياة • وحسبه أنه كان أسبق الزعماء مبادرة الى مطالبة محمد على بثمن خيانته لعمر مكرم ، وكان محمد على يرى ان الميدان الطبيعى للشيخ المهدى هو التجارة واقتناء الثروات فرأى أن يتركه يمارس هوايته فى دنيا المال والتجارة يصيب من ورائها ثراء وأرباحا وفيرة • والمعنى الثانى من رفض محمد على تعيينه فى مشيخة الازهر هو ان مكانة الشيخ المهدى كانت قد تهاوت فى عين محمد على فتخلى عن حليف الأمس بعد أن أدى المهدى دوره فى الوقيعة بعمر مكرم خير ما يكون الأداء ، فلم تعد له حاجة فيه ، كما أن شيخ الأزهر الجديد ـ الشيخ محمد الشنوانى ـ لم يكن بالشخصية ذات الأطماع السياسية التى يخشى بأسها أو التى تعارض أساليب محمد على فى الحكم • والحاكم المستبد يستريح عادة الى هذا الطراز من الرجال • أما العلماء فقد أنكروا على الشيخ المهدى أحقيته فى هذا المنصب الدينى الرفيع ، ورأوا أن الشيخ الشنوانى أحق بالمشيخة منه ، فالمهدى لم يؤلف كتابا ولم يضع رسالة فى أى فن من الفنون ، وكان كثير التغيب عن القاء دروسه ، فلم يكن يحضر الا يوما واحدا أو يومين فى الاسبوع لانشغاله بجمع المال واستكثاره ، ولذلك أحضروا الشيخ الشنوانى من المكان الذى كان مختفيا فيه بمصر القديمة • وصعد الى القلعة وقابلوا به محمد على ، وتلاقت رغبة المشايخ مع رغبة الوالى فقلده مشيخة الازهر وخلع عليه فروة سمور • ولما كان الشيخ الجديد رجلا فقيرا لايملك من حطام الدنيا شيئا ذا بال ، وكانت داره صغيرة وضيقة لاتتسع لاستقبال المهنئين ، فقد أفرد له السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة دارا رحبة فسيحة « وقام له بجميع الاحتياجات ، وأرسل من الليل الطباخين والفراشين والأغنام والأرز والحطب والسمن والعسل والسكر والقهوة ، وأوقف عبيده وخدمه لخدمة القادمين

للسلام والتهنئة ، ومناولة القهوة والشربات والبخور وماء الورد ، وازدحمت الناس عليه ، واتوا أفواجا اليه ... وحصل ازدحام عظيم وخصوصا للتفرج على الشيخ الجديد ، وكأنه لم يكن طول دهره بينهم ، ولا يلتفتون اليه » .

ومضى الشيخ المهدى بقية حياته يكنز الذهب والفضة ويقتنى العقار ، ويسعى فى قضاء حاجات الناس فى مقابل أجر يتقاضاه منهم. وفى أواخر أيامه اشترى دارا فى الكعكيين وعمل على توسيعها وتجديدها وكانت تجاورها زاوية قديمة بها مدافن فهدمها وضمها الى الدار بعد أن أخرج عظام الموتى من قبورهم ونقلها الى قرافة المجاورين ، وقرر الجبرتى أنه سمع هذه الحادثة بنفسه من الشيخ المهدى وقد أبدع فى تنظيم الدار وجعلها مسكنا لزوجتين له .

واذا كان الشيخ محمد المهدى قد نجح نجحا بعيدا فى انماء ثروته فقد جانبه التوفيق فى كثير من المواقف ، وفقد تقدير الشعب والزعماء والحكام ، ولم يبلغ عشر معشار المكانة التى سما اليها الزعيم عمر مكرم ابان مجده السياسى. ويختتم المؤرخ الجبرتى ترجمة حياة الشيخ المهدى بعبارة تصور حياته وافتتانه بالمال وتعلقه بالدنيا أدق تصوير . فقال « فسبحان الحى الذى لا يموت ورحم الله عبدا زهد فى الحياة الفانية ، وعمل لما بعدها ، ونظر الى هذه الدار بعين الاعتبار . نسأله التوفق والقناعة وحسن الخاتمة ».

أما حسن الخاتمة فيشير الجبرتى الى آخر عمل أقدم عليه المهدى ليلا قبل موته مباشرة ، وهو فى سن الخامسة والسبعين . ولم يكد يفرغ من هذا العمل حتى استلقى على ظهره وفاضت روحه ، وهو جنب ، بجوار زوجته وكان ذلك ليلة الجمعة ٢ من صفر ١٢٣٠ (١٤ من يناير ١٨١٥) .

محمد على يصادر أموال السادات ويهدد أرملته باغراقها فى النيل

أما الشيخ محمد السادات فقد لقى مصيرا مشابها. لم يتردد محمد على فى اتخاذ اجراءات صارمة عقب وفاته للتحفظ على ثروته

تمهيدا لمصادرتها وأبدى رأيه فيه صريحا عنيفا جارحا يتنافى مع مركزه كنقيب للاشراف وكشريك له سابق فى التآمر على عمر مكرم • كان محمد على فى الفيوم حين جاز السادات الى ربه فى ٢١ من مارس ١٨١٣ فلما حمل اليه نبأ وفاته أمر بألا يتعرض احد لورثة المتوفى حتى يعود من سفره • وظل الموقف معلقا اربعة عشر يوما حتى وصل محمد على الى الجيزة • ولم يكد يستقر به المقام فيها حتى أصدر أمره بالتحفظ على دار الشيخ محمد السادات وفوجىء أهل منزله بقوة عسكرية تقتحم الدار وكان يصحبهم عدد من موظفى بيت المال وضعوا الاختام على خزائنه وعلى حجرات الدار وألقوا القبض على كاتب حساباته القبطى ولقبه عبد القدوس ، وعلى أحد فراشى النقابة • وأقيمت حراسة قوية حول الدار • وفى المساء عبر محمد على النيل الى القاهرة وصعد الى القلعة وفى صبيحة اليوم التالى ذهب اليه العلماء وتحدثوا معه فى رفع التحفظ على أموال المتوفى وقالوا له « ان بيوت الأشياخ مكرمة ولم تجر العادة بالختم على اماكنهم ، وخصوصا أن هذا المتوفى كان عظيما فى بابه ، وانتم أخبر به ، وكان لكم به مزيد عناية ومراعاة • فقال : نعم ، انى لا اريد اهانة بيتهم ، ولا أطمع فى شىء مما يتعلق بمشيختهم ولا وظائفهم القديمة • ولا يخفاكم ان المتوفى كان طماعا وجماعا للمال ، وطالت مدته ، وحاز التزامات واقطاعات ، وكان لا يحب قرابته ولا يخصهم بشىء ، بل كتب ما حازه لزوجته ، وهى جارية، نهاية ثمنها الفا قرش ، أو أقل أو أكثر • ولم يكتب لاولاد أخيه شيئا • فلا يصح ان أمة تختص بذلك كله ، والخزينة أولى به لاحتياجات مصاريف العساكر • ومحاربة الخوارج واستخلاص الحرمين وخزينة السلطان • وأنا أرفع الختم رعاية لخواطركم • فدعوا له ، وقاموا الى مجلس الكتخدا » •

كان محمد على يراوغ العلماء ويخادعهم بهذا الكلام حتى ينفضوا من عنده ، لأنه لم يتحول قيد أنملة عن رأيه ومضى فى اجراءاته التعسفية فارسل فى اليوم التالى قوة من الجنود رفعوا الاختام عن

دار الشيخ السادات واستدعوا سقاء الحريم، واستخدموا معه وسائل التعذيب ليدلهم على أماكن الخبايا ، كما أحضروا البناء الذى شيد الدار ليكشف لهم عن المخابىء السرية التى يعرفها بحكم عمله وهو يبنى الدار .

وقام أفراد القوة بتفتيش دقيق لجميع أماكن الدار ، واستمرت عمليـة التفتيش عدة أيام رابط فيها الجنود داخل المنزل وخارجه ، واسفر التفتيش عن العثور على مخابىء كدست فيها مقـادير وفيرة من الأوانى الصينية والقطن والصابون والبن والعسل والنحاس ثم عثروا على خزانة بها ١٢٧ كيسـا اى ٦٣٥ جنيها . ورفض محمد على الاعتراف بهذه التركة وهدد أرملة الشيخ السادات باغراقها فى النيـل اذا لم تفصح عن حقيقـة التركة التى خلفها المتوفى . وامر عبد القدوس كاتب حسابات الشيخ السادات بتقديم كشوف دقيقة توضح الايرادات والمصروفات عن السنوات السـابقة كى يستطيع فى ضوئها تقدير التركة ، وبذل السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة جهودا مضنية لدى محمد على حتى قبل اخيرا مصالحة الاسرة على الف وخمسة وخمسين كيسا اى ٥٢٧٥ جنيها وأن يترك لها باقى الاموال تتصرف فيها .

ولم يحترم محمد على وصية الشيخ محمد السادات اذ كان قد أوصى بأن يخلفه ابن أخيه أحمد يوسف فى نقابة الأشراف ومشيخة السادات ونظارة أوقاف المشهد الحسينى . فوزع محمد على هذه المناصب ، فاستبقى فقط مشيخة السادات فى ابن أخى المتوفى . أما نقابة الأشراف فقد عين لها الشيخ الدواخلى مكافأة له على تآمره بعمر مكرم ، كما قلد السيد محمد المحروقى نظارة أوقاف المشهد الحسينى واستأذن المحروقى من محمد على فى تزويج أرملة السادات لابن أخى المتوفى وهو أحمد يوسف أبو الاقبال واشترطت الارملة أن يطلق زوجته بحجة أنها كانت جاريتها زوجته بها فى حياة عمه وكان قد أنجب منها أولادا فنزل على رغبتها واستقر فى منزل عمه .

غير أنه اقرارا للحقيقة والتزاما بواجب الحيدة نقول ان اشتراك

الشيخ محمد السادات فى التآمر على عمر مكرم طمعا فى الظفر بنقابة الأشراف يجب ألا ينسينا مواقفه الوطنية النبيلة ابان ثورتى القاهرة : الاولى ضد بونابرت والثانية ضد كليبر ، كما يجب ألا نغمط حقه فى مواقف له كثيرة أبدى فيها شجاعة فى الرأى وجرأة فى الحق • فهذه المواقف فى مجموعها كفيلة بأن تغفر له شطرا من مواطن الضعف والنقد •

الدواخلى يلقى نفس مصير عمر مكرم :

أما الشيخ محمد الدواخلى ـ وقد تولى نقابة الاشراف بعد وفاة الشيخ محمد السادات ، وكان أول من سعى بالوقيعة بعمر مكرم ـ فقد حفلت حياته بالعبر والعظات ، وبدا كأن القدر نسج خيوطا دقيقة للمأساة التى انتهت بها حياته ليجعل منها صورة أخرى لمأساة عمر مكرم فى ملابساتها ومعقباتها •

اعتقد الشيخ الدواخلى ان الوقت قد صفا له بعد أن ظفر بمنصب نقيب الأشراف وأضفى عليه هذا المنصب الكثير من مظاهر الوجاهة وكان له ولع شديد بها، فركب الخيل ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ولبس التاج وسار أمامه الجنود واقتنى الدور • ولم يكد يمر أربعة عشر شهرا وهو فى وضعه المرموق الجديد حتى فجع فى ابنه فى مايو ١٨١٤ ولم يكن له من الاولاد الذكور سواه • وكان هذا الابن قد جاوز سن البلوغ • فوجد عليه وجدا شديدا خرج به عما يجب أن يتجمل به المؤمنون اذا ابتلوا بنقص فى الاموال أو الانفس أو الثمرات • فكان يتفوه بعبارات نقمها الناس عليه • وبنى لابنه مقاما وأقام مقصورة على غرار المقامات التى تقصد للزيارة وكان حريا به بعد فجيعته فى ابنه أن يمشى على الارض هونا ويتجرد من صفات الغرور والتعالى على الناس ، ولكنه سدر فى غيه ، وكأن هذه الصفات المرذولة قد صبت فى دمه والتحمت بنفسه فلم يستطع منها فكاكا • ويلوح أن محمد على قدر فجيعة الدواخلى فى ابنه وأراد أن يجامله ليخفف من وقعها فى نفسه ، فكان يقضى معه أوقاتا طويلة

يسترسل معه فى المسامرة والمضاحكة ويظهر له لين الجانب ورقيق الشعور ، وأصبح الدواخلى من أقرب المقربين الى محمد على . فلما آنس منه هذه الروح الطيبة وزاد اقبال الباشا عليه ركبه الغرور ، وزاد طمعه فى الوالى ، وكان ينعم عليه بالاموال والمرتبات ، وتقدم الدواخلى من ناحيته بمطالب شخصـية توالت بعضها فى اثر بعض وكان يستجيب له محمد على . وكان يصعد كل يوم الى القلعة ويشار اليه ويفصل فى قضايا الناس . واعتقدت الجماهير أن الدواخلى هو الناطق بلسان محمد على وانطلق ينشر أنباء غير صادقة عن اعتزام محمد على العودة الى نظام الالتزام واعادة الاراضى الموقوفة الى نظارها القـدامى ، وكانت كل هذه أراجيف . والحقيقة أن محمد على كان يسايره فى أحاديثه فهو تارة يطلب اليه أن يعيد له حصص الالتزام ، وتارة أخرى يطلب تعيينه ناظرا لبعض الأوقاف . ويعتقد الدواخلى أن محمد على قد أخذ برأيه وينزل من القلعة ويذيع فى مجالسـه هذه الانباء الامر الذى أحدث بلبلة فى أفكار الجماهير التى اعتقدت أن محمد على قد عاد الى احترام تقاليد البلاد وعاداتها . وبلغ من غرور الدواخلى انه كان يتطاول على كبار القوم ـ مسلمين وأقباط ـ تارة بالسب وتارة بالضرب وارتفعت شكاياتهم منه الى محمد على مما أوغر صدره عليه وضاق ذرعا بتصرفاته ، وبخاصة عندما أكثر من تعرضه للقاضى فى الأحكام التى يصدرها . فصحت عزيمته على التخلص من الشيخ الدواخلى وذلك بعزله من منصب نقيب الأشراف ونفيه من القاهرة على غرار ما وقع للزعيم عمر مكرم واتجه فكره نحو السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة وعرض عليه منصب النقيب ، ولكنه اعتذر وقال « أنا متقيد بخدمة أفندينا ومهمات المتاجر والعرب والحجاز » واقترح عليه اسناد النقابة الى الشيخ البكرى لأنها كانت مضافة اليه وهو أولى بها من غيره .

وفى ١١ فبراير ١٨١٦ طلب محمد على المشايخ وفيهم الشيخ البكرى الى الاجتماع به فى القلعـة ، ولم يوجه الدعوة الى الشيخ

الدواخلى . ولما اكتمل جمعهم أعرب لهم محمد على عن رغبته فى عزل الدواخلى من نقابة الأشراف ونفيه من القاهرة وتعيين الشيخ البكرى نقيبا للأشراف فاستصوب العلماء رأيه ـ وما كانوا يستطيعون غير ذلك ـ وألبسوا البكرى خلعة النقابة ولم يكد ينفض الاجتماع حتى أصدر محمد على قرارا باخراج الدواخلى من القاهرة منفيا الى دسوق . وحمل قرار النفى الترجمان احمد الملا وصحبه أحد جنود الشرطة الأتراك . وذهبا الى دار الدواخلى ، فدخلا اليه على حين غفلة ، وكان مع حريمه ، ولم يكن يعلم شيئا مما جرى ، فخرج اليهما ، وقدم له الترجمان أمر النفى ، فكان صدمة عنيفة له وتبخر غروره وأصيب بذهول . يقول الجبرتى « فلما قرأه غاب عن حواسه ، وأجاب بالطاعة ، وأمروه بالركوب فركب بغلته ، وسارا به الى بولاق الى المنزل الذى كان شراه بعد موت ولده ، وانسل مما كان فيه كانسلال الشعر من العجين وتفرق الجمع الذى كان حوله » (١) .

ولم تقف المأساة بالدواخلى عند هذا الحد ، بل عمل الأشياخ على تجريحه فى مذكرة رسمية ترفع الى الاستانة كما فعل من قبل مع عمر مكرم . فشرعوا « فى تنميق عرضحال عن لسانهم بأمر الباشا بتعداد جنايات الدواخلى وذنوبه وموجبات عزله ، وان ذلك بترجيحهم والتماسهم عزله ونفيه ». وقد نسب المشايخ فى عريضتهم الى الشيخ الدواخلى عدة مآخذ منها أنه تطاول بالسب على حسين افندى شيخ رواق الاتراك بالازهر وحبسه على الرغم من انه رجل مسن ضليع فى علمه ويقوم بالتدريس. وأضافوا الى هذا الاتهام واقعة تنم عن خراب ذمته . ومنها أن فتوى شرعية صدرت من أحد الفقهاء ولم ترق هذه الفتوى الشيخ الدواخلى فتطاول على الفقيه بالسب والضرب ونزع عمامته من على رأسه . ومنها أنه يقحم نفسه فى

(١) الجبرتى ج ٤ ، حوادث شهر ربيع أول ١٢٣١ (٣١ من يناير ـ ٢٩ من فبراير ١٨١٦) ص ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

مسائل تدخل فى اختصاص شيخ الأزهر وانه يعترض على الاحكام التى يصدرها القاضى ويكتب فى بيته مستندات القضايا ويسب اتباع القاضى ورسل المحكمة . ثم وضع الاشياخ أختامهم على العريضة وبعث بها محمد على الى نقيب الأشراف بدار السلطنة فى الاستانة . ويسمى الجبرتى الاتهامات التى وردت فى عريضة المشايخ نكات فارغة ويقرر أن هناك أسبابا أعمق بكثير من هذه النكات الفارغة هى التى حملت محمد على القولى على عزله ونفيه من القاهرة (١) .

ابتهاج المشايخ بنكبة الدواخلى :

وبلغ من تدهور الزعماء وحقد بعضهم على بعض انهم لم يستطيعوا اخفاء ابتهاجهم بالنكبة التى وقعت بالشيخ الدواخلى فقد « أظهر الكثير من نظرائه المتفقهين الشماتة والفرح وعملوا ولائم وعزائم ومضاحكات » .

وقضى الدواخلى شهرا فى منفاه فى مدينة دسوق ثم نقل بشفاعة السيد محمد المحروقى الى المحلة الكبرى . وفى منفاه الجديد لم يسأم من الكتابة الى المحروقى متوسلا اليه كى يتدخل لدى محمد على لاستصدار قرار بالعفو السياسى عنه . وكان يدعم التماساته المكرورة تارة بحرصه على اداء فريضة الحج ، وتارة أخرى باشتداد وطأة المرض عليه ورغبته فى أن يموت بين ذويه فى القاهرة (٢) . ولم يستجب محمد على لالتماساته المتتالية . وقضى البقية الباقية من حياته فى منفاه شارد الذهن حزين الفؤاد حتى قضى نحبه فى المحلة الكبرى فى منتصف ربيع الاول سنة ١٢٣٣ (٩ من يناير ١٨١٨ ـ ٧ من فبراير ١٨١٨) وكان عمر مكرم على مسافة قريبة منه لا تتعدى بضعة كيلومترات اذ كان لا يزال منفيا فى طنطا ولم يكن قد صدر عفو القولى عنه . وقد دفن الدواخلى فى

(١) المصدر السابق .

(٢) الجبرتى ج ٤ ترجمة الشيخ محمد الدواخلى ص ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

المحلة الكبرى • ويعلق الجبرتى على نهاية الشيخ محمد الدواخلى تعليقا ينم عن شماتته به لانه والحق يقال كان قوام الوقيعة بعمر مكرم فيقول « ان الذى وقع لهذا الدواخلى انما هو قصاص وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم ، فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن عزلوه وأخرجوه من مصر (القاهرة) • والجزاء من جنس العمل (١) كما قيل •

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

لقد نجح محمد على أولا فى اقصاء عمر مكرم عن الحياة العامة ، ثم عمل على تصفية الزعامة الشعبية ، وأصبح الأشياخ المتصدرون الذين كانوا من قبل ملء السمع والبصر يعيشون على هامش الحياة الى أن طواهم الموت الواحد بعد الآخر: سليمان الفيومى ثم الشرقاوى فالسادات فالمهدى فمحمد الأمير ثم الدواخلى ويلخص الجبرتى الموقف بعد نفى عمر مكرم فيقول « ان السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم (اى على المشايخ) وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية • ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض » (٢) •

على هذه الصورة انتهت حياة زعماء الصف الأول ، أما زعماء الصف الثانى من المشايخ والمتعممين فما كان فى استطاعتهم أن يبلغوا فى ظل هذا الحاكم القولى شيئا من علو المكانة ، كما أن صفاتهم لم تكن تؤهلهم ليتبوءوا مكانا عليا • وقد أصدر الجبرتى حكمه عليهم فى فبراير ١٨١٦ فقال انهم « انهمكوا فى الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال فى المآتم ، والمسارعة الى الولائم فى الافراح والمآتم ، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم ، فتراهم فى كل دعوة ذاهبين ، وعلى الخوانات راكعين ، وللكباب وللمحمرات خاطفين ، وعلى ماوجب عليهم من النصح تاركين » •

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٤٥

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٠١

ابراهيم يمتهن كرامة العلماء :

وهذا التدهور الذى لحق بمشايخ الصف الثانى جعل ابراهيم باشا ابن محمد على يقسو عليهم ويمتهن كرامتهم ، وقد حدث أن ذهب المشايخ فى ديسمبر ١٨١٩ الى ابراهيم باشا يهنئونه بسلامة العودة من الاقطار الحجازية بعد انتهاء الحروب الوهابية ، فأدخلوا عليه فى ديوانه « لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام ، فجلسوا ، وجعلوا يهنئونه بالسلامة ، فلم يجبهم ، ولا بالاشارة ، بل جعل يحادث شخصا عنده ، وقاموا على مثل ذلك منصرفين ومنكسفين ومنكسرى الخاطر • » وفى شهر شوال ١٢٣٥ (١٢ يوليو ١٨٢٠ ـ ٩ من أغسطس ١٨٢٠) وجهت الدعوة الى كبار المشايخ والشيخ البكرى نقيب الاشراف لحضور حفل فخم أقيم بمناسبة ختان عباس باشا حفيد محمد على (والى مصر فيما بعد) وادخلوا الى القاعة التى جلس فيها ابراهيم وكان « كل من دخل منهم يجلسونه من سكوت ، ولم يقم لواحد منهم ، ولم يرد على من يسلم ولا بالاشارة ، السلام ولم يكلمهم بكلمة يؤانسهم بها • وحضرت المائدة فتعاطوا الذى تعاطوه ، وانقضى المجلس وقاموا وانصرفوا من سكوت • »

ان الزعامة الشعبية كانت ستلقى حتما ـ ان عاجلا وان آجلا ـ مصيرها المحتوم على يد محمد على ، لأن هذا الحاكم القولى ما كان يطيق وجود زعماء مصريين يراقبون أعماله أو يحدون ـ على أى نحو من الأنحاء ـ من تصرفاته فى الحكم • أما الخديعة التى قام بها محمد على فى غرس بذور الانقسام بين الزعماء والتلويح لهم بالمناصب والمنافع ، وأما التحاسد والتباغض والتدهور الذىأصاب معظم الزعماء ، فكل ذلك كان عوامل ساعدت القولى على الاسراع بخطى حثيثة للتخلص منهم • وكان على الشعب أن ينتظر ـ بعد المأساة التى نزلت بعمر مكرم ـ نيفا وسبعين سنة لتظهر فى مصر زعامة شعبية جديدة من طراز جديد ولأهداف جديدة ، وتمثلت هذه الزعامة فى أحمد عرابى ورفاقه •

الفصل العشرون

الزعيم فى منفاه

ظل عمر مكرم منفيا فى دمياط تحت حراسة مشددة « والحراس ملازمون له » لا يسمحون له بالاختلاط بأحد ٠ وعاش سنوات مظلمة كثيفة الاظلام ينتظر الفرج الذى أبطأ عليه وأسرف فى الابطاء ٠ وكان يقضى سحابة النهار فى السير على شاطىء البحر ترويحا لنفسه عما كان يشعر به من ضيق وآلام نفسية مبرحة ، ثم رأى أن يخلق لنفسه عملا يتشاغل به فشرع فى بناء خان (١) ليقصده التجار الذين يفدون الى دمياط من موانى الشام وبلاد الأناضول٠ وحدث أن زار دمياط قاضى القضاة ـ وكان يطلق على شاغل هذا المنصب قاضى عسكر افندى ـ وكان ذلك فى أواخر شهر ربيع الأول ١٢٢٧ (النصف الاول من ابريل ١٨١٢) فطلب اليه عمر مكرم أن يفاتح محمد على فى نقله من دمياط الى طنطا واستجاب الوالى لرغبة عمر مكرم فغادر دمياط بعد أن أمضى فيها قرابة ثلاث سنوات ٠

وفى طنطا امتدت اقامة عمر مكرم منفيا زهاء سبع سنوات كان محمد على قد وطد خلالها مركزه ، وكانت الانباء قد بلغت

---

(١) الخان هو وكالة أو فندق يعد لاستقبال التجار وبضائعهم ٠ وفى أعلاه مساكن للنازلين به تطل على ساحة تتوسط الخان ٠ ويوجد بالخان عادة بئر ماء وميضأة ومسجد صغير ، كما توجد به حظيرة لدواب التجار ٠

القاهرة فى ٩ من أكتوبر ١٨١٨ باستيلاء ابراهيم باشا على الدرعية عاصمة الوهابيين فى اقليم نجد • فأخذت القاهرة زخرفها وأزينت سبع ليال متواليات ابتهاجا بهذا الانتصار العسكرى وانتهاء الحروب الوهابية •

وفى غمرة هذه الأفراح بعث عمر مكرم بخطاب الى محمد على يهنئه فيه بالنجاح الذى أحرزه فى الحروب الوهابية • وكأنه يذكره بأن هذا المجد العسكرى والسياسى والدينى الذى ناله يجب الا ينسيه الدور القيادى الذى قام به عمر مكرم واسفر عن تقليد محمد على حكم مصر كما يجب الا ينسيه الخدمات الجليلة التى أسداها عمر مكرم اليه فى توطيد مركزه خلال السنوات الاولى من حكمه • وقد بعث بخطابه اليه مع حفيده السيد صالح • وكان محمد على مقيما فى الاسكندرية فقابله بالترحاب وسأله عن حال جده وأعاد عليه السؤال عدة مرات والحفيد يقول له « بخير ويدعو لكم • فقال له هل فى نفسه شىء أو حاجة نقضيها له ؟ فقال لا يطلب غير البقاء لحضرتكم » • ثم انصرف الى المكان الذى نزل به ، فأرسل اليه محمد على فى اليوم التالى أحد أتباعه يستفسر منه عما يطلبه عمر مكرم ويجد الحفيد حرجا فى مفاتحة محمد على فيه • ولم يزل هذا المبعوث يلاطف حفيد عمر مكرم ويستدرجه فى الحديث حتى أفصح له عن رغبة جده فى أداء فريضة الحج • فلما علم محمد على أجابه الى تحقيق رغبته وأذن له فى العودة الى القاهرة والاقامة فى منزله حتى يحين موسم الحج • وترك له حرية اختيار وسيلة السفر الى الحجاز اما برا واما بحرا • وقال محمد على « أنا لا أتركه فى الغربة هذه المدة الا خوفا من الفتنة • والآن لم يبق شىء من ذلك ، فانه أبى ، وبينى وبينه مالا أنساه من المحبة والمعروف » • وكتب له خطابا يفيض بأسمى مشاعر التقدير • وقد أورد الجبرتى النص الحرفى لهذا الخطاب :

« الى مظهر الشمائل سنيها ، حميد الشئون وسميها ، سلالة

بيت المجد الأكرم ، والدنا السيد عمر مكرم ، دام شأنه • أما بعد ، فقد ورد الكتاب اللطيف من الجناب الشريف ، تهنئة بما أنعم الله علينا ، وفرحا بمواهب تأييده لنا ، فكان ذلك مزيدا في السرور ، ومستديما لحمد الشكور ، ومجلبة لثناكم ، واعلانا بنبل مناكم ، جزيتم حسن الثنا ، مع كمال الوقار ، ونيل المنى •

هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الاذن فى الحج الى البيت الحرام وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام ، للرغبة فى ذلك والترجى لما هنالك • وقد أذناكم فى هذا المرام ، تقربا لذى الجلال والاكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام ، فلا تدعوا الابتهال ولا الدعاء لنا بالقال والحال ، كما هو الظن فى الطاهرين ، والمأمول من الأصفياء المقبولين • والواصل لكم جواب منا خطابا الى كتخدائنا • ولكم الاجلال والاحترام • مع جزيل الثناء والسلام • » وقد ناول محمد على هذا الخطاب الى حفيد عمر مكرم كما سلمه صورة من خطاب بعث به الى كتخداه ــ وكيله فى القاهرة • وقد وصل خطاب الكتخدا الى القاهرة قبل وصول النبأ الى أسرة عمر مكرم • فزف الكتخدا اليها البشرى وانتشر النبأ بين أهل القاهرة وكان الناس بين مصدق ومكذب حتى وصل عمر مكرم فى ١٢ من ربيع أول ١٢٣٤ (٩ من يناير ١٨١٩) الى بولاق وقصد الى مسجد الامام الشافعى وزار ضريحه ثم صعد الى القلعة وقابل وكيل محمد على وسلم عليه ، وأنشد الشعراء قصائدهم مرحبين بمقدمه وكان يقدم لهم الجوائز والعطايا فى حدود امكانياته المالية •

وعلى الرغم من ان غيبة عمر مكرم فى المنفى قد استطالت عشر سنوات فان الشعب لم ينس زعامة عمر مكرم واستمر تعلق الشعب به واستمر ازدحام الناس على داره • الأمر الذى أثار مخاوف محمد على • وشعر عمر مكرم بذلك فآثر الابتعاد عن الجماهير واعتكف فى داره لا يغادرها ولا يجتمع به فيها الا ذووه •

ويرى الجبرتى أن اعتكاف عمر مكرم يدل على حصـافته فيقول « واستمر ازدحام الناس أياما ثم امتنـع عن الجلوس فى المجلس العـام نهـارا ، واعتـكف بحجـرته الخاصـة ، فلا يجتمع به الا بعض من يريده من الأفراد ، فانكف الكثير عن الترداد . وذلك من حسن الرأى » (١) والعبـارة الأخيرة تدل على أن اعتكافه كان سياسيا . وكانت هذه الحادثة هى آخر ما كتبه الجبرتى عن حياة عمر مكرم لأنه وقف فى تسجيل الحوادث عند نهاية سنة ١٢٣٦ هـ (٢٧ من سبتمبر ١٨٢١) . ويهمنا أن نضيف هنا أن عمر مكرم تعذر عليه أداء فريضة الحج لأنه كان قد غدا رجلا طاعنا فى السن ووهن العظم منه .

ما كان محمد على ليدع عمر مكرم يمضى البقية الباقية من حياته فى هدوء وطمأنينة . ولم يجد نفعا الحذر الذى أخذ عمر مكرم نفسه به . فالاعتكاف السياسى والانزواء فى عقر داره فى ضاحية مصر القديمة والشيخوخة وتدهور صـحته كل أولئك لم يجعله بمنجاة من ظنون ومخاوف وبطش محمد على . أما روح السماحة التى تظاهر بها محمد على فى ديسمبر ١٨١٨ حين أذن لعمر مكرم فى العودة الى القاهرة من منفاه فى طنطا فكان مردها الى عاطفـة عابرة غمرته وهو على قمة السعادة التى كانت تفيض بهـا مشاعره وقتذاك بسبب انتصاره فى الحروب الوهابية وارتفاع اسمه فى جنبات العالم الاسلامى . وسرعان ما عاودته طبيعته القـائمة على العنف والاستبداد والغـدر والتنكر لأصحاب الفضل عليه . كان أهل القاهرة قد قاموا فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ بانتفاضة على حكم محمد على معلنين سخطهم العميق على سياسته الضريبية الجائرة اذ كان قد فرض عليهم وقتئذ مزيدا من الضرائب واعتقد القولى أن للسـ

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .
وانظر أيضا أمين سامى ج ٢ ص ٢٧٧ .

عمر مكرم يدا فى هذه الانتفاضة فأمر بنفيه من جديد الى طنطا واخراجه من القاهرة فى نفس اليوم ٠

كان سلطان الدولة العثمانية قد طلب من محمد على ارسال حملة عسكرية الى جزيرة كريت للقضاء على الثورة التى اندلعت فى ارجاء الجزيرة سنة ١٨٢١ ضد الحكم العثمانى وعجز السلطان عن اخمادها ٠ واستجاب محمد على لرغبة السلطان ، وأعد حملة بقيادة حسن باشا بلغ عدد أفرادها ٤٫٤٠٠ جندى من المشاه وأربعمائة من الفرسان (١) ٠ وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لتجهيز هذه الحملة بالمؤن والسلاح ـ وقد أبحرت فيما بعد فى مايو ١٨٢٢ من الاسكندرية الى ثغور جزيرة كريت ـ فاجأ محمد على أهل القاهرة بفرض ضريبة جديدة على العقارات المبنية ٠ وكان قد قرر هذه الضريبة أول الامر على العقارات المشيدة فى الأقاليم ولقى تذمرا وسخطا بالغين من الأهلين ٠ وكان يعتزم فرضها أيضا فى القاهرة ولكنه آثر التريث حتى تهدأ العاصفة ٠ فلما خفت حدة التذمر شرع ينفذها فى القاهرة ووجد فى ارسال الحملة العسكرية المصرية الى جزيرة كريت ذريعة لتحصيلها بحجة تغطية النفقات الحربية ٠ وتنفيذا لأوامره أرسل الكتخدا ـ وكيله ـ لجانا فنية يرافق أعضاءها جنود مسلحون يجوسون خلال الديار فى مختلف أحياء القاهرة ٠ وذهبت فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ لجنة قوامها ثلاثة أعضاء الى حى باب الشعرية ، وأثاروا بتصرفاتهم الشاذة سكان هذا الحى ٠ وكانت نفوس السكان مهيأة من قبل للثورة ٠ فطلب رئيس اللجنة من أحد تجار الفاكهة ـ وكان كبير التجار فى هذه المنطقة وزعيمها ـ أن يدله على مواقع المنازل التى يمتلكها لمعاينتها وتقدير

---

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع فى كتاب دكتورة زينب راشد : كريت تحت الحكم المصرى ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ القاهرة ١٩٦٤ من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ص ٥١ ـ ٥٨

الضريبة عليها • وأغلظ له فى القول ، فما كان من التاجر الا أن أمسك بنبوت وانهال به على رأس أعضاء اللجنة يوسعهم ضربا وهو يصيح بسقوط الظلم والطغيان • وردد سكان باب الشعرية هتافات عدائية كانت مدوية عالية • وأغلقت جميع المحلات القائمة فى هذا الحى ، واحتشدت الجماهير الصاخبة من كل حدب وصوب ، واتجهت فى كتل متراصة الى دار الشيخ محمد العروسى شيخ الجامع الأزهر • وكان يقع منزله على مقربة من باب الشعرية • ووجه اليه متزعمو الحركة جارح الكلم واتهموه بالتقاعس عن الدفاع عن مصالح الشعب وبالركون الى مسالمة محمد على طمعا ورهبا • وطلب منه الثائرون أن يذهب معهم الى الجامع الأزهر لعقد اجتماع عام على غرار الاجتماعات التى كان يشهدها الأزهر كلما اشتدت الخطوب بالشعب • ونزل الشيخ محمد العروسى على رغبتهم وتكون موكب حاشد جرار انتظم الرجال والنساء والأطفال • وكان النساء يرتدين السواد تعبيرا عن سخطهن على حكم محمد على • وكان فى مقدمة الموكب الشيخ العروسى راكبا بغلته • وانطلق المتظاهرون يوجهون اليه السباب والشتائم ، بل ان بعضهم لم يتورع عن قذفه بالطوب • وكاد يتعرض لاصابات بالغة لولا أن تدخل الجنود فى الوقت المناسب لمنع الاعتداء عليه ، اذ أحاطوا بالشيخ العروسى ودفعوا بغلته على الاسراع فى خطاها حتى وصلوا به الى جامع الأزهر فأدخلوه وأغلقوا جميع أبوابه حتى يمنعوا دخول الشعب الثائر • (١)

واتخذ محمد على اجراءات سريعة صارمة لوأد هذه الانتفاضة الشعبية التى تهدد مركزه فأرسل قوات مسلحة الى منطقة الازهر استطاعت أن تسيطر على الموقف بعد عصر ذلك اليوم وتفرق الحشود • وعندئذ خرج الشيخ محمد العروسى ومعه الشيخ محمد

---

(١) Mengin, ouvr, cit., t 2, pp 244-246

الأمير متخفيين من جامع الأزهر وصعدا الى القلعة حيث قابلا وكيل محمد على . وباتت القاهرة ليلتها وظلت بضعة أيام تعيش على أعصابها كأنها على فوهة بركان مضطرب ينذر بالانفجار فى كل حين وآن ، فالأسواق مقفرة والمحلات مغلقة على الرغم من أوامر الحكومة بضرورة فتحها والنفوس متحفزة محنقة ويتهدد محمد على بتجدد الثورة وبخاصة بعد أن انتشرت أنباؤها فى مختلف الأقاليم (١) .

وكان من الطبيعى - بعد أن أصيب الشعب بصدمة من الموقف الذى اتخذه علماء الأزهر - أن تعود به الذاكرة الى أيام النضال الذى حمل لواءه الزعيم عمر مكرم ، فكان الشعب يذكر بكل تقدير هذا الزعيم وكفاحه فى الدفاع عن حقوق الجماهير الكادحة ورفع المظالم عنها. وقد نقل رجال الحكومة الى محمد على أنباء همسات الجماهير وتطلعها الى عمر مكرم فاستبدت به الظنون بأن عمر مكرم هو الذى حرك الثورة ، وعند ذلك صحت عزيمته على نفيه مرة أخرى .

واذا كان الجبرتى لم يدون أحداث هذه المحنة الجديدة التى تعرض لها عمر مكرم ، لأنه وقف بكتابته عند ٢٧ سبتمبر ١٨٢١ كما سبق أن ذكرنا ، فاننا نتتبع ما بقى لعمر مكرم من خطوات أخيرة فى حياته مما كتبه الدبلوماسى والمؤرخ الفرنسى مانجا Mengin . فهو يقول ان محمد على « خشى نتائج نفوذ رجل معتكف اعتكافا تاما عن الناس » فاتخذ اجراءات أملتها رغبته فى المحافظة على النظام والابقاء على سلطته وخشيته من تجدد قيام حركات مشابهة لهذه الانتفاضة فأوفد فى ٥ من أبريل ١٩٢٢ أحد الضباط الى دار عمر مكرم فى جهة أثر النبى بمصر القديمة لاقتياده الى منفاه . وكان عمر مكرم مستريحا فى فراشه بالدور العلوى بعد

---

(١) ibid.

ان تناول طعام الغداء • فأيقظوه من نومه وهبط الى « المندرة » فلما أقبل عمر مكرم وقف له الضابط واقترب منه وقبل يده • فقال له عمر مكرم « خيرا ان شاء الله » فقال الضابط ان مولاه محمد على يريد منه أن يرحل الى طنطا • فأجاب عمر مكرم بأنه مستعد للرحيل فى أى وقت يشاء محمد على ، وأنه سيعد سفينة يرحل عليها • فقال له الضابط ان الحكومة قد أعدت له سفينة ، وانها راسية فى مرسى السفن بمصر القديمة ومهيأة للسفر فورا ومجهزة بكل ما يحتاج اليه فى سفره • فأدرك عمر مكرم أن محمد على مصمم على ابعاده من القاهرة فى نفس اليوم • فخرج مع الضابط يحيط به الحراس وأبحرت بهم السفينة فى مساء نفس اليوم وهو ٥ من ابريل ١٨٢٢ •

ويعلق الدبلوماسى والمؤرخ الفرنسى على نفى عمر مكرم للمرة الثانية فيقول « أراد الوالى اقصاء هذا الشيخ الطاعن فى السن لأنه اعتقد أنه هو الذى حرك الثورة الشعبية التى اندلعت فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ • ان هذا الرجل ـ وهو على حافة القبر ـ قد اختار له مسكنا فى الضاحية ، ليعيش فى هدوء ، بعيدا عن الجماهير وصخب المسائل العامة ، ولم يكن يغادر منزله • » (١) وهى شهادة رجل فرنسى كان من المقربين الى محمد على ، وهى شهادة تدمغ القول بالتعسف وتدل على أنه لم يكن هناك ما يبرر اتخاذ هذا الاجراء الظالم فلم يقم دليل أو بادرة دليل على أنه كانت لعمر مكرم يد فى انتفاضة الشعب فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ ، ولكن كان محمد على يتوجس خيفة من الزعيم وظل الى آخر أدوار حياة عمر مكرم يحسب له حسابا كبيرا ، لأنه كان فى شك منه مريب •

ولم تطل مدة نفى الزعيم هذه المرة اذ جاز الى ربه فى نفس السنة (١٨٢٢) وطويت صفحة زعيم مصرى صميم كان كبير

---

(١) Mengin, ouvr. cit., t II 246-247

الزعماء اتصف بالشجاعة الأدبية والصدق والصبر والثبات والترفع عن الصغائر والتنزه عن الأحقاد الشخصية ، لم يستهوه جاه أو مال أو سلطة ، ومن هنا كانت قيمته كزعيم وطنى وأخلاقى •

وقد عرفت حكومة الثورة فى مصر قدر هــذا الزعيم وخلدت ذكراه ، فشيدت مسجدا فخما يطل على أكبر ميدان فى القاهرة وهو ميدان التحرير ، وأطلقت على هذا المسجد اسم عمر مكرم ، كما أطلقت اسمه على عدد من المدارس فى بعض محافظات الجمهورية العربية المتحدة ليذكر المصريون ـ كبارهم وصغارهم ـ كفاح هذا الزعيم الذى قاد المقاومة الشعبية ضد العدوان الفرنسى ثم العدوان البريطانى ثم استبداد محمد على وكانت معظم سنى حياته سلسلة من المحن والمكاره صبر عليها صبر أولى العزم من الكرام المجاهدين •

المصادر والمراجع العربية التى وردت فى هوامش الكتاب مرتبة أبجديا

١ ـ **أحمد حافظ عوض** : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٥ .

٢ ـ **أحمد لطفى السيد** : قصة حياتى .

٣ ـ **توفيق الطويل (دكتور)** : التصوف فى مصر ابان الحكم العثمانى مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، (لم تذكر سنة الطبع) .

٤ ـ **حسين مؤنس (دكتور)** :
الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ٦ ١٩٣٨.

٥ ـ **زينب عصمت راشد (دكتورة)** :
كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٨٦٤ .

٦ ـ **عبد الرحمن الجبرتى** : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، أربعة أجزاء .

٧ ـ **عبدالرحمن الرافعى** : تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم فىمصر الجزء الأول ، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٥٥، الجزء الثانى، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٥٨ .

٨ ـ **عبد الرحمن الرافعى** :
عصر محمد على . الطبعة الثانية ، سنة ١٩٤٧ .

٩ ـ **على مبارك** : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . مطبعة بولاق ١٣٠٦ هـ ، عشرون جزءا ، (الأجزاء ١ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧) .

١٠ ـ **محمد رفعت رمضان (دكتور)** : على بك الكبير • دار الفكر العربى ، (لم تذكر سنة الطبع) •

١١ ـ **محمد شفيق غربال** : محمد على الكبير • (سلسلة أعلام الاسلام) • القاهرة أكتوبر ١٩٤٤ •

١٢ ـ **محمد فريد أبو حديد** : سيرة السيد عمر مكرم من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٣٧ •

١٣ ـ **محمد فؤاد شكرى (دكتور)** : الحملة الفرنسية وظهور محمد على • مطبعة المعارف • (لم تذكر سنة الطبع) •

١٤ ـ **محمد فؤاد شكرى (دكتور)** : عبدالله مينو وخروج الفرنسيين من مصر • دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٢ •

١٥ ـ **محمد فؤاد شكرى (دكتور)** : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ ـ ١٨١١) القاهرة ٦ ١٩٥٨ ، ثلاثة أجزاء •

١٦ ـ **مختار (لواء)** : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية• مطبعة بولاق١٣١١ هـ•

١٧ ـ **محمود الشرقاوى** : مصر فى القرن الثامن عشر
الجزء الأول : عبد الرحمن الجبرتى ـ الحياة الفكرية والاجتماعية القاهرة ، ١٩٥٥
الجزء الثانى : الأزهر والعلماء ، أيام المماليك• القاهرة ١٩٥٦
الجزء الثالث : شعب مصر وكفاحه ، صفحات من سيرة محمد على • الطبعة الثانية ، القاهرة.١٩٥٧ •

١٨ ـ **نقولا ترك** : مذكرات نقولا ترك • نشر وتعليق جاستون فييت • مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية • القاهرة ، ١٩٥٠ •

١٩ ـ **امين سامى** : تقويم النيل ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، سنة ١٩٢٨ ، الجزء الثانى •

المصادر والمراجع غير العربية
التى وردت فى هوامش الكتاب مرتبةأبجديا .

1. Achille de Vaulabelle, Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, (10 vols., Paris, 1832), t. IX.
2. Bridier, L., Une Famille Française, Les de Lesseps, (Paris, 1900).
3. Clot Bey, A.B., Aperçu Général sur l'Egypte, Paris 1840.
4. Combe Etienne, L'Egypte Ottomane de la Conquête par Sélim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). Précis de l'Histoire d'Egypte, 4 vols., t. III, Le Caire 1933.
5. Delaporte, Abrégé chronologique de l'histoire des Mamelukes d'Egypte, depuis leur origine jusqu'à la conquête des Français. Descrription de l'Egypte. Imprimerie Impériale, Paris 1809-1822, Etat Moderne, t. II.
6. Douin George, L'Egypte de 1802 à 1804. Correspondance des Consuls de France en Egypte. (Recueillie et publiée par Douin G.) Le Caire, 1925.
7. Douin George, Mohamed Aly, Pacha du Caire, 1805-1807, Correspondance des Consuls de France en Egypte (Recueillie et publiée par Douin G.), Le Caire, 1926.
8. Douin George et Mme Fawtier Jones, L'Angleterre et l'Egypte. La Campagne de 1807, Le Caire, 1928.
9. Douin George et Mme Fawtier Jones, L'Angleterre et l'Egypte. La Politique Mameluke, t. I, 1801-1803, Le Caire, 1929.
10. Douin George, L'Angleterre et l'Egypte. La Politique Mameluke, t. II, 1803-1807, Le Caire, 1930.

11. Driault Edouard, Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814) Correspondance des Consuls de France en Egypte. (Recueillie et publiée par Driault), Le Caire, 1925.
12. Fisher, H.A.L., A History of Europe. Complete edition in one volume, London, 1955.
13. Gouin Edouard, L'Egypte au Dix-Neuvième Siècle. Histoire Militaire et Politique, Anecdotique et Pittoresque de Méhémet Ali, Ibrahim Pacha, Soliman Pacha (Colonel Sèvès), Paris, 1847.
14. Grant A.J. and Harold Temperley, Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries (1789-1950), Sixth Edition, London, 1953.
15. Guémard Gabriel, Les Réformes en Egypte (d'Ali Bey El Kébir à Méhémet Ali 1760-1848), Le Caire, 1936.
16. Guindi George et Tagher Jacques, Ismail d'après les documents officiels avec avant-propos et introduction historique, Le Caire, 1946.
17. Larousse Encyclopédique, Paris, 1923.
18. Mengin Félix, Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly, 2 vols., Paris, 1823.
19. Mengin Félix, Histoire Sommaire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly, Paris, 1839.
20. Napoléon, Correspondance de Napoléon. Paris, 32 vols.
21. Paton A.A., A History of the Egyptian Revolution, from the period of the Mamelukes to the death of Mohammed Aly, 2 vols., 2nd edition, London, 1870.
22. Sabry Mohammed Dr., L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et la Question d'Orient (1811-1849), Paris, 1930.
23. Shafik Ghorbal, The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, London, 1928.
24. Wiet Gaston, L'Agonie de la Domination Ottomane en Egypte. Cahiers d'Histoire Egyptienne, Série II, Nos. 5-6

صفحة

فهرس

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون ...	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	. سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الاصمعى	. أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	انور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين